القـــدم الرحّالـــة

(حكاية طبيب)

ألكساندر كروكشانك

Itchy Feet- A Doctor's Tale
Alexander Cruickshank

الناشر: آرثر ه. أستوكويل
ترجمة : دكتور طارق عبد الكريم الهد

القـــــدم الرحّالـــــة
ترجمة : دكتور طارق عبد الكريم الهد

تصميم الغلاف : أحمد بلال

الطبعة الأولى : ديسمبر 2018
رقم الإيداع : 2018/23561
الترقيم الدولي : 978-977-769-245-2

جميع حقوق الطبع محفوظه
الناشر: أوراق للنشر والتوزيع
awraaq@live.com
القاهرة – 4 شارع محمد مظلوم -
من صبري أبوعلم - عمارة
أنور وجدي - الدور الثاني - مكتب 25
م : 01010490247
ت : 0223963002 (+2)

مقدمة الكتاب

بقلم كولن . ج. كروكشانك

إنّ هذا الكتاب يعتبر الجزء الثاني من مذكرات وخواطر والدي، وهو يسد الفجوة على جانبي كتابه الأول (الجذوة المشتعلة) المنشور عام 1962، والذي يتناول مسيرة حياته في السودان.

للأسف رحل والدي قبل أن يصدر هذا الكتاب عن المطبعة، لذا لم يكن ليجد متسعًا لنشاركه الفرحة والإثارة التي عشناها معه من ذي قبل، عند صدور كتابه الأول. وممّا زادنا حزنًا على حزن، وفاة شقيقتي الوحيدة (بريجيت) قبل شهر من رحيل والدي. لقد كانت (بريجيت) أكثرنا حرصًا على أن يكمل والدي مهمة إنجاز الكتاب. وكان من المفارقات حقًا موت (بريجيت) بسرطان الرئة قبل شهر من وفاة والدنا، لاسيّما وأنّها قد لعبت الدور الأكبر في أن يرى كتابه الأول (الجذوة المشتعلة) النور، حيث ساهمت فيه بعمل الرسومات. ولقد علمت من والدي أنه ومن أجل (بريجيت)، كان حريصًا على أن ينجز الكتاب الثاني الذي هو بين أيديكم. على الرغم من أن والدي كان في أواخر العقد الثامن من عمره، لكن مهمة إنجاز الكتاب صارت سهلة لديه، إذ كان حريصًا دومًا على كتابة مذكراته، وكان يحس نحوي بالأسى، لافتقادي تلك العادة الحميدة. هنا، يجدر بي أن أذكر أنه حاز اهتمام زوجته الثانية «مارجوري»، التي قدمت له الكثير من العون والمساعدة، وبناتها الثلاث: لين وشيلا وكلير. لقد كانت حياة والدي ممتدة طيلة القرن العشرين تقريبًا، إذ ولد عام 1900 ورحل عام 1991. لذا فقد أتاحت له الأقدار، أن يشهد الكثير من التطوّرات المذهلة في العلوم

والطب والتقنية – تلك التي أثرت بصورة عظيمة على حياة الإنسان. إنني واثق أنّ كثيرًا من القراء، سيشاركونني متعة قراءة كتاب والدي، والتعرف على تجاربه المثيرة، وإدراك مدى مساهمته في تطور طب المناطق الحارة. ومن المثير حقًا، كذلك، أنّ والدي كان شديد التواضع! فكل من عرفه عن كثب، يدرك أنّ حسه العالي المشبع بروح الدعابة والسخرية، سيجعل من قراءة هذا الكتاب متعة لا تدانيها متعة.

كولن كروكشانك

سيدني . أستراليا أبريل 1991

مقدمة المترجم

قصتي مع كتاب دكتور (كروكشانك) مزيج من عنصري الصدفة والطرافة.. فعلى مدي عقد ونيف من الزمان - كنت، ولم أزل- مشغولًا بالبحث والكتابة عن تاريخ الطب الحديث في السودان، حين وقع بين يدي اسم (ألكساندر كروكشانك)، الذي أثار لدي فضولًا ورغبة في الاطلاع على شأنه؛ ذلك أنّه لم يكن طبيبًا عاديًا مثل سائر الأطباء البريطانيين الذين عملوا في السودان، خلال تلك الحقبة المهمة من تاريخ السودان؛ والممتدة من عام 1898 وحتي نهاية الستينيات من القرن المنصرم.

أتي دكتور (كروكشانك) إلى السودان في النصف الأول من عشرينيات القرن الماضي، مدفوعًا برغبة عارمة في المغامرة واكتشاف المجهول! فقد ذكر في صدر كتابه هذا، أنّ اثنين من أعمامه كانا في عداد المبشرين والقساوسة، الذين عملوا في بعض أصقاع إفريقيا لسنوات. وكان لحكاياتهما - وهو لم يشب عن الطوق بعد - أثر في تحفيزه لولوج هذه القارة. لذا؛ عندما واتته الفرصة - وهو لم يتجاوز ربيعه الرابع والعشرين- أتى إلى السودان، وتشاء الأقدار أن يمكث به زهاء ربع قرن من الزمان. أتى (كروكشانك) إلى السودان - مرتميًا بين أحضان ريفه متنوع النحل متعدّد الأعراق؛ ولمّا يزل يافعًا غريرًا قليل التجارب!

بيد أنّه كان طبيبًا مميزًا حاذقًا ونطاسيًا بارعًا، كما سيتبين لك من خلال وقائع هذا الكتاب. والرجل - إلى جانب نشره الكثير من الأوراق العلمية التي ساهمت في تطوّر طب المناطق الحارة- كان شخصًا متفرّدًا، متعدد المواهب، واسع الأفق!! لذا؛ فإنّ إسهاماته في تطوّر االطب في السودان، لم تقتصر -فقط- على كونه طبيبًا ممارسًا لمهنته في مختلف أرجاء السودان - من عطبرة شمالًا، إلى مناطق الرهد وأم روابة في شرق كردفان، ثمّ جنوب كردفان ودارفور، مرورًا بمناطق الزاندي غرب الاستوائية، فمدينة جوبا، ومنها إلى بورتسودان، وانتهاءً بالخرطوم؛ التي أضحى فيها كبيرًا لأطبّاء الباطنية، ومحاضرًا في مدرسة كتشنر الطبية لأربع سنوات، امتدّت ما بين الأعوام (1944 - 1948). إنّ أوّل مسح ميداني عن مرض

البلهارسيا في شرق كردفان – تحديدًا – في مناطق الرهد وأم روابة، قام به (كروكشانك) في منتصف العام 1924. تلا ذلك؛ مساهمته في منع انتشار وباء (التايفوس)، الذي قضي على ربع سكان دارفور – تقريبًا – في الفترة من عام 1926 إلى عام 1928. كان الوباء قد بدأ عند مطلع العشرينيات من القرن الماضي في أقصي غرب إفريقيا، ثم أخذ في الانتشار جهة الشرق مع وفود الحجيج؛ بعدها صار من الأمراض المستوطنة، خاصة لدى أفراد قبائل غرب إفريقيا، الذين استقروا في مختلف أرجاء السودان الغربي والأوسط والشرقي.

لقد أنشأ دكتور (كروكشانك) واحدة من أكبر مستوطنات (الجذام) في إفريقيا، كما أنشأ – في ذات الفترة– أول مستشفى في مدينة «يامبيو» بمنطقة الزاندي بغرب المديرية الاستوائية في جنوب السودان. كما أسلفنا؛ فقد كان (كروكشانك)، شخصًا متفردًا متعدد المواهب والملكات، سريع البديهة لماحًا ألمعيًا ذا خيال خصيب وقابلية مدهشة لشتي ضروب الإبداع! فهو لعمري من طراز فريد.

إبّان وجود (كروكشانك) في (يامبيو) –وكان قد عقد العزم على بناء المستشفى ومستعمرة (الجذام) في المنطقة التي أطلق عليها (لي رانجو) **Li Rangu**– قام بتعلّم صنع الطوب الأحمر على يد أحد المبشرين القساوسة ويدعي الأب (كانون قور)! وما إن تمكّن من ذلك، حتى شرع –على الفور– في إنشاء المستوطنة والمستشفي، وكذلك أوّل منزل من طابقين في جنوب السودان، اتخذه سكنًا.

إلى ذلك، قام دكتور (كروكشانك)، بتأسيس أوّل مزرعة للألبان في بورتسودان، أثناء فترة عمله هناك أيّام الحرب العالمية الثانية.

أمّا على الصعيد الشخصي؛ فقدِ افتُتِنتُ بـ (كروكشانك)، الذي جمعت بيني و بينه محبة التوثيق والاهتمام بتاريخ الطب في السودان. لقد شرع الرجل مع أحد زملائه من الأطباء البريطانيين – وهو دكتور (جون بلوس)، في كتابة سِفر عن تاريخ الطب وتطور الخدمات الطبية في السودان. ولأسباب غير واضحة، لم يتجاوز ذلك الجهد مراحله الأولية، وبقي حبيس أضابير أرشيف السودان بجامعة (درهام) في شمال شرق إنجلترا. لقد مثلت تلك الوثيقة خير مُعين لي في جهودي لتوثيق تاريخ الطب في السودان. من جانب آخر، جمعتني مع (كروكشانك) محبته للسفر والترحال؛ ومثله أنا، فقد قادتني (قدمي الرّحالة) لطلب الرزق والعيش، متنقلًا بين أربع من قارات الدنيا الست! مما حمل زوجي (سارة العربي) على

القول: لكأنّك ترى ذاتك في ذات (كروكشانك)!.

لقد عاش دكتور (كروكشانك) حتي تجاوز التسعين من العمر، وشهد التطورات المذهلة والاكتشافات غير المسبوقة في مختلف أفرع الطب وأضربه. وعلى الرغم من كل ذا، فإنّ بداية تخصصه كانت في مجال الجراحة، التي استمالته من تخصّصاتها تخصص جراحة العظام، وإن كان افترع حياته العملية ممارسًا عامًا لمهنة الطب، شأنه شأن معاصريه من الأطبّاء العموميّين الذين قدموا إلى السودان في تلك السنوات. لكن الرجل لم تقعد به المشاغل ولا (قدمه الرّحالة) عن طلب المعالي، فقد نال عند أواخر أيامه في السودان شرف الأستاذية؛ وغدا محاضرًا للطب الباطني في مدرسة كتشنر الطبية.

كانت خاتمة حياته المهنية، أن أشرف على أحد أقسام السرطان بإدارة وزارة الصحة البريطانية، حتي تقاعده. ومن المفارقات؛ أنّ هذا الكتاب كتبه وهو في أواخر الثمانين، ولم تمهله يد المنون أن يرى كتابه بعد الطبع.

لقد ترك (كروكشانك) خلفه أثرًا وإرثًا ثرًّا من الأوراق والملاحظات – أكثرها عن السودان: البلد الذي أحبّه! وهذه؛ سيجدها الباحث – ضربة لازب – في مكتبة جامعة (درهام) بإنجلترا. وإلى جانب الكتاب الذي بين أيديكم؛ كتب (كروكشانك) سفرًا آخر عن السودان، يحوي تجاربه إبّان فترة عمله في جنوب السودان – عنوانه: (الجذوة المشتعلة **The Kindling Fire**) ...

إنّ القارئ ليحس متعة لا تعدلها متعة؛ وهو يتصفح كتابًا ذا أسلوب شيق وعرض أنيق سلس، لصورة الحياة في سودان النصف الأول من القرن العشرين، ويأنس ذوقًا فنيًا راقيًا في الملكة التصويرية!. ولدى الكاتب، كما سيلحظ القارئ، روح شفيفة ملؤها الدعابة والسخرية – ديدن أهله الأسكتلنديين– تتخلل عرضه التاريخي وجهده التوثيقي، لحالي: الصحة والمرض، وتطوّر الخدمات الطبية؛ الذي أفرد له فصلًا كاملًا في عجز الكتاب.

يجدر بالذكر؛ أنّ دكتور (كروكشانك) لم تنقطع صلته بالسودان: البلد الذي عشق، وظل على صلة به وبأهله. فقد أتى إلى السودان في بحر الستينيّات، ليسهم بآرائه، وليشارك بكتابة ورقة عن تطوّر الخدمة الطبية! وقد رافق ذلك تكريم سير (ريتشارد هيل)[1] .

(1) ريتشارد ليسلي هيل المؤرخ وأستاذ التاريخ والذي يعتبر من الشخصيات الرائدة في توثيق وكتابة تاريخ السودان المعاصر و له يرجع الفضل في إنشاء أرشيف السودان في مكتبة جامعة درهام في شمال شرق إنجلترا. توفي في عام 1996 في اكسفورد.

دكتور (كروكشانك)؛ مثله مثل كثير من خيار البريطانيين، الذين أسهموا في إرساء مختلف الخدمات العامة في السودان، من تعليم وصحة ووسائل مواصلات ومشاريع زراعية، كانت – جميعها- دعائم راسخة لنهضة لم تكتمل! لقد أصيب (كروكشانك) بالأسى والألم والإحباط، بعد أن شهد الأحداث المأساوية في ذلك البلد، الذي أفني فيه زهرة أيامه وعنفوان شبابه، وكيف أنّ ذلك القطر الذي كان من المأمول أن يصير من أعظم أقطار إفريقيا وأجملها، قد تدهور وانتهى إلى دولة فاشلة، انهارت فيها كل أعمدة النماء والازدهار والتطوّر!

آمل أن أكون قد وفقت إلى موافاتكم بما خطه الكاتب من مادة ثرة وافية، بذلتُ في نقلها إلى لغة الضاد جهدًا، عساه يحقق مبتغاي في حفظ روح أصل الكتاب وصونها بلا تبديل ولا تحريف..

في الختام أحب أن أتقدم بالشكر إلي الصديق الصدوق الأستاذ الأمين البدوي الخالدي (كاكوم) لما قام به من مراجعة وتصحيح وتدقيق لهذا العمل وإلي الأخ المفضال ياسر الخليفة وأيضا إلي السيدة الفضلي الأستاذة عواطف حسين السيد مدير مكتب العلاقات العامة في الجمعية القطرية للسكري بالدوحة لمجهودهما العظيم في المساعدة في طباعة هذا العمل فلهم جميعا عظيم امتناني. كما أحب أن أعبر عن عظيم شكري و تقديري إلي الأستاذ الدكتور أحمد إبراهيم ابوشوك استاذ التاريخ الحديث و المقارن بجامعة قطر علي تكرمه بقراءة مسودة الترجمة والتقديم للكتاب. أخيرًا أحببت أن أذكر كلمة وفاء في سيرة طيب الذكر المغفور له بإذن الله الراحل المقيم الأستاذ أحمد يوسف مصطفي التني السفير السابق بالخارجية السودانية والذي كان شغوفًا بأن يري هذا العمل وقد اكتمل فعلي روحه الطاهرة شابيب الرحمة.

والله من وراء القصد وسواء السبيل.

دكتور طارق عبدالكريم الهد

الدوحة - مايو 2018

تقديم

أسعدني الدكتور طارق عبد الكريم الهَد، استشاري أول السُكري والغدد الصماء والباطنية بمؤسسة حمد الطبيَّة (الدوحة)، بدعوته لقراءة مسودة ترجمته العربية لكتاب الدكتور ألكساندر كروكشانك (**Alexander Cruickshank**)، «القدم الرحّالة: حكاية طبيب»، والتي ذكرني نصها البديع قول الدكتور إحسان عباس في فن السيرة: «إنَّ الأشخاص الذين يصلوننا بأنفسهم وتجاربهم، هم الذين ينيرون أمامنا الماضي والمستقبل، أما أولئك الذين يذهبون بنا في شعاب من الصنَّعة الرسمية؛ فإنهم يستنزفون جهودنا على غير طائل، وينقلون تفاهة الماضي الذي عاشوا فيه إلى حاضرنا الذي نرجوه لما هو أجدى.»[1] فالنص المترجم فيه طلاوة أدب الرحلات، الذي يصور المشاهد الحية والمواقف الداعية للانتباه، والتي تضفي على النص متعة وتسلية، بما تقدمه من معلومات أولية مفيدة عن جغرافية المكان، وتاريخه، وتقاليده الموروثة، وتجارب المؤلف في ربوعه. وأدب الرحلات المُدوَّن عن الشرق (**Orient**) من وجهة نظر غربية، يُصنف في قائمة الأدبيات الاستشراقية، التي ينعتها إدوارد سعيد بأنها ليست سوى أدوات في مشروع استعماري ذا نزعة إمبريالية[2]. نعم أنَّ «القدم الرحّالة» يحمل بعض السمات الاستشراقية من حيث ثقافة للمؤلف، والموضوعات التي تناولها، والفضاء الجغرافي (السُّودان) والحيز الزمني اللذين تحرك فيهما (1924 1948–م)؛ لكن ليس بالضرورة أن يكون صاحب ذلك العمل مجرد أداة من أدوات المؤسسة الاستعمارية، دون النظر إلى الدوافع الشخصية التي انطلق منها، والنتائج التي حققها في محيط البيئة المحلية التي تعامل معها. ولذلك يقول كروكشانك،

(1) إحسان عباس، فن السيرة، بيروت: دار صادر. عمان: دار الشروق، 1996م، ص 6-5.

(2) لمزيد من التفصيل انظر، إدوارد سعيد، الاستشراق: المعرفة. السلطة. الانشاء (ترجمة كمال أبوديب)، بيروت: مؤسسات الأبحاث العربية، 1978م.

عندما تمَّ اختياري للعمل في «وظيفة مفتش طبّي في السُّودان الإنجليزي-المصري، انطلقت منّي صيحةُ فرحٍ، أثارت دهشة من كان معي داخل الغرفة. لقد استيقظ الحلم النائم عن إفريقيا فجأة، مدغدغًا مشاعري، وإذا بكل حكايات وقصص عمي القسيس المبشر تخرج كالمارد من القمقم. لقد أحسست حينها أنّ إفريقيا هي مربط فرس آمالي، ومحط أحلامي، ومهد وظيفتي المستقبلية. لم أدر هل ساقني المصير المحتوم، أو دفعت بي بنات الخيال نحو إفريقيا؟» والشيء المهم في هذا الاقتباس عبارة «مهد وظيفتي المستقبلية»؛ لأن رسالة هذا الكتاب تتجسد فيما حققه كروكشانك من إنجازات طبية في مجال تخصصه، وكذلك الفوائد التي جناها المواطن البسيط في بوادي السُّودان وحواضره طيلة فترة إقامة كروكشانك (1924-1948م)، وطبيعة المصاعب والتحديات التي واجهها هذا الأخير لتحقيق تلك الأهداف الإنسانية ذات الروح المغامرة-الخلاقة.

تتكون النسخة المترجمة لكتاب القدم الرحّالة من مقدمة لابن المؤلف، كولن . ج. كروكشانك، الذي أشرف على طباعة مسودة الكتاب بعد وفاة والده عام 1991م، مؤكدًا أن الكتاب يشكل لوحة مكملة للكتاب الأول «الجذوة المشتعلة»[3] عن ذكريات والده وإنجازاته في السُّودان، كما أنَّ القارئ سيشاركه متعة التعرف على تجارب كروكشانك المثيرة للدهشة وإسهاماته البديعة في تطوير طب المناطق الحارة. وتأتي بعد هذه التبصرة مقدمة المترجم، الدكتور طارق الهد، التي ألقت الضوء على جوانب متعددة من سيرة المؤلف، والقضايا التي تناولها في فصول كتابه التسعة عشر، وخاتمتها الناظمة لحياة المؤلف المعاشية في لندن. والكتاب من حيث الموضوع، يمكن أن يُقسم إلى أربعة محاور رئيسة.

يتناول المحور الأول حياة المؤلف ونشأته في مدينة أبردين، في كنف أسرة كان ربها نجارًا في إحدى الشركات التجارية بالمدينة، وسكن أفرادها في منزلٍ بدائيٍ وبسيطٍ. يقول عنه المؤلف: «فعندما انتقل والداي إليه، كان مصدر المياه الوحيد في الدار، داخل المطبخ! وكان المرحاض في فناء الدار مجاورًا سور البيت الخارجي. المرحاض كان بدائيًا بسيطًا أوّل الأمر؛ لكن حينما قام والدي بتركيب دولاب تشطيف مائي، بدأ ذلك غايةً في الرفاهية! كان حمام الدار داخل غرفة الغسيل، حيث يوجد حوضان من الخشب، كانا يُملآن بالماء البارد

(3) انظر:

Alexander. Cruickshank, The Kindling Fire Medical Adventures in the Southern Sudan, Portsmouth. New Hampshire. United States: Heinemann, 1962.

في الصيف، وبالماء الساخن في الشتاء. في فناء الدار -على طرف الحديقة- كانت هنالك (ماسورة) مياه البئر، التي تُرفع بآلة رافعة معقوفة». في كنف هذا المنزل المتواضع نشأ الصبي ألكساندر، وبدأ مشواره الدراسي بتفوق بين أقرانه، وتوج ذلك التفوق بإكمال المرحلة الجامعية بكلية الطب في جامعة أبردين عام 1922م، وبعدها حصل على رخصة مزاولة العمل الطبي، حيث عمل في أبردين، ولندن، وبرمنغهام، إلى أن تمَّ اختياره للعمل في وظيفة مفتش طبي في السُّودان عام 1924م. يعكس هذا المحور الخلفية الأسرية لكروكشانك، والتأهيلي المهني الذي حصل عليه في مسقط رأسه، وتطلعاته للعمل في إفريقيا جنوب الصحراء.

ويركز المحور الثاني على جوانب من حياة كروكشانك العملية في المديرية الشمالية (1924م)، ومديرية كردفان (1925 1927-م)، ومديرية النيل الأزرق (1928م) والمديرية الاستوائية (-1928 1940م)، ومديرية كسلا (-1941 1942م)، ومديرية الخرطوم (-1943 1948م)، والتي تعكس جانبًا مهمًا من أوجه التباين الثقافي بين الحداثة والبداوة، ومظاهره المتمثلة في وسائل المواصلات، وعمارة المساكن، وأنواع الطعام، وعادات الناس وتقاليدهم. وبشأن هذا التباين يحضرني وصفه كروكشانك إلى حركة الحيوانات البرية الموسمية، قائلًا: «في الركن الجنوبي الشرقي للسودان، تحدث رحلة موسمية للحيوانات البرية، بصورة تدعو إلى الدهشة والاستغراب. ومن المثير حقًا أن تلك الرحلة الموسمية، تشمل أعدادًا هائلة من مختلف الحيوانات البرية، قد تربو أعدادها على بضعة ملايين! لقد كانت مشاهدة الرحلة الرائعة لتلك الحيوانات، على اختلاف أنواعها وألوانها وأشكالها، وتجلّي صورها الطبيعية البديعة على سهول الأرض الإفريقية البكر، واحدة من أمتع اللحظات التي عشتها، وأجمل المشاهدات التي مررت بها في حياتي.» وفي المقابل يذكر المؤلف: تجمهر أفراد قبيلة (الزاندي) لاستقبال طائرة مروحية قادمة إلى المنطقة، يقول بدأت الطائرة في الهبوط» سري طنين وأزيز غريب في الأفق، وحدّقت مئات الأعين صوب مصدر الصوت! مئات الأعناق اشرأبت، ومئات الأعين ارتفعت تنظر إلى السماء! وفجأة؛ برز ذلك الطائر العجيب المدهش! يا للعجب!!» فاندهاش الزاندي مثل اندهاش كوركشانك وإن اختلف المشهد. فغرابة المشهد تشكل مصدر الاندهاش والإعجاب بين الثقافتين؛ لذلك نلحظ أن معظم عناوين مؤلفات الرحّالة لا تخرج عن دائرتي غرائب الأسفار وعجائب

الأمصار. علمًا بأن تلك الغرائب والعجائب تشد اهتمام القارئين، وتشكل موضوعات أسمارهم وحواراتهم، عندما كانت وسائل الاتصالات والمواصلات عسيرة.

ويتطرق المحور الثالث إلى الفترة التي قضاها المؤلف في خدمة قوات دفاع السُّودان التي اشتركت في الحرب الكونية الثانية، حيث عمل في طرابلس، والقاهرة، وأسمرا. وينعت بعض دعاة ما بعد الحداثة مثل هذه المشاركات بالأعمال الاستشراقية الداعمة للاستعمار الأوروبي. لكن مثل هذه النظرة الجزئية الضيقة يجب ألا تحجبنا عن رؤية الإنجازات الكبيرة التي حققها المؤلف في تطوير طب المناطق الحارة في السُّودان.

أما المحور الرابع فيركز على بدايات حياة كوركشناك الزوجية في الخرطوم، حيث رزق طفليه (كولن) و(بريجدت)، وعلى خدمته المعاشية في كينيا والمملكة المتحدة. هكذا انتقل المؤلف من عالم الحياة العمالية التي عاشها في كنف أسرة رقيقة الحال في مدينة أبردين إلى حياة طبقة مهنية وسطى في مجتمع لندن، حيث اشترى قطعة أرض في منطقة (ريفرهيد) جنوب (سفن أوكس)، وبنى عليها منزلًا فاخرًا، وأسس في بهو المنزل حديقةً لإقامة مباريات الكريكيت، ثم سعى كلبًا من فصيلة (جاك رسل) أطلق عليه اسم (رنجو)، كما آثر الحركة بالقطار من ضاحية (ريفرهيد) إلى مكان عمله في مدينة لندن ذهابًا وإيابًا، وداوم على رفقة كلبه (رنجو) في رحلة العودة من محطة القطار إلى المنزل.

قواسم مشتركة بين المؤلف والمترجم

أهم القواسم المشتركة بين المؤلف والمترجم الخلفية الابستمولوجية؛ إذ تخرج ألكساندر كروكشانك في كلية الطب بجامعة أبردين عام 1922م، وتخصص في جراحة العظام، واهتم أيضًا بطب المناطق الحارة. أما طارق عبد الكريم الهد فقد تخرج في كلية الطب جامعة الخرطوم عام 1983، وتخصص في أمراض السكر والغدد الصماء في إنجلترا (1991-1999). أهلته هذه الخلفية الأكاديمية بأن يترجم كتاب «القدم الرحّالة» بكفاية مهنية عالية. وإلى جانب ذلك نلحظ أن لطارق الهد اهتمامات مشتركة مع المؤلف في توثيق تاريخ الطب في السُّودان. علمًا بأن المؤلف، كما ذكر المترجم في مقدمته، قد شرع مع زميله الدكتور جون بلوس في إعداد كتاب عن تاريخ الطب وتطور الخدمات الطبية في السُّودان؛ إلا أن

ذلك العمل لم ير النور، وظلت مسوداته الأولية حبيسة أضابير أرشيف السُّودان بجامعة درهام. ولذلك اهتم الهد بتلك المسودات، واعتمد عليها في مشروع بحثه عن تاريخ الطب وتطور الخدمات الطبية في السُّودان، ولذلك نأمل أن يرى هذا العمل النور قريبًا، لما فيه من إثراء للمكتبة العربية في السُّودان وخارجه.

أهمية هذا الكتاب

تكمن أهمية هذا الكتاب في الآتي:

أولًا: يقدم نموذجًا فريدًا لقدرة الإنسان في تطويع آليات التواصل بين عالمين مختلفين؛ أحدهما ذا طابع حضري متأثر بمنجزات الحداثة الأوربية، والآخر ذا طابع بدوي، يقوم على ضروريات الحياة، ويخضع لظروف البيئة المحلية المحيطة في معاشه وترحاله وتواصله مع الآخر. ويؤكد هذا الكتاب أن صاحب الرسالة يستطيع أن يتجاوز تحديات الواقع المحلي بإمكاناته المحدودة؛ ليحقق هدفه المنشود. والدليل على ذلك عبارات الدكتور أوليفر أيتكي (**Oliver F Atkey**)، مدير الخدمات الطبية السُّودانية، عندما كلف كروكشانك قائلًا: «أريدك أن تذهب إلى كردفان، لكي تجري مسحًا شاملًا عن مرض البلهارسيا» في بيئة لا يعرف المُكلف لسان أهلها وعاداتهم وتقاليدهم. وبعد أن حط رحاله في مدينة أم روابة، يقول كروكشانك: «كانت المعضلة؛ في كيفية شرحي للأهالي ما يلزمني القيام به، لإنجاح ما أنا بصدده. كان الحل في أن أبدأ بحثي وسط تلاميذ المدارس الأوّلية... أبدى ناظر مدرسة (أم روابة) الأوّلية للبنين ـــــ على مضض ـــــ موافقته على مساعدتنا في مهمتنا تلك. ولم أنجح في ذلك؛ إلا عندما قمت بالكثير من الشرح والإسهاب فيما نحن بصدده! كانت المفاجأة؛ أنّ ناظر المدرسة أبدى كثيرًا من الدهشة والإعجاب، حين وضَّحت له أنّني أريد ابتداءً الكشف على عيّنات البول لكل التلاميذ! وابتدرني صائحًا «والله ... إنّك تحدثنا عن البول الحار!». وكان اصطلاح (البول الحار)، هو المتعارف عليه بين الأهالي لمرض البلهارسيا البولي! كانت سعادتي غامرة، حين صارت كل فصول التلاميذ في مدرسة (أم روابة) الأوّلية تعج بالصياح، لإعطائنا عيّنة من البول. بين أول عشر عيّنات تم فحصها، كانت اثنتان منها إيجابيّتين! ولم تصادفني صعوبة في رؤية الشكل البيضاوي لبيضة البلهارسيا، وشوكتها

التي عند مؤخرتها. قمت حينها بحيلة أخرى؛ ناديت ناظر المدرسة، وشرحت له كيفية استعمال جهاز الميكروسكوب، والنظر في شرائح العيّنات، بل؛ كيفية ضبط العدسة حتى يتحصل على صورة واضحة لبيض البلهارسيا! وكانت سعادتي غامرة حين قام بعدها -على الفور- بتوجيه تلاميذه لإخبار أهلهم، وتحفيزهم على الحضور لإعطاء عيّنات من البول، لكي يتم فحصها. لقد نجحت الحيلة؛ ويا له من نجاح!» وعن معاناته الممزوجة بحلاوة النجاح يحدثنا كروكشانك، قائلًا: «أذكر ذات يوم، أنني قمت بالكشف على زهاء ثلاثمئة وعشرين مريضًا، جملة واحدة. كنت عادة ما أستريح من مثل هذا العناء، إلى عشاء يطبخه (فضل المولى) ويقدّمه (سعيد)! كان (فضل المولى) دومًا ما ينجح في عمل الطعام من مخزوننا الضئيل وممّا أصيبه من صيد البر! إذ كان الحصول على الخضروات الطازجة، أو الجبن، أو الزبادي من الاستحالة بمكان! بعد تلك الوجبات؛ كنت آوي إلى مخدعي متصفّحًا كتابًا - قبل إخلادي إلى النوم... وبعد زهاء ستة أشهر من العيش لوحدي، أصبت -ذات مرة- بنوبة إسهال أعقبتها حمّى الملاريا! ممّا جعلني أشعر بكثير من الإعياء، وصرت حاد الطبع والمزاج! كنت حينها قد أنجزت مهمتي في مسح البلهارسيا وسط السكان؛ وكانت النتيجة، أنّ حوالي 9٪ من السكان مصابون. لكنّ ما أدهشني؛ أنّ معظم الإصابات كان طفيفًا !» لا تتوافر مثل هذه العزيمة وهذا التجرد في أطباء السُّودان اليوم، وغيرهم من المهنيين، الأمر الذي يقلل من قيمة أدبيات ما بعد الحداثة التي تصف عمل كروكشانك وأمثاله بأنه عمل استعماري لا يسنده وازع أخلاقي، ولا تحركه قيم مهنية. والدليل على ذلك أن المهنيين الوطنيين الذين خلفوا المستعمرين لم يوفقوا في الحافظ على إرثهم، كما لم يفلحوا في تحسين صورة الواقع الذي تركه المستعمر. ويجسد هذه المفارقة قول كروكشانك: «عند تقاعدي عن عملي في السُّودان عام 1948؛ كان السُّودانيون على استعداد لإدارة شؤونهم بأنفسهم، والاستمرار في بناء خدمة طبية متميزة. لقد كان ذلك الانتقال سلسًا ! إذ عاد البريطانيون إلى بلادهم زرافات ووحدانًا، بعد أن قاموا بتسليم أفضل وأرقى خدمة صحية في إفريقيا الاستوائية -وهم واثقون- إلى أنَّ أطبّاء سودانيين أكفاء جيّدي التدريب، وحريصين على تطوير وتحسين تلك الخدمة!» لكن بعد أربعة عقود من ذلك التاريخ يقيم كوركشانك حاصد التجربة الوطنية، قائلًا: «وأنا إذ أدوّن هذه السطور؛ لم يندّ عن ذاكرتي ما صار إليه حال السُّودان اليوم، بعد مرور أربعين عامًا على مغادرتي له؛ كنت أحيانًا أسأل نفسي وبين

جنبي لاعجة من حزن عميق! هل ذهبت كل مجهوداتنا لبناء ذلك البلد أدراج الرياح؟ هل يا ترى، قد أضعت أربعة وعشرين عامًا قضيتها هناك، فغدت هباء منثورًا؟»

ثانيًا: يعكس هذا الكتاب أهمية النظرة التكاملية لمفهوم الصحة، بشقيها الوقائي والعلاجي، مع القدرة على تطويع الظروف المحلية لخدمة هذه الغاية المنشودة. ويتجسد ذلك في عمل كوركشانك في مستوطنة الجذام التي أسسها في منطقة الزاندي بالمديرية الاستوائية، والتي بدأت بتكليف من رئيسه في الخرطوم، عندما أوعز إليه قائلًا: «أذهب إلى حيث النقطة الموبوءة بـالجذام على حدود الكونغو البلجيكي؛ لعمل مسح سكاني وتحديد نسبة انتشار المرض! .. أريد منك –كذلك– إنشاء مستشفى مدني في أكثر نقطة تراها مهمة، ومراكز صحية في مواضع إستراتيجية حول ذلك المستشفى، وأن تقوّم مشروعًا للحد من انتشار مرض (الجذام).» وبعد سنوات من العمل المضني الدؤوب يقول كروكشانك: «تمّ عمل مسح لمنطقة مساحتها حوالي ثلاثين ميلًا مربعًا، مع تعبيد أربعين ميلًا من الطرق، وإنشاء العديد من الجسور، وحفر مجموعة من الآبار، وزراعة الكثير من أشجار الفواكه، وإصلاح وزراعة الهكتارات الزراعية من الأرض بالغلال، وأخيرًا تشييد مهبط للطائرات. ضف إلى ذلك مليون قطعة من الطوب الأحمر، أنتجتها كمائن الطوب! كما تمّت صناعة العديد من قطع أثاث المنازل، على أيدي فريقنا من النجّارين وقاطعي الأخشاب. وعن تأهيل العنصر البشري يقول: «لقد جرى تدريب ستة من شبّان (الزاندي) ليصبحوا ممرّضين، فيما تمّ تدريب أربعين آخرين على القيام بمهام التمريض البسيطة. وشرعت كذلك في تأسيس مدرسة لمساعدي الصيدلة. إلى ذلك؛ فقد أجريت خمس عمليات كبيرة، وقدّمت العلاج لكثير من المرضى في أقسام التنويم والعيادات الخارجية. كما تمّ بناء كنيسة ومدرستين، وزراعة الكثير من الأشجار والزهور، التي أكسبت المستشفى والمستوطنة منظرًا يشرح الصدور ويبعث الحبور.» وداخل هذه المستوطنة الرائدة لمكافحة مرض الجذام ظل كروكشانك يمارس عمله الروتيني: «عند كل صباح؛ تكون هنالك جلسات طويلة في العيادات الخارجية»، لتطبب حالات متنوعة، مثل حقن مرضى «الزهري، وتضميد الجروح، وعلاج الديدان، وفتح الخرّاج الصديدي، وعلاج التهابات الأذن، وعلاج رمد العيون، واستنفاذ الدودة الغينية، وعلاج حالات الالتهاب الرئوي.» في ضوء هذه التجربة الناجحة هناك سؤال يطرح نفسه: هل استطاع الأطباء السُّودانيون الوطنيون الذين خلفوا

كروكشانك ورصفائه أن يطوروا مثل هذه الرؤية التكاملية في بلادهم؟ أو يحافظوا على ما ورثوه من المستعمر؟

ثالثًا: تكمل ترجمة «القدم الرحّالة» إلى العربية الصورة التي رسمها الأستاذ الدكتور حسن بلة الأمين عن تجربة مدرسة القابلات بأمدرمان، في كتابه «أطباء السُّودان الحفاة»[4]؛ لأن كلًا من التجربتين تشكلان «قصة نجاح أبهرت العالم»، كما وصف البروفيسور ت.ه. ديفي، أستاذ الصحة المدارية بمدرسة طبّ المناطق المدارية، جامعة ليفربول، عندما زار مدرسة القابلات بأمدرمان عام 1945م.

رابعًا: يؤكد هذا الكتاب أنَّ الإمكانات المادية ليست الأساس الوحيد لإنجاز كل مشروع رائد؛ لأن المشروعات الرائدة تقوم على الرؤى الإستراتيجية الثاقبة، والخبرات البشرية المتراكمة، والعزيمة الإنسانية القادرة على تطويع الإمكانات المادية والموارد البشرية لتحقيق الأهداف المنشودة. ولذلك أعتقد أن تجربة ألكساندر كروكشانك (1924 -1948م) في السُّودان يجب أن تُدرَّس في الجامعات والمعاهد العليا باعتبارها نموذجًا ناجحًا للتجارب الاستعمارية، التي يمكن أن تدفعنا للتفكير خارج الصندوق، والانعتاق من شماعة شح الإمكانات المادية.

أحمد إبراهيم أبوشوك

الدوحة، ٦ أغسطس ٢٠١٨م.

(4) حسن بلَّة الأمين، أطباء السُّودان الحفاة: تجربةأبهرت العالم، الخرطوم: مطبعة جامعة الخرطوم، 2012م، ص 17.

الجزء الأول

الفصل الأول

عندما كنت على أعتاب سنّ العاشرة – تحديدًا في شهر مايو من عام 1910ـ وذات يوم؛ وأنا بين إخوتي في غرفة داخل منزلنا، إذا بأبي يدلف إلينا ويبتدرنا –على حين غرة– صائحًا: (لقد مات الملك جورج!!)؛ فوجمنا جميعًا، ولم ينبس أحدٌ منّا ببنت شفة. دار في خلدي، حينها، أنّني سوف لن أرى صورة الملك السمين ذي اللحية الخفيفة، مرة أخرى. لذا فقد عاجلت أبي بسؤال هو: (هل الملك جورج، هو ابن الملكة الراحلة فكتوريا؟).. فأجابني على الفور: (بلى؛ وأنتم – جميعًا – تنتمون إلى العهد الفيكتوري، ما عدا أميلي). في أيامنا تلك؛ كان كل من يولد في العهد الفيكتوري، يعتبر ذا شرف وفخر! لذا فقد انتابني شعور بذلك الشرف وذلك الفخر، لاسيّما وأنّني قد ولدت عام 1900 – أي قبل وفاة الملكة (فيكتوريا) بأحد عشر شهرًا!

لقد ولدت وإخوتي في منزل العائلة الكبيرة بـ(مريفيليد): الضاحية الغربية لمدينة (أبردين) الواقعة في شمالي شرق أسكتلندا. أكبر إخوتي شقيقتي (إيدث)، يليها أخي (ويلي)، والذي يكبرني بثمانية عشر شهرًا، وأخيرًا شقيقتي (إميلي)، التي تصغرني بأربعة أعوام. كان أبي يحترف مهنة النجارة، ومتخصصًا في صناعة الخزانات الخشبية، ويعمل لدى شركة (ج.أ. أوقليفي) في (أبردين) .. كان أبًا عطوفًا حانيًا، لكنّه لا يجامل في أن يلتزم كل من في البيت بقواعد النظام والانضباط. والدتي (ويلمينا) – واسم عائلتها (دن)؛ كانت على قدر عال من الذوق واللباقة، وكان والدها يمتهن حرفة قطع الأخشاب، وقد بترت يده اليمنى في حادث، فاستبدلها بأخرى صناعية، ولشدّ ما كان يثيرنا – حين يزورنا– مرآه وهو يخلع تلك اليد الصناعية ليعيد تركيبها مرة أخرى.

كانت أمي ربة بيت ممتازة، تحذق كل الأعمال المنزلية من طهو، ونظافة، وخبيز، وكي للملابس، وإيقاد سرج (البارافين) لإضاءة البيت. هذا؛ إلى عنايتها بنا .. فإذا مرضنا،

كانت هي الممرضة والطبيبة، في آن! لاسيّما عندما نصاب بأمراض الطفولة الخفيفة؛ فلطالما كانت تفادينا أجرة زيارة الطبيب – ما أمكنها ذلك. كان منزل العائلة بدائيًا وبسيطًا؛ فعندما انتقل والداي إليه، كان مصدر المياه الوحيد في الدار، داخل المطبخ! وكان المرحاض في فناء الدار مجاورًا سور البيت الخارجي. المرحاض كان بدائيًا بسيطًا أوّل الأمر. لكن؛ حينما قام والدي بتركيب دولاب تشطيف مائي، بدا ذلك غايةً في الرفاهية! كان حمام الدار داخل غرفة الغسيل، حيث يوجد حوضان من الخشب، كانا يُملآن بالماء البارد في الصيف، وبالماء الساخن في الشتاء. في فناء الدار –على طرف الحديقة– كانت هنالك (ماسورة) مياه البئر، التي ترفع بآلة رافعة معقوفة. وكنا نجد متعة وسعادة حين نعبث بتلك الـ(ماسورة)، ونرش بعضنا البعض بمائها!. من التحسينات التي أدخلها والدي على الدار، مطبخ حديث على الطراز الفيكتوري، به كل ما يحلم به سكان ذلك العهد الفريد – من فرن على كل جانب، وأرفف عليها أدوات المطبخ، والمائدة والأواني الصينية، وكذلك مختلف أنواع المأكولات المحفوظة؛ من بيض ومربى! وكان هناك متسع لكل شيء، حتى أماكن وضع الأحذية.

كانت حديقة الدار هي مزرعتنا الصغيرة، حيث كان والداي يزرعان الكثير من الخضروات ومختلف أنواع الزهور. وأذكر أنّني وشقيقي (ويلي)، كنّا نجد متعة خاصة في قطف نوعين من الزهور ذات الروائح النفاذة، ونملأ بها جيوبنا أيام الآحاد، حين نذهب لحضور خطبة القسيس، التي كانت كثيرًا ما تملأ أنفسنا بالضجر! ولكي لا نستسلم للنّعاس، كنّا نأخذ هذه الزهور ونفرك بها أنوفنا، لكي نظل يقظين، ذلك أنّ الاستسلام للنوم داخل الكنيسة أثناء إلقاء القسيس دروس الوعظ والإرشاد، جريمة لا تغتفر.

من أهم أفراد العائلة – كلبنا المدلل (بروس): الذي كان من الذكاء والفطنة، بحيث يأخذ قرشًا بين أسنانه، ويسرع الخطى إلى محطّة الترام لوحده، ذلك، عندما لا يتمكن أحد من أفراد العائلة من استصحابه في نزهته اليومية!.. وهناك في محطة الترام؛ يسرع (بروس) بالدخول إلى عربة الترام، ملقيًا بقطعة النقود المعدنية بين رجلي السائق! وكان كل سائقي الترام يعرفونه؛ ثم يستقل السلالم إلى طابق الترام العلوي، حيث يجلس القرفصاء على أرضية العربة، ويملأ أنفيه برائحة الهواء المنعش، حتى إذا أدرك الترام محطة بوابة القلعة، عندها يغادر (بروس) الترام، ويغذ السير قافلًا إلى البيت!

عندما بلغت سن الخامسة، أدخلت مدرسة (برومهيل)، وهي مدرسة ابتدائية تتبع

للمجلس البلدي، وتبعد عن بيتنا حوالي ثلاثة أرباع الميل. كنا وأخي (ويلي)، نقطع هذه المسافة ذهابًا وإيابًا – أربع مرات يوميًا. عادةً ما يمكث الأطفال في مدرسة (برومهيل) حتى سن الرابعة عشرة، وهي سن انتهاء التعليم الابتدائي وقتئذ في (أسكتلندا). أمّا أولئك الأطفال الذين لديهم ملكات دخول المدراس العليا، فيطلب منهم الجلوس إلى امتحان تحضيري في سن الحادية عشرة، لنيل منحة دراسية تمكنهم من الالتحاق بتلك المدارس. هؤلاء الأطفال النجباء، يجب عليهم أخذ حصص إضافية. كانت مدرّستي الآنسة (كوبر)، تلك الفتاة المرحة ذات الوجه المستدير، من تطوّع لإعطائنا: -أنا وأربعة من زملائي- تلك الحصص الإضافية من دون أجر إضافي، ممّا ساعد على استنهاض همتنا، ومنعنا من أن نبدي أي احتجاج أو امتعاض، لأنه كان يتوجب علينا أن نصحو مبكرين. كان نجاحنا هو جائزتنا الثمينة. لقد أصيب والداي بالدهشة والحبور، في آن، حينما نجحت في ذلك الاختبار لدن أول مرة، مما دفع ناظر المدرسة (برومهيل)، إلى أن يعطي كل أطفال المدرسة إجازة نصف يوم دراسي، احتفالًا بذلك النجاح الذي أدركته. كانت جائزتي الكبرى، أنني تحصلت على منحة دراسية للالتحاق بكلية غردون النموذجية في (أبردين).

حياة الأسرة الباكرة

رغمًا عن عدم توافر عناصر الرفاهية في منزل الأسرة البسيط من كهرباء وماء ساخن، إلّا أنّ إضاءة مصباح زيت البرافين، والدفء المنبعث من فرن المطبخ، أغريا بنا لنتخذ من المطبخ غرفة مبسطة للمعيشة. كنّا نتناول الوجبات وفق زمن محدد! فطعام الإفطار يتناوله الجميع – وجوبًا – عند الساعة الثامنة وعشر دقائق صباح كل يوم! وكانت تلك الدقائق العشر، تكفي لكي يقطع والدي المسافة من مكان عمله إلى الدار على دراجته الهوائية، وذلك بعد انتهاء مناوبته الصباحية الأولي، التي كانت تبدأ عند السادسة صباحًا. كانت تلك الوجبة عادة ما تتكون من الشوربة وكوب من الحليب. كان الحليب عادة ما يُبيَّتُ في إناء منفصل وتعلوه طبقة شهية من الكريم!

أمّا وجبة الغداء؛ فقد كانت دائمًا عند الواحدة ظهرًا، وهي عادة ما تحتوي على شوربة متماسكة مع البروث الأسكتلندي، أو سمك الكود، أو اللحم المفروم، أو لحم النقانق، وشرائح البطاطا – تليها وجبة العشاء؛ التي كانت عند تمام الخامسة والنصف عصرًا، وكانت محتويات طبق تلك الوجبة متفاوتة يومًا تلو الآخر! فمرة يتكون من أسماك مقلية وقدر من (خبز) الشعير، وأحيانًا من البيض المقلي ومما يضاف إليه؛ فضلًا عن مختلف أنواع الخبز، حيثُ الشريحة الأولي منه غالبًا تكسوها طبقة من الزبد، فيما تغطى الطبقات دونها بعسل القصب أو بالمربي. كانت أمي تصنع التحلية من كيك الشعير. أمّا الأنواع الأخري من الكيك؛ فقد كانت تظهر في المناسبات أو في أيّام الآحاد.

طوال أيّام الأسبوع؛ وبعد وجبة العشاء، كان يتم تنظيف منضدة الطعام، فنجلس جميعنا حولها لأداء واجبات اليوم الدراسي. كان أبي يساعدنا في إنجاز واجباتنا المدرسية، خاصة حين يتعلق الأمر بالمقالات أو الرسم، ولم يكن يسمح لنا باللعب في الحديقة أو فناء الدار أثناء اليوم، إلا بعد أداء تلك الواجبات، أو عند عطلة نهاية الأسبوع! أمّا ممارستنا اللعب

في الشارع، فقد كانت من المحرّمات لدى والدي، خوفًا علينا من الحوادث ومن سماع بذئ الكلام! لقد كان في حديقتنا أشجار عظيمة ذات فاكهة متنوّعة وذات تفاح! كنت وأخي (ويلي) نتبارى في تسلق تلك الأشجار، وغالبًا ما نفلح في الوصول إلى أعاليها الخطرة، غير آبهين لما سيطرأ ونحن في غمرة ذاك التنافس المحموم!

حين شببنا عن الطوق وكبُرنا، كانت تعهد إلينا بمزاولة أعمال منزلية ذات طبيعة محددة، مثل مسح وتنظيف أرضية المنزل، ونظافة الأحذية، أو القيام بنشر الملابس بعد غسلها. وقد كان من الأعمال المحببة لدينا قطع الأخشاب للوقود! حتى إذا أصبحنا و(ويلي) من القوة بمكان، صار يعهد إلينا بالإشراف على قدر الحساء وهو على النار، ومن ثمّ إنزاله! وكنا نتناوب تلك المهمة.

لولا متعة ما كنّا نتناوله فيها من قطع الحلوى، لم تكن أيّام الآحاد مفضلة لدينا. كان يلزمني و(ويلي) ارتداء الرداء الأزرق، واعتمار قلنسوة بالمورال: (تلك التي كنا نكرهها!). وعلى الرغم من أنّ هناك كنيسة صغيرة جوار دارنا، لكنّ أمي وأبي كانا حريصيْن على التزامنا بالذهاب كل يوم أحد، إلى كنيسة القديس (نيكولا) التابعة لكنيسة البروتستانت الحرة المتحدة، والتي تخرّج منها الكثيرون من القساوسة المبرّزين. ربما يرجع ذلك؛ إلى أنّ اثنيْن من أعمامي، أولهما شقيق والدي الكبير: (ألكسندر كروكشناك)، والآخر ابن عمه: (روبرت لوس) – صارا من قساوسة تلك الكنيسة.

والاثنان مارسا أنشطة تبشيرية في إفريقيا. كنت منذ صغري مولع بالحكايات والقصص التي أسمعها من قريبيّ: هذين المبشّريْن! ولربّما كان لتلك الحكايات أثر في عقلي الباطن، إذ وقع اختياري على الذهاب إلى إفريقيا، والعمل طبيبًا في أصقاعها.

كما أسلفت؛ فقد كنّا نعاني عند حضورنا خطبة الأحد كثيرًا من السأم والضجر، لا يسلّينا عنها غير شمّ أوراق النباتات العطريّة والرّياحين. عقب خطبة الكنيسة؛ كنّا نتلقّى حصّة الأحد الأسبوعية من العمّة (ميري): التي كانت موفّقة في تقديم دروس الإنجيل وتحبيبها إلينا. لقد خدمت العمّة (ميري) المدرسة فترة أربعين عامًا، وكانت متفانية في تلك الخدمة حتى يوم وفاتها!.. كنّا بعد انتهاء الحصة؛ نستبق عائدين إلى المنزل لتناول طعام العشاء، ذلك انّه لم يكن مسموحًا لنا باللّعب في أيّام الآحاد.

الفصل الثاني

عندما بلغت سنّ الحادية عشرة، التحقت بمدرسة (أبردين) النموذجية، وكنت أتعرض لبعض المضايقات، لسبب نيلي منحة دراسية للالتحاق بالمدرسة! وللدفاع عن النفس، قرّرت التميّز أكاديميًا. وعندما أعلنت نتيجة امتحان الفصل الدراسي الأول، إذا بي صاحب القدح المعلّى في كل المواد الدراسية! لكن - وللأسف- بعدها بشهور، تعرضت لنكسة صحية قعدت بي عن مواصلة ذلك التميّز! بيد أنّني سرعان ما تكيفت مع كثير من زملاء صفي الدراسي، وصار لدي منهم أصدقاء كثر.

اندلاع الحرب الكونية الأولى عام 1914 أدّى إلى زعزعة الدراسة لدينا، لكنّنا استمررنا في تلقّي دروسنا في الفترة الصباحية، إذ استلزم الحال أن تشغل طالبات المدرسة العليا للبنات فصولنا في الفترة المسائية. كانت سنوات عجافًا مليئة بالكآبة والحزن، وكانت أخبار القتلى والجرحى تطغى على كل شيء، ولم يسلم بيت في (أبردين) -إلا في ما ندر- من شخص قتل أو أصيب بعاهة.

ذات يوم، غاب أخي (ويلي) الذي كان صبيًا وديعًا! لم يعد إلى الدار عند المساء كعادته. كان قد تعدى السابعة عشرة. مضت أيام وشهور طوال، ولم نعثر له على أثر. كان أبي عظيم الظن أنّ (ويلي) انخرط جنديًا متطوعًا في البحرية، لكن لم يعثر على اسمه أبدًا! لقد كانت سنة طويلة مليئة بالحزن والأسى لدى أسرتنا. وبعد أن مضى يومان على تاريخ ميلاده الثامن عشر، إذا به يدلف إلى الدار سليمًا معافىً، وهو يرتدي بزة القوات البحرية التي كان قد التحق بها قبل عام باسم مستعار.

في عام 1916 انتقلت إلى الصف السادس في المدرسة الثانوية، وكنت حينها قد قرّرت أن أدرس الطب البشري وأتخرّج طبيبًا. على الرغم من أن سنوات الحرب مضت متثاقلة بكل كآبتها ورتابتها، لكنّ التحاقي بكلية الطب جامعة (أبردين) عام 1917م، جعلني

متيقنًا أنّ كل ما اكتسبته من انضباط وإحساس بالمسؤولية خلال سني الدراسة في مدرسة (أبردين) الثانوية النموذجية، سيظل معي في مقبل أيّامي. كنت محظوظًا – أيضًا – أن أنال منحة دراسية قيمتها ثلاثون جنيهًا في العام؛ وأضفت ذلك المبلغ، إلى المنحة الأخرى التي حصلت عليها – كذلك– من صندوق (كارنيجي) الجامعي. صرت في وضع مادي مريح، أزال عن كاهل والدي أي عبء مالي من دراستي في كلية الطب! لقد أشرف والدي على تلك المنحة، وكان يعطيني منها ما يكفي لمصاريفي اليومية، وقيمة شراء الكتب الدراسية، وقيمة تذاكر الترام – حتى تمكنت يومًا من شراء دراجة!

كنت أعلم أن فقر والدي يحول دون مقابلة أي مصاريف إضافية، لذا فقد كنت حريصًا على ألا أرهق كاهله بأي طلبات مالية. وحينما كذبت عليه –ذات مرة– أنّني أحتاج إلى قيمة كتاب تشريح إضافي، لم أسترح من عذاب الضمير، حتى دفعت ذات المبلغ أضعافًا مضاعفة إلى والدي بعد سنوات طويلة!

وصل القبول لكلية طب (أبردين) عام 1917 رقمًا قياسيًا، إذ تم قبول 127 طالبًا بالكلية، وذلك يرجع إلى عدم انتظام الدراسة أثناء سنوات الحرب الكونية. كانت محاضرات كلية الطب تتم في كلية (ماريسكال)، التي تبعد حوالي الميلين عن دارنا. كنت أقطع تلك المسافة مشيًا على الأقدام صباحًا ومساء! لكن في فترة الظهيرة، كنت أستقل الترام عائدًا لتناول وجبة الغداء. لقد تم إدخال بعض التحسينات على غرفتي الخاصة، لكي توائم ظرفي الجديد – كوني طالب طب! ولقد أتيحت لي الفرصة –لأول مرة– لكي أكون بمنأىً عن النظام المنزلي الصارم الذي كان يفرضه والدي، لكنّ سنوات الحرب أصابت الحياة الاجتماعية في مقتل!

قبل أن نبدأ سنوات التدريب السريري في عنابر المستشفى، كانت الدراسة في كلية طب (أبردين) تقتصر على تلقينا المحاضرات المختلفة، وكنّا عبيدًا لكتابة الملاحظات على تلك المحاضرات، ولم يتسنَ لنا زمن كاف للاستفادة من مكتبة الكلية، وكان جل المحاضرين يفتقرون إلى الجاذبية في إلقاء المحاضرات! مع بعض الاستثناءات – مثل مدرس الكيمياء بروفيسور (آرثر سودي) الذي ابتدع كلمة النظائر (**Isotopes**)، وكذلك سير (آشيلي ماكتنوش) الذي كان محاضرًا مميزًا ونطاسيًا بارعًا. كان معظم زملاء فصلي من الريف الأسكتلندي، وكان جل اهتمامهم ينصب على التميّز الأكاديمي، ولا يعيرون الأنشطة

الأخرى، مثل: الرياضة وغيرها كبير اهتمام، ويعدون ذلك ترفًا! كنت مثلهم تمامًا، فإهدار أدنى وقت لديّ في غير الدرس والتحصيل، كان عندي إهدار لجهد والديّ اللّذين ضحّيا بكل غال ونفيس، حتى يضمنا لي فرصة دارسة الطب.

كما ذكرت آنفًا؛ فقد كان عدد الطلبة في فصلنا كبيرًا، مما أثر سلبًا على الفرص الجيدة للتدريب الإكلينيكي، حيث يتراوح عدد أفراد مجموعات التدريب ما بين العشرين والثلاثين، وكان هؤلاء يلتفون حول مدرب واحد، وكانت تُعطى الأولوية لزميلاتنا البنات، ولم يكن هنالك ما يكفي من النواب لكي يخففوا العبء على الأساتذة.

قبيل انتهاء الحرب؛ كان طلبة الطب الذين يجتازون السنتيْن الأوليَيْن في دراسة علوم التشريح ووظائف الأعضاء، يتم إلحاقهم بسلاح البحرية الملكي - معاوني جراحين. لكن؛ وللأسف، لم أكن محظوظًا أن تتاح لي تلك الفرصة التي تقت إليها كثيرًا. إذ انتهت الحرب بعد شهور قليلة من بلوغي سن الثامنة عشرة، ونجاحي في الامتحان التمهيدي.

لقد زاولت بعض الأعمال في فترات إجازاتي الصيفية. فممّا أذكر؛ أنّه وفي عام 1919، أضرب عمال المناجم، وأثر ذلك سلبًا على توريد الفحم لتوليد الطاقة، عندها أتيحت لي فرصة العمل في سفينة كانت تجلب الفحم من هولندا. وذات مرة؛ عملت مساعدًا لأحد الرعاة في وادي (قايرن)، وأخرى عامل حفر للخنادق! تلك أيّام لا تنسى.

ولما كانت إمكانات التدريب في حالات الولادة غير كافية، فقد أعطينا خيارين نختار أحدهما، إمّا الذهاب إلى مستشفى (الروتندا) في (دبلن)، أو إلى مركز الولادة في (جلاسقو)؛ وقد اخترت الأخير. صادف ذلك، أن كنت في معيّة ثلاثة من أعز أصدقائي وزملائي - هم: (بيل أوكونر)، و(ريدفرز آيرونسايد)، و(ساندي نيكول). تلك السانحة؛ كانت مليئة بالدروس والعبر. وحظينا منها بخبرة في علم التوليد لا تعوّض!. كان الطلبة يذهبون مثنى لتغطية المناوبات، التي كانت تمتد من السادسة مساءً وحتى السادسة صباحًا!. وكانت الفترة الصباحية تغطى بالتدريب من القابلات. كانت هنالك بعض المناطق في (جلاسقو)، لا يمكن الدخول إليها إلا في رفقة الشرطة، كما أُخبرنا! بيد أنّ شنطة القابلات الصغيرة السوداء، كانت خير حام لنا وخير خفير! لم أر - طوال حياتي- مثل الذي رأيت من القذارة والأوساخ ومظاهر الفقر، في تلك الأنحاء من مدينة (جلاسقو)! .. كانت معظم الولادات تتم في تلك البيوت - إن صحّت تسميتها بيوتًا! فهي في معظمها لم تكن سوى غرفة واحدة!

والسيدة؛ وهي – في حالة الوضوع– لم يكن ليفصلها عن بقية قاطني الدار، سوى ستارة رفعت على عجالة! ولم تكن هناك وسيلة إنارة في تلك الدور سوى مصابيح البارافين. لكن مع كل تلك الكآبة، كانت تلك الأسر تتحمّل بؤسها وشقاءها بكثير من الصبر والجلد! أذكر أنّه وفي كل مرة تصدر آهة أو صرخة ألم، من تلك السيّدة التي تعاني آلام الطلق؛ لم يكن ليجاوبها غير عزف عال، صادر عن آلة البيانو داخل الدار من خلف الستار!!.

كان يتوجب علينا أخذ كل مولود يولد في تلك الدور إلى المستشفى، ليتمّ الكشف عليه. ومن الطريف؛ أنّنا قد لا نجد ما نلف به بعض أولئك المواليد حين نأخذهم إلى المستشفى، سوى ورق الجرائد اليومية!. لقد كان منظرنا –حقًا – مثيرًا للغرابة والدهشة، ونحن نحمل أولئك الأطفال حديثي الولادة، على ترام عمال (جلاسقو) عند ساعات الصباح الباكر، وهم ملفوفون في ورق الجرائد الملطّخ بالدماء!!.

قبل حوالى سبعة أشهر من تخرجي في كلية طب (أبردين)، كانت الحاجة ماسة إلى أطباء للعمل في مختلف المستشفيات، وكان عدد الأطباء آنذاك قليلًا. بيد أنّني كنت محظوظًا؛ أن وقع على الاختيار للعمل في وظيفة مساعد جراح بمستشفى (أبردين) للأطفال. كان ذلك إبّان الفترة التي اجتزت فيها – بنجاح– الامتحان النهائي في شهر يونيو من عام 1922. أذكر أنّه وفي يوم إعلان نتيجة ذلك الامتحان، كان كل طالب يُعطى مظروفًا، لم يكن أحد منّا في حاجة لفتح ذلك المظروف، وكان يكفي الواحد منا أن تدنيه من أي من مصادر الإضاءة، ليستبين من لون المحتوى الخبر اليقين! فالورقة السوداء التي داخل المظروف؛ هي: عنوان النجاح وشهادة التخرّج! أمّا الورقة الحمراء؛ فهي عنوان الفشل ودليل السقوط في امتحان التخرّج!. لم تكن لتعدل سعادة والديّ – وهما يستقبلان نبأ نجاحي– أيّما سعادة؛ وقد بلغ بهما إحساسهما بالفخر وشعورهما بالفرح، أن أقاما للعائلة وليمة في أحد أفضل مطاعم (أبردين). لكنّه؛ ما إن أدركتني السادسة من مساء ذلك اليوم، حتى لزمتني المغادرة لاستلام مناوبتي في مستشفى (أبردين) للأطفال.

الفصل الثالث

ترخيص مزاولة المهنة

بعد التخرّج؛ واتتني سانحة الاستمرار كطبيبَ امتياز في مستشفى الأطفال فترة ستة أشهر أخرى! فسررت لذلك العرض، وقبلته على الفور. في تلك الأيام؛ كان العمل في المستشفيات التعليمية حليف ذوي الحظ العظيم، رغم ما يتطلبه ذلك من جهد مضاعف، والتزام أكبر، وساعات أطول، وظروف معيشة أقسى. كنّا ثلاثة أطباء امتياز – فقط!. وكان الأمر يتطلب أن يكون اثنان منا في حال مناوبة مستمرة – طوال أربع وعشرين ساعة: هي ساعات اليوم! وعلى مدى سبعة أيّام: هي أيّام الأسبوع.

أحد المناوبين؛ كانت مهمته إعطاء المخدّر، أمّا مهمة الآخر؛ فقد كانت مساعدة الجرّاح المناوب. والأخير هذا، دومًا ما يكون جرّاحًا مشاركًا في المستشفى. كما كان من مهامّنا؛ العثور على الجرّاح المناوب. في ذلك الزمان؛ كان كل الاستشاريين من جراحين وأطباء تخدير وأشعة، لا ينالون أجرًا لقاء عملهم في المستشفى، بل كان يكفيهم شرفًا التكليف بالعمل في المستشفيات التعليمية!. ولذا؛ فقد كان لزامًا عليهم، كسب عيشهم عن طريق عياداتهم الخاصة.

في تلك الأيّام؛ كان تخدير معظم الحالات يقوم به طبيب الامتياز. وكان المخدّر المستخدم دومًا غاز (الإيثر) أو (الكلوروفورم). لقد استمرّ ذلك لسنوات عديدة في أسكتلندا، بعد انتهاء استعماله مخدّرًا أساسيًا في إنجلترا. كان مبعث فخرنا – دومًا – واعتزازنا، أنّ أوّل من اكتشف ذلك الغاز واستعمله مخدّرًا، هو الأسكتلندي السير: (جيمس سيمبسون). والطريف في الأمر أنّ الرجل جرّبه –أوّل ما جرّب– على نفسه! قبل أن يعلن اكتشافه المجيد ذاك. وجدير بالذكر؛ أنّ اكتشافه ذلك قوبل بمعارضة الكثيرين من زملائه في المهنة! لكنّه

سرعان ما أزيحت تلك العقبة، عندما استعمله لتخدير الملكة (فكتوريا) عند ولادة الأمير (ليوبولد). بعدها صار استعماله شائعًا، ولقي رواجًا كبيرًا!!.

من مهامّ أطباء الامتياز – كذلك– أخذ الأطفال لعمل الأشعة. وكان طبيب الامتياز من يقوم بتشغيل جهاز الأشعة. وكانت معظم حالات الأطفال من الذين يبتلعون قطع النقود، وتأتي بهم أمهاتهم جزعات فزعات – ملء أفئدتهنّ اللوعة والخوف على فلذات أكبادهن! لكنّه دائمًا ما تنتهي لحظات الجزع والاضطراب –تلك– لا إلى شيء سوى الاطمئنان!. ومن النادر أن يحتاج طفل إلى تدخل جراحي. وكانت لحظات المرح عندنا أن نُجري الرّهان على أيّ وجه من قطعة النقود، ذلك الذي سيظهر في صورة الأشعة؟!.

كان مستشفى الأطفال في (أبردين) مبنى قديمًا. وكان سكن أطباء الامتياز يقع مباشرة فوق غرفة المشرحة. وكان أن اشتهر أنه وفي خلال الأعوام الخمسة المنصرمة، لم ينج أي من أطباء الامتياز من التهاب اللوزتين البكتيري، الذي كان دائمًا ما يجبرهم على أخذ إجازة مرضية طويلة للاستشفاء. ورغمًا عن تصميمي على كسر تلك القاعدة، واتخاذي موضعًا لسريري الخاص في الهواء الطلق عند الفيرندا – بعيدًا عن موضع التهوية الرديئة في سكن أطباء الامتياز! لكن أصابني ما كنت عنه أحيد، في آخر أسبوع قضيته في فترة الامتياز تلك!!.

بعد مرور كل تلك السنوات؛ أحسب أنّ وظيفة طبيب امتياز في قسم الأطفال، أعطتني شعورًا وافيًا بالسعادة والرضى، لم يكن ليدانيه –أبدًا – ما أحسسته نحو أي من تلك الوظائف التي تقلدتها في الحقل الطبي عند مقتبل حياتي المهنية!. ولا غرو؛ فقد نويت – حينها– أن أسلك طريق طبّ الأطفال، حتى أغدو متخصّصًا فيه مستقبلًا.

بعد قضاء شهور عديدة ملأى بالمشاغل والمهمات؛ حسبتني في حاجة إلى إجازة أسبوعين. وعندما قدمت طلب الإجازة إلى رئيسي في العمل: د. (ساندي ميتشيل)، سرعان ما أخرج من معطفه مظروفًا وابتدرني قائلًا: (لأعطينّك إجازة ممتعة، ستدخل السرور إلى نفسك!. إنّ صديقًا لي؛ صاحب عيادة بالقرب من لندن يدعى د. (فرايزر)، في حاجة إلى من يقوم بالعمل عنه في عيادته مدة أسبوعين!. لذا فيمكنك أخذ إجازتك والذهاب إليه لأداء هذه المهمّة.

لقد كان ذلك منه بمثابة الأمر؛ ولكنّي اغتنمتها سانحة، ذلك أنّه لم يسبق وأن سافرت

خارج (أسكتلندا)، إلا في مغامرتي المشهودة -أيّام صباي- إلى هولندا.

عند وصولي إلى عيادته قرب (لندن)؛ قابلت د. (فرايزر) - الذي كان هو الآخر أسكتلنديًا !. فما كان منه إلا أن تجاوز لحظة لقائي به، ليشرح لي -على وجه التفصيل- واجباتي خلال فترة الأسبوعين التي سأقضيها في عيادته!. أخرج الرجل قائمة من جيب سترته وابتدرني قائلًا: «إنّه ليس ثمّة حالات حرجة». ومضى يستحثني على زيارة الأختين:(فلمنج) - مرة كل أسبوع؛ مشيرًا إلى أنّهما لا تعانيان شيئًا ذا بال، ولكنّهما في حاجة إلى كلمات من باب الاطمئنان. ثمّ أردف قائلًا: «إنّه -أيضًا - يقوم بمهمة التخدير لاثنين من أطباء الأسنان؛ إضافة إلى عمله جراحًا لقسم الشرطة، وتوافره -كذلك- على ما بين حالتين إلى ثلاث حالات توليد، كلّ أسبوع. بعدها بساعتين؛ استقل د. (فرايزر) سيارة تاكسي، واختفى عن الأنظار مخلّفًا سيارته وسائقها وعيادته: التي تديرها أخته العجوز تحت إمرتي!. الأخيرة؛ كانت -أيضًا - مسؤولة عن إدارة منزله، وتكفلت برعايتي طيلة الأسبوعين اللذين قضيتهما معها، على طريقة أهلنا الأسكتلنديّين وما اشتُهروا به من انضباط ودقة.

كان ذانك الأسبوعان مليئين بالمهام والمشاق. إذ قمت بعمل ثماني حالات توليد، وحالة طب شرعي عند الشرطة استدعت تشريحًا كاملًا. ولم يلبث مساعد صيدلاني العيادة، أن زاد من متاعبي بإسرافه في شرب الخمر!. كنت غاية في الإرهاق، وقد انعكس ذلك سلبًا على محيّاي وهيئتي. وأبلغ دليل على ذلك؛ يوم أن ذهبت لزيارة الأختين المسنّتين: (فلمنج). إذ ابتدرتني إحداهما بظرف زائد - قائلةً: «إنّني وأختي، كنّا في خلاف على عمرك الحقيقي!!. لقد حسبت أختي أنّك قد تجاوزت الخمسين، لكنّني أفحمتها بقولي لها: إنّك ربّما لم تتعدّ الخامسة والأربعين إلا بأيّام قليلة!!».. كنت - حينها- ما تجاوزت الاثنين وعشرين ربيعًا بعد!!.

عدت إلى مستشفى الأطفال في (أبردين)، وفي خاطري أنني سوف لن أعمل طبيبًا عموميًا بعد اليوم. لكن؛ وعند نهاية وظيفتي طبيبَ امتياز في قسم الجراحة، طُلب منّي تغطّية عيادة د. (كران)، الذي كان طبيبًا عموميًا كهلًا، اشتُهر بين الأهالي في (بانشوري) بإخلاصه وتفانيه في عمله، وبكونه صائدًا ماهرًا للسالمون!. كانت مهمتي القيام بوظيفة مساعده، الذي أجريت له سلسلة عمليات جراحية في البطن، أصيب بعدها بالإدمان على عقار (المورفين). الطريف في الأمر؛ أنّني لم أحصل على تلك المعلومة، إلا حين اختفى ما

بعهدتي من عقار (المورفين)، في ظل ظروف غامضة!. كان تنبيه صيدلاني البلدة كافيًا، لكي أمارس أقصى درجات الحرص، في حفظ ما في عهدتي من عقار (المورفين). كان البون شاسعًا ما بين عملي هنا في ريف (أسكتلندا)، وتلك الوظيفة آنفة الذكر خارج لندن في عيادة د. (فرايزر). هنا؛ الأهالي ذوو أدب عالٍ وذوق رفيع!. الذين يمنحونك الوقت اللازم، حتى تحادثهم باستطراد عن آلامهم وشكواهم! ثمّ هم يعطونك وقتًا أكثر للكشف عليهم بعناية، والوصول إلى سبب وعلّة ما يصيبهم! وكذلك وقت كافٍ لإجراء أي تدخل جراحي في العيادة. كانت وصفة د. (كران) السحرية معلومة جديدة لدي. إنّه يطلب من كل مريض يأتي لعملية جراحية بسيطة، أن يحضر معه قنّينة صغيرة من الويسكي!. وعندما يشرع في تجهيز المعدات اللازمة لما سيقوم به، سريعًا ما يطلب من المريض ارتشاف القليل من القنّينة! ذلك؛ وعندما يكون على وشك الشروع في العملية، يطلب من ضحيته أخذ رشفة أكبر من الويسكي!. وكانت عملية استئصال اللوزتين أو اللوزة الزائدة، لا تحتاج إلى أكثر من استنشاق (الكلوروفورم) لبعض ثوان، بعدها تُجرى العملية على طاولة مطبخ المريض. كانت هناك حالتان لا تزالان عالقتين بذاكرتي عايشتهما أيّام عملي مع د. (كران) – أُولاهما: أنّ أحد المزارعين زار العيادة شاكيًا إمساكًا حادًا، قمت على إثره بإعطائه جرعة من زيت الخروع (**Castor oil**). لكنّه لم يلبث أن عاودني في اليوم التالي شاكيًا أنه لا يزال يعاني من آلام الإمساك! حينها؛ قمت بإعطائه جرعة من عقار (الكاموميل). لكنّ المزارع عاودني في اليوم الذي بعده شاكيًا من أنّ أدويتي لم تُجد معه فتيلًا!. وسألني قائلًا: «أليس هناك ما هو أنفع لما أعانيه من هذا الإمساك؟».. بعدها؛ أعطيته أربع نقاط من زيت الـ **Croton**)): أقوى علاج معروف حينها للإمساك. في تلك الليلة؛ وبينما أنا أتهيأ للنوم، إذا بهاجس خفي يراودني، ذلك أنّني ربما أعطيت المزارع المسكين جرعة زائدة من زيت الخروع!!. وإذا بي أُهرع إلى الطابق السفلي، لكي أتحقق من الجرعة الصحيحة في دليل الأدوية. ولجزعي الشديد؛ وجدت الجرعة القصوى من زيت الخروع هي نقطتين فقط!!. فصرت أقلب دليل الأدوية من الغلاف إلى الغلاف، باحثًا عن الترياق المضاد للجرعة الزائدة، ولكن دون جدوى. ولقد أصابني من الخوف والجزع ما قد أصابني، خوف أن يمس المزارع المسكين مكروه، جرّاء استهتاري بأمره، وإعطائه تلك الجرعة الجزافية دونما تحقق!. لقد أُسقط في يدي، فلم أدر ما أنا فاعل!!.

جرجرت قدمي نحو السرير مُنهكًا من همّ التفكير ومضض الحسرة!. لكنّه وعند الثانية صباحًا رنّ جرس الهاتف، وقد تأكّد لي -عندئذ- أنّ المكالمة واردة إليّ من مزرعة ذلك المزارع المسكين!. ليت شعري؛ هل مات؟! أو ترى هرع به أهله إلى المستشفى لإسعافه؟!. لكن ريثما تناولت سماعة الهاتف، حتى فاجأني من على الجانب الآخر، صوت المزارع المسكين -نفسه- وهو يقول: (آسف لإزعاجك حضرة الطبيب، وسامحني على مخاطبتك في هذا الوقت المتأخر؛ لكنّما أحببت لأطمئنك على أنّ أمعائي، الآن، قد بدأت تتحرك!!!».

بعد انتهاء فترة تدريبي في مستشفى الأطفال بـ(أبردين)، انتقلت إلى العمل في مستشفى وزارة الدفاع بـ(موسلي) التابعة لمدينة (برمنجهام). كان الراتب السنوي -حينها- ثلاثمائة وخمسين جنيهًا؛ مقارنة بخمسين جنيهًا في (أبردين)!. تلك ثروة ما كنت أحلم بها!. كان دليلي للذهاب إلى (برمنجهام)، صديقي القديم (بيل أوكونور)، الذي سبقني إلى العمل هناك منذ ثلاثة أعوام. كان معظم المرضى الذي يرتادون المستشفى من قدامى المحاربين، الذين كانوا لا يزالون في حاجة إلى العلاج الجراحي، بعد انتهاء الحرب الكونية الأولى. كان ذلك المستشفى، يحتلّ مسكنًا قديمًا لرئيس وزراء بريطانيا أيّام الحرب: (جوزيف تشامبرلين)؛ والجزء الآخر منه كان ملكًا في سابق من أوان، لأسرة (الكويكرز): صاحبة مصنع (الكادبري) المشهورة للشكولاتة. كانت معظم حالاتنا الجراحية متعلقة بجراحة العظام. ولقد انصبّ معظم عملنا في بتر الأطراف الملوّثة، وتركيب أطراف صناعية لأولئك الجنود المساكين. لقد كان يحوى المستشفى قسمًا ممتازًا للعلاج الطبيعي؛ مزوّدًا بأحدث المعدات، وملحقًا به قاعة كبرى للجمباز، ويشرف عليه ستة من أخصائيي العلاج الطبيعي، بينهم أربع فتيات حسناوات- جميعهنّ بارعات في الرقص ولعب التنس.

كانت إلى جوار حديقة المستشفى بحيرة صغيرة بها بطة وحيدة. فقمنا -ذات يوم- أنا وصديقي (بيل) بتزويجها ذكرًا من البط!. ولقد أثمرت تلك الجيزة، عشرة من صغار البط ذكورًا وإناثا!. وكنت و(بيل)؛ نهرع يوميًا لإطعام هؤلاء الصغار، فما لبثوا أن نموا نموًّا سريعًا!. لكنّنا - ذات يوم- لم نعثر لهم على أثر! لقد اختفوا من البحيرة تمامًا!. وعندما أجرينا بعض التحرّيات، علمنا أنّ جنرالًا متقاعدًا يدعي (فيريس)، قد أخذ صغار البط ووضعهم في عش داخل حديقته!. وعندما ذهبنا إلى الجنرال مستفسرين، أقسم بالله أنّ كل ما في البحيرة ملك خاص له!. ولم تفلح المراسلات الرسمية التي أرسلناها له من

المستشفى في إقناعه بعدالة مطالبنا!. وبعد أيّام؛ علمنا أنّ الجنرال صار يبعث بأعداد من البط إلى الذبح؛ وحينها غلى الدم في عروقنا وقررنا الانتقام!. فقمنا ذات ليلة – والسماء تنهمر بالثلوج– بالدخول خلسة إلى منزل الجنرال! حيث عثرنا على ما تبقّى من صغار البط، الذين لم يكونوا ليتعدوا أصابع اليد الواحدة، وأخذناهم فرحين إلى غرفة رئيس المستشفى – ملء عطفينا زهو لا يخفى، وحكينا له عن (عملنا البطولي)، وأريناه الكنز الثمين الذي أتينا به!!. ولدهشتنا؛ فقد انتفض دكتور (جونستون) من تحت الأغطية – وقد كان مستلقيًا على سريره– واصفًا إيّانا بالغباء! صائحًا: «أوتدرون ماذا فلعتم أيها السفلة؟!! لقد قمتم بعملية سطو وسرقة! وهذه جزاؤها السجن! والشطب من السجل الطبّي!!!. حينها؛ أُسقط في أيدينا تمامًا!!!.

جدير بالذكر؛ أنّنا قد اتخذنا لشق طريقنا وسط الجليد المنهمر، عصًا غليظة لإبعاد الجليد عن مواطئ أقدامنا. وعند صباح اليوم التالي؛ فوجئنا بالجنرال الغاضب ومعه ثلة من رجال الشرطة، يدلفون إلى مكتب د. (جونستون)!. ولقد ادّعى العريف الذي في صحبتهم، أنه يعرف الفاعل – مُهمْهِمًا – أنّه (مستر بيكر) ذو الرجل الصناعية – ذاكرًا أنه قد اقترف جُرمًا من قبل، وأنّه ذو سوابق . كان (مستر بيكر) أحد مرضى العنبر الذي أُشرف عليه، وحين دخول العريف لاستجوابه، ابتدرته رئيسة ممرّضي العنبر، أنّ (مستر بيكر) طريح الفراش منذ ثلاثة أيّام، وأنّ أعلى رجله المبتورة ملتهب، وأنّ رجله الصناعية، التي ادعى عريف الشرطة أنّ أثرها ما زال ظاهرًا في الجليد خارج الدار، كانت محفوظة في دولاب العنبر منذ ثلاثة أيام !!!.

بعد ليلتين من ذلك اليوم؛ قمنا بالاستمتاع بوجبة عشاء دسمة من صغار البط في غرفة (جونستون)!. وإلى هذا اليوم؛ نفتأ نذكر ذلك الرجل الرائع، الذي قام بإنقاذ طبيبين يافعين، كاد طيشهما أن يؤدي إلى وأد مهنتهما في مهدها!!.

بعد ثمانية عشر شهرًا مليئة بالإثارة والمتعة! تعلمنا خلالها الكثير –أنا وصديقي بيل– آن الأوان لنختار فرعًا من أفرع الطب. وبلا أدنى تردّد؛ وقع اختيارنا – معًا – على التخصص في جراحة العظام. قمت بعدها بالتقديم لوظيفة شاغرة في مستشفى (ديفيد لويس) الواقع في شمال (ليفربول). حينها؛ تمّ تنبيهي إلى أنّ الوظيفة قد تمّ شغلها، بيد أنّي وُضعت عند أعلى قائمة الاحتياط، بحيث أحلّ محلّ من تمّ اختياره، حالما طرأ له طارئ جديد!. في يوم

الأحد التالي لتقديمي لتلك الوظيفة، وبينما أنا أطالع جريدة (الصنداي تايمز) في (ميز) الأطباء؛ وقع نظري على إعلان داخل الصحيفة، لوظيفة مفتش طبّي في السودان الإنجليزي المصري!. فانطلقت منّي صيحة فرح، أثارت دهشة من كان معي داخل الغرفة!!. لقد استيقظ الحلم النائم عن إفريقيا فجأة، مدغدغًا مشاعري! وإذا بكل حكايات وقصص عمي القسيس المبشر تخرج كالمارد من القمقم!. لقد أحسست -حينها- أنّ إفريقيا هي مربط فرس آمالي، ومحط أحلامي، ومهد وظيفتي المستقبلية!. لم أدر هل ساقني المصير المحتوم، أو دفعت بي بنات الخيال نحو إفريقيا؟.

بعدها بيومين؛ إذا بخطاب يصلني من مستشفى (ديفيد لويس) في (ليفربول)، يخطرني أنّه قد تم اختياري لتلك الوظيفة، التي سبق وأن قدمت أوراقي لها!. لقد سبق السيف العذل؛ وقُضي بانتهائي إلى حيثُ إفريقيا: تلك القارة الساحرة؛ التي لم أندم -قط- على اتخاذي قرار الذهاب إليها.

الفصل الرابع

سفر الخروج

لقد تم ترتيب معاينة الوظيفة في لندن مع ممثل السودان الطبي د. (ثيودور دايك أكلاند)؛ وقبلها نلت الكثير من التوجيهات والإرشادات من رئيسي في برمنجهام د. (جونستون)، الذي كان حريصًا على أن أبدو في مظهر لائق وأنيق، لدرجة أنه أعارني سترته! وما لبثت أن وجدت نفسي أمام بيت راق في ميدان (برانيستون) بلندن، وكنت في غاية الارتباك من المصير المحتوم الذي ينتظرني!.

«إنّني آسفة أن أذكر لك أنّ الدكتور ليس على ما يرام اليوم، إذ أصيب بوعكة برد طارئة» .. كانت تلك إفادة الحسناء التي استقبلتني لدى الباب. وأردفت قائلة: «لكنّه وجّهني أن أدلف بك إلى غرفة نومه!!». ودون أدنى مقدمات؛ ابتدرني رجل عجوز تجاوز العقد السابع من العمر بالقول: «ناولني سمّاعتي الطبية تلك، عزيزي الصغير!» - بعد أن أمضى لحظات سريعة في الكشف على قلبي وصدري. ثمّ ما لبث أن قال -وبسرعة: «نعم .. نعم .. إنّ لك سنوات طويلة ستعيشها، بلا أدنى ريب!!».. قل لي -عزيزي- أيّ صنوف الرياضة تمارس؟». كان ردي سريعًا «أمارس رياضة الرجبي ولعب البولو». ثمّ أضاف قائلًا: «حسنًا.. حسنًا.. الآن؛ اذهب إلى معملي الصغير في الطابق الأرضي، وقم بالكشف على عيّنة من بولك!. هناك وجدت موظفة استقبال غاية في الأناقة؛ أعانتني على ذلك. ثمّ عدت مسرعًا وابتدرته بقولي: «لم أجد أي شيء غير طبيعي في ذلك الفحص - سيّدي!».. فكانت إجابته «ممتاز؛ سوف تسمع منا قريبًا - إذن!» .. «رغم قوة إبصارك .. أرجو أن تطلب من رئيسك في (برمنجهام) أن يبعث لنا بتقرير عنه». عندها؛ أمطرته بوابل من الأسئلة عن طبيعة العمل الذي سأقوم به، وعن طبيعة المناخ في السودان، وعن راتبي الابتدائي،

وعن .. وعن! فما لبث أن أجابني باقتضاب: «لا تعليق؛ عزيزي .. سوف تعرف كل شيء، عندما تصل إلى هناك!». كان ذلك إيحاءً كافيًا؛ أن قد حصلت على الوظيفة!». أحسست – حينها– أن محدّثي ليس حديث عهد بالسودان، وتبيّن لي – فيما بعد– أنّني قد كنت محقًا فيما ظننت!. لكنّني؛ ورغم عدم إجاباته المقتضبة عن أسئلتي، فقد قبلت الوظيفة بلا تردد.

كان لا يزال أمامي شهر كامل، على إنهاء عقدي في (برمنجهام). كانت تلك فترة كافية، أن أجهز فيها كل ما أحتاجه لعملي في السودان. كان عليّ أن أجهز جواز سفري والتأشيرات اللازمة؛ فقمت بشراء قبعة من الكاكي وحذاء مخصوص: يقيني لسعات النمل الأبيض!. وكانت هناك حزمة من اللوازم الأخرى، التي لم يكن بد من تجهيزها. حتى إنّ أحدهم أرسل إليّ نسخة من القرآن الكريم مترجمة إلى اللغة الإنجليزية. كان أن أقيم الكثير من حفلات الوداع – لي ولزميلي (بيل أوكونور)، الذي انتقل إلى وظيفة في مقاطعة (كنت). كان الوداع في موطني (أبردين) مليئًا بالدموع! لست أنسى أنّها كانت آخر مرة أرى فيها شقيقي (وليام)، الذي ارتحل إلى أستراليا قبل سفري إلى السودان بثلاثة أسابيع فقط. لقد تنقل (وليام) في أنحاء أستراليا كثيرًا، وعمل في مختلف الوظائف. وآخر مرة وصل منه خطاب إلى والديه، كان في العام 1928 – قبل حضوري في إجازة سنوية بشهور. بعدها؛ لم نعثر له على أثر! إذ انقطعت أخباره.. بذلت قصارى جهدي كي أعثر عليه؛ ولكن بلا جدوى!. لم أترك بابًا إلا وطرقته!. أبلغت البوليس الأسترالي؛ الذي بحث كثيرًا، فوجد أربعة ممّن طابقت أسماؤهم اسم أخي (وليام) – لكن؛ لم يكن أي منهم ضالتنا المنشودة!!.

الرحلة إلى السودان

يوم الفاتح من فبراير عام 1924، كنت على رصيف البواخر المغادرة ميناء (بيركنج هيد): الضاحية المشهورة لـ (ليفربول)؛ حيث استقللت الباخرة المتجهة إلى قناة السويس - في طريقي إلى الخرطوم. باستثناء الرحلة الوحيدة إلى هولندا؛ وأنا لم أبلغ التاسعة عشرة، كانت هذه هي رحلتي الثانية إلى خارج بريطانيا. ما كنت أدري أنها كانت بداية لـ «قدم رحالة» ستطوف أرجاء العالم! بعد أن كنت قد طفت أنحاء كثيرة من السودان الإنجليزي المصري. ومن الطريف؛ أنّه رغم تلك الرغبة الدفينة في حبّ الأسفار، والتي تملّكتني منذ عهد صباي الباكر، إلا أنّ ضيق ذات اليد، وقلة الفرص، وعدم مواتاتها، وما إلى ذلك؛ حال جميعها دون تحقيق تلك الرغبة على أرض الواقع!. لكنّ عزائي؛ أنّ أبنائي قد أشبعوا تلك الرغبة الجامحة، بأن نالوا وأصابوا من الأسفار نصيب الأسد!. وأذكر هنا؛ أنّ ابنتي الوحيدة طافت حول العالم، ولمّا تبلغ -بعد- ربيعها الثالث والعشرين!.

كانت رحلتي الأولى تلك إلى السودان الإنجليزي المصري، على متن سفينة أحادية الدرجة. والآن؛ وبعد ستين عامًا ونيف، ازدادت عندي قناعة أنّ متعة الأسفار في زماننا هذا، تتحقق عن طريق البحر! فالسفر عبر البحر، يوفّر كل ما يتمناه المرء من أسباب الراحة والاستمتاع!.

لم نلبث؛ بعد أن مخرت بنا السفينة عباب البحر، أن شاهدت ومن معي كثيرًا من المعالم في خليج (بسكاي)، الذي دلفنا بعده إلى مضيق (جبل طارق)، فصخور (هرقل)، مرورًا بـ(مرسيليا)، ثمّ منها إلى مضيق (بونوفاشيو) الواقع بين (سردينيا) و(كورسيكا): حيث مسقط رأس نابليون!. وبعد خمسة عشر يومًا؛ وصلنا إلى شاطئ إفريقيا، القارة التي حكمت الأقدار أن أعمل فيها، طيلة الثمانية والعشرين عامًا التالية.

كانت (بورسعيد) -عند رأس قناة السويس- مدينة تعج بالكثير من الناس على اختلاف

ألوانهم. وعند تجوالي هنالك، شققت طريقي وسط رهط من الشحاذين والحمير إلى محطة السكك الحديدية، لأستقل القطار إلى مدينة القاهرة. وهناك دارت معركة أشبه بمباراة الرجبي، بين مجموعة من الحمالين وأخرى من المنتسبين، حول أيّهم يحمل عنّي متاعي وينهي إجراءات الجمارك!. ثمّ ما لبثت – بعدها– أن انتهيت إلى مكتب وكيل حكومة السودان في القاهرة، لأكمل إجراءات سفري إلى السودان الإنجليزي المصري. في ذلك الوقت؛ لم يكن السفر متاحًا إلى هناك، إلا عبر قطارين كانا يتعاقبان طوال أيّام الأسبوع!. ولسوء حظي؛ لم ألحق بأولهما، فاضطُررت إلى إنفاق معظم راتبي لأوّل شهر عمل، وكنت قد صرفته مقدّمًا، نظير إقامتي مدة ثلاثة أيام في فندق (شبرد) المشهور بالقاهرة! ثمّ قضيت يومًا رابعًا في فندق (مينا)، لرؤية أهرامات الجيزة وأبي الهول. وعندما شرحت لوكيل مكتب السودان أسباب تأخري، أعطاني فرصة ذهبية لرؤية هذه الأماكن الأثرية، لأنني كنت أحسب أنّ ذلك لن يتأتى لي مستقبلًا! ابتسم الوكيل قائلًا: «إنّ كل موظفي السودان من البريطانيين، يُمنحون إجازة سنوية قدرها ثلاثة أشهر – كل عام!».. فأثلج ذلك صدري! وقد امتدّ الخط الحديدي إلى بورتسودان ليوفّر طريقًا بديلًا للسفر إلى إنجلترا عن طريق مصر. وحينما غدت الطائرات وسيلة للسفر وبديلًا متاحًا عند نهاية الأربعينيات، أمست جميع وسائل السفر غيرها نسيًا منسيًا.

غادرت القاهرة على قطار الصعيد السريع إلى الأقصر، ثم من هنالك إلى أسوان، حيث أقلّتنا السفينة البخارية إلى شلال وادي حلفا. وكانت أول محطة وقفنا عندها هي (أبوسمبل). ولقد ساعدنا الحظ؛ أن كانت هنالك مركبة سياحية صغيرة تابعة لشركة (توماس كوك)، تقل عددًا من السيّاح! قدّموا لي الدعوة إلى جولة في ذلك المعبد العظيم، الذي بناه (رمسيس) الثاني فرعون مصر، في الفترة ما بين 1225–1292 قبل الميلاد، احتفالًا بانتصاره على الهكسوس. المعبد يحتوي على أربعة تماثيل عملاقة لـ(رمسيس) الثاني – يبلغ طول الواحد منها نحو الستين قدمًا، ترى مجموعات السيّاح أسفلها وكأنّها جحافل من النمل!!.

كانت محطة وصولنا هي مدينة وادي حلفا، والتي تقع أسفل الشلال الثاني. وتعتبر البوابة الشمالية للسودان على الحدود مع مصر. ولقد جعلها لورد (كتشنر) نقطة انطلاقه إبّان قيادته لحملة فتح السودان. ومنها بدأ إنشاء خط سكك الحديد الممتد عبر صحراء

العتمور. على جانبي الخط الحديدي؛ تمتد الصحراء على مدى البصر، حيث لا شيء البتة يمكن أن تقع عليه عيناك! حتى المحطات العشر من وادي حلفا إلى أبو حمد، هي أرقام بلا أسماء! اكتفي بتسميتها على الأرقام من واحد إلى عشرة!. عند وصول الخط الحديدي إلى أول مدينة صغيرة على النيل، وهي (أبو حمد)، يستمر الخط محتضنًا الشاطئ الشرقي للنيل حتى (الخرطوم) – على بعد 580 ميلًا من وادي حلفا.

السفر على متن ذلك القطار – خاصة لدى راكب الدرجة الأولى، فيه جميع وسائل الراحة والخدمة، إذ لكل راكب غرفة نوم لوحده! بيد أنّه ليست هناك من مناظر سوى كثبان الرمال؛ وبعض الشجيرات التي تلوح بين الفينة والفينة، على ناحية نهر النيل.

أول محطة رئيسية وصلها القطار كانت (عطبرة) أو (أتبره)؛ التي هي مثيلة (كرو Crew) في إنجلترا، بحسبانها المحطة الرئيسية للقطارات في السودان. كان وصولنا عند الصباح الباكر؛ حوالي الساعة السابعة. وكنت لم أزل مغمض العينين، حين انتبهت على طرق خفيف على باب غرفتي. وإذا برجل بريطاني فارع الطول، يعرّفني بنفسه على أنّه دكتور (أسكوير)[1] . وسرعان ما أخبرني أنه المسؤول عن كل مديرية (بربر)[2] ؛ وأنّني قد تم تعييني لأكون خليفته في الوظيفة، لأنّه قد اختير ليكون أحد المدرسين المسؤولين عن مدرسة كتشنر الطبية، التي افتُتحت في الخرطوم – ذلك العام. انتابني وقتها إحساس بالإحباط لأمرين؛ أوّلهما: أنّني لم آنس في نفسي من دربة العمل وخبرة السنوات، مما يؤهلني لأن أكون في خانة من يشرف على مديرية كبرى مثل (بربر)! والثاني: أنّ السودان الذي كنت أحلم به وبالعمل فيه، وجدته أرضًا يبابًا شاسعة، ليس فيها ما يثير إحساسي بالغبطة والسرور!.

واصل القطار مسيره إلى الخرطوم، التي انتهينا إليها ظهر ذلك اليوم. وكانت محطة القطار ملأى بأرتال من السودانيين الذي تبدو عليهم علامات الغبطة والسرور، وهم في جلابيبهم البيضاء المميزة. وسرعان ما وصلنا إلى مبنى رئاسة الخدمات الطبية السودانية،

(1) المترجم : دكتور (هنري بول أسكوير)، من الرعيل الأول من الأطباء البريطانيين الذين عملوا في السودان. صار أول محاضر للطب الباطني في مدرسة كتشنر الطبية. ثم عمل -بعد تقاعده عن العمل في حكومة السودان- مستشاراً طبياً لها في لندن حتي أوائل الخمسينيات من القرن الماضي. ألف أول كتاب عن تاريخ الخدمة الطبية السودانية، نشر عام 1958.

(2) المترجم: مديرية (بربر) على أيام التركية السابقة وبداية عهد السودان الإنجليزي المصري، كانت تشمل المنطقة شمال الحرطوم وحتي حدود دنقلا. وكانت العاصمة ابتداء في (بربر)، ثم انتقلت إلى (عطبرة).

التي كانت تشغل مبنىً مستأجرًا من غرفتين ومخزن. كان في استقبالي مدير الخدمة الطبية دكتور (أوليفر أيتكي): طبيب أيرلندي يميل إلى النحافة - سريع الحركة. جاء الدكتور (أيتكي) إلى السودان عام 1907، وبعدها بخمسة عشر عامًا، صار مديرًا للمصلحة الطبية السودانية عام 1922، قبل أن تصبح الخدمة الطبية السودانية عام 1923. دعاني دكتور (أيتكي) إلى الإقامة معه، مؤكدًا أنّني سوف أنتقل خلال أسبوعين إلى عطبرة، بديلًا لدكتور (أسكوير).

الفصل الخامس

الوظيفة الأولى في السودان

وصلت إلى مدينة (أتبرة) في أول شهر مارس من عام 1924. كانت إقامتي -أوّل ما أقمت- في نادي الموظفين البريطانيين بالمدينة. وسرعان ما لاحظت، أنّ المعرفة الجيدة باللغة العربية، من أساسيات النجاح في العمل. فسعيت في أن أتحصل بعض الدروس فيها على يد مدرس كان من الكتبة المصريين. لكن وللأسف؛ لم تكن تجربتي معه حليفة التوفيق، لأنه كان من محبي أكل الثوم! لذا سرعان ما كانت تصيبني نوبات من الغثيان عند نهاية كل حصة درس!.

في (أتبرة)؛ لم تكن هناك سوى سيارة واحدة تخص (ميدونتر باشا): مدير السكك الحديدية، الذي كان ضمن جيش لورد (كيتشنر) عند بناء الخط الحديدي. وسائل المواصلات في (أتبرة) هي الحمير والخيول والدرّاجات الهوائية. قررت أن تكون وسيلتي من الخيل، فابتعت حصانًا بعشرة جنيهات. وسمَّيت حصاني (الجوارب). لم أكن ذا عهد بركوب الخيل. لذا؛ كانت أيامي الأولى في امتطائي سرج حصاني، مبعثًا لكثير من الغبطة لدى صغار الأعراب، عند مروري بهم في شوارع (أتبرة)، مثيرًا حولهم للغبار!.

كانت هناك ظاهرة تميزت بها الخدمة الطبية السودانية في تلك الأيام، وهي (صالون القطار الطبّي). كنت أقوم بإلحاقه بأي قطار عابر شمالًا أو جنوبًا، مما أتاح لي فرصة زيارة كل القرى والمدن الواقعة على الخط الحديدي، التي هي تحت مسئوليتي، وأقوم بعلاج المرضى، وأنقل إلى (أتبرة) على متن ذلك الصالون، من يحتاج إلى أن يكون في المستشفى. يجدر القول؛ إنّ ذلك الصالون الطبي، كان عبارة عن قاعدة طبية متحركة، مكنتني من تغطية تلك المديرية الشاسعة، التي كانت ثلاثة أضعاف أسكتلندا من حيث المساحة! وحين

يتعذر الذهاب بالقطار، كنت أستقل (سفينة الصحراء): الجمل، وسيلةً للوصول إلى حيث لا خط حديدي!. وهنا؛ أحب أن أذكر أنني لم أجد في تلك الوسيلة – بالطبع- ما كنت أجده من المتعة وراحة البال، وأنا أستقل (صالون القطار الطبي)!. بعد ثلاثة أسابيع من وصولي إلى (أتبرة)، غادرني دكتور (اسكوير) إلى الخرطوم، لاستلام عمله محاضرًا في كلية الطب. ووجدتني -أنا الطبيب اليافع ابن الرابعة والعشرين- ربيعًا مسؤولًا عن تلك المديرية الشاسعة – لوحدي!.

بُني مستشفى (أتبرة) من الحجر عام 1910. وكان أول مستشفى في السودان به كهرباء، وتزيّن أسقف عنابره المراوح الهوائية. وكانت سعة المستشفى -عند بداية تأسيسه- ثمانين سريرًا. أمّا طاقم التمريض به؛ فيتكون من اثنى عشر ممرضًا من الرجال وأربعة من النساء – جميعهم من القبائل المحلية في المديرية. ولم يكن أي من هؤلاء يتحدث الإنجليزية!. كان بعضهم -فقط- يتقن الكتابة. وكان الممرض حينها يُعرف باسم (التمرجي)؛ التي هي -على الأرجح- كلمة تركية تعني الممرّض. كان رئيس التمرجية يرتدي طربوشًا أحمر اللون. أمّا بقية الممرّضين من الرجال، فيلبسون العمامة السودانية البيضاء والجلباب السوداني الأبيض المميّز. كانت الممرضات الأربع مشكوكًا في التزامهن الأخلاقي!. فبعد فترة ليست بالطويلة عقب حضوري، اكتشفت أنّ رئيستهن كان لها دخل رائج من ممارسة الختان الفرعوني بين صغار الفتيات، ممّا دفعني إلى إبعادها من المستشفى. وكان من ضمن طاقم المستشفى – كذلك- طبّاخان ومساعدان لهما، وساعيان، ومصري نال حظًا من التدريب كمساعد صيدلي! ولم يكن لدينا كاتب في المستشفى أو (ماترون)!. كان مساعدي طبيب سوري يدعى «دكتور (عودة). وكان هو من يقوم بمعظم عمل العيادات الخارجية. كان يتقن اللغة العربية والإنجليزية. وكان خير معين لي. واستفدت كثيرًا من خبرته الواسعة في علاج كثير من الأمراض المستوطنة. كانت شؤون الصحة العامة، والطب والوقائي، ومكافحة الباعوض، والإشراف الصحي على الأطعمة واللحوم والمسلخ المحلي، من اختصاص ملاحظ الصحة الأسكتلندي (مستر كوك)؛ وهو أحد أفراد الطاقم الأسكتلندي من ملاحظي الصحة، الذين استجلبهم دكتور (أندرو بلفور): مدير معمل (ويلكم) للأبحاث في الخرطوم، للمساعدة في مكافحة الباعوض والملاريا عام 1913. نظريًا؛ كان (مستر كوك) أحد الموظفين الذين هم تحت إمرتي، لكنّه -عمليًّا – كان يعرف كل صغيرة وكبيرة في مجال الصحة العامة والطب

الوقائي، وكان يزودني بالكثير من النصائح والإرشادات في ذلك المجال. حقًا كان لوجوده وواسع خبرته فائدة عظيمة لي.

كانت (أتبرة)؛ هي المدينة الرئيسية والمحطة الأولى في السودان في مجال السكك الحديدية، حيث كان يتم فيها كل ما يتعلق بالقاطرات البخارية وعربات الركاب والبضائع. وهناك كان يتم تدريب الكادر السوداني في هذا المجال. في البداية؛ كان جل سائقي القطارات والعمال المهرة من البريطانيين والمصريين، وكذلك معظم الكادر الإداري. كان للكادر البريطاني ناديهم الخاص، ولم تجر العادة على اختلاطهم برؤسائهم من البريطانيين. وكان هذا التمييز الاجتماعي بغيضًا لدي، بحكم نشأتي الأسكتلندية!. وبوصفي طبيبًا؛ كنت حريصًا على حصر هذا التمييز في نطاق ضيق – ما وسعني ذلك. كانت معظم الأنشطة الاجتماعية، تنحصر في لعب التنس والبريدج، واحتساء الكحول، وحفلات العشاء والرقص، في النادي البريطاني. كان معظم الطاقم من رؤساء الأقسام ونصف المرؤوسين من المتزوجين، وكان معهم زوجاتهم اللائي كن يأتين لقضاء فصل الشتاء. وعند بداية فصل الصيف ومع الحر القائظ، كان أولئك النسوة يبعثن لقضائه في بريطانيا. كان استحقاق العاملين من البريطانيين فترة ثلاثة أشهر – كل عام– هي: إجازتهم السنوية.

رئاسة المديرية كانت على مسافة ميلين من الشاطئ الآخر لنهر (أتبرة). وكان الوصول إليها ممكنًا – فقط– عن طريق العبّارة، أو عن طريق عبور كبري السكك الحديدية على القطار. وعلى الرغم من أن حاكم المديرية كان يقيم في (أتبرة) – والمدينة تحت إشرافه؛ لكنّه كان يترك إدارة شؤونها لمدير السكك الحديدية. لذا كنا نادرًا ما نراه أو نرى البقية من طاقم الإدارة. كنّا في ذلك العام على إدراكٍ، أنّ بعض الاضطراب السياسي قد حدث في مصر، منذ أن استقلت عن بريطانيا عام 1922. لقد حدث بعض التمرد في الحامية المصرية المرابطة في (أتبرة)، واستمرت الاضطرابات بين الحين والآخر، ووصلت قمتها حين اغتيل السير (لي استاك): حاكم عام السودان وسردار الجيش المصري في السودان، يوم 19 من نوفمبر عام 1924 في (القاهرة). أعقب ذلك الحادث تمرد بعض القوات السودانية، حين داهمت (مستشفى النهر) في الخرطوم، وقامت بقتل اثنين من أطباء الجيش البريطاني، هما: العقيد (كارليل)، والرائد (كانتيل). واستمرت الاضطرابات فترة قبل أن يُخمد التمرد. وأعقب ذلك طرد كل القوات المصرية من السودان. وتم تكوين قوة دفاع السودان في ذلك العام.

في (أتبرة)؛ أمضيت أسبوعًا ثقيلًا لكي أعالج الكثيرين من جرحى الاشتباكات. وكم وددت –حينها– إن كانت لي غرفة عمليّات أفضل، ومساعد يخفف عنّي عبء ذلك الجهد المضني الذي تحمّلته بمفردي!. كان ذاك عهد لم تكتشف المضادات الحيوية! لذا فقد أصيب الكثيرون من مرضاي بالتهابات بكتيرية أدت إلى تعفّن بعض الجروح، فاضطُررت إلى إجراء الكثير من عمليات بتر الأعضاء!. لم تمضِ الأمور على نحو أفضل. فعلى صدى تلك الأحداث؛ استُدعيت الكتيبة البريطانية –على جناح السرعة– من ميناء بورتسودان، وهي في طريقها إلى الهند. فأصيب أفرادها بالسأم والضجر من رتابة الحياة في (أتبرة)! مما حدا بالكثيرين من جنود تلك الكتيبة لافتعال مشاكل جمّة، التي نتج جلها عن الإفراط في احتساء الخمر!. لقد استُدعيت ذات مساء لإنقاذ يد جندي مخمور ذهب لاصطياد السمك في النيل، فأدخل سنارته في إبهامه الأيسر بحسبانه إحدى أسماك النيل! وكذلك، لإسعاف جندي آخر حاول الانتحار بقطع رقبته بسكين.

مضت الأشهر العشرة التي قضيتها في أتبرة سريعًا. وحزت خلالها على الكثير من الخبرة في علاج كثير من الحالات. لكنّها كانت فترة لم تخلُ من الإحباط الناتج عن قلة خبرتي في علاج أمراض المناطق الحارة، لاسيما وأنّني كنت وحيدًا، وليس ثمّة من ألجأ إليه للمشورة والمساعدة، ممّن هم أكثر خبرة منّي وإلمامًا – من زملائي في الخدمة الطبية السودانية. زاد الطين بلة، حرارة الطقس المداري وعواصف (الهبوب)، التي كانت تمتص أي حيوية تدب في الشرايين. ذات مرة؛ أتاني مفتش المديرية الإداري الذي قدم إلى (أتبرة) في مأمورية عمل، قضى معي خلالها بضعة أشهر. كانت صحبته خير مُعين لي، في فترة صعبة كان عليّ فيها تعلم الكثير. لكن؛ وبعد رحيله، انكفأت مرة أخرى في قوقعة الوحدة، وانعدام التلاقُح الذهني.

في ديسمبر عام 1924 غادرت (أتبرة) غير آسف! خاصة وقد دار في خلدي مواصلة عملي في السودان الإنجليزي المصري!. لكنّني؛ وبعد مرّ السنين، أدركت أن أحوال العمل ليست كلها مثل تجربة (أتبرة) القاسية. لاسيما وأنّني كنت حدثًا متواضع التجربة قليل الخبرة، وحيدًا من غير أنيس ولا صديق ولا زميل! ولم يك ثمة من يُسدي إلى نصحًا، أو من ألتمس عنده رأيًا، أو من لديه من الخبرة ما يعينني على تجويد عملي وأدء رسالتي!. بعد تلك السنوات الثرة التي قضيتها متنقلًا بين شتى بقاع السودان، قرّرت مواصلة العمل فيه، وأنا جدّ سعيد!!.

الفصل السادس

غادرت (أتبرة) في ديسمبر من عام 1924 إلى الخرطوم. وحين قابلت مدير الخدمة الطبية السودانية د. (أوليفر أيتكي)Dr Oliver F Atkey، ابتدرني قائلًا: «أريدك أن تذهب إلى كردفان، لكي تجري مسحًا شاملًا عن مرض البلهارسيا هناك». واستمر في التوجيه «ابدأ من الشرق، ثم اتجه إلى الغرب والشمال، لكي تكمل ذلك البحث الاستقصائي». نصحني دكتور (أيتكي) -وقتها- أن أسعى لنيل ثقة الأهالي، بالحرص على علاج أي شكوى لهم - مهما كانت بسيطة!. وقد عملت بذلك. وكنت حريصًا على أخذ حمولة كافية من الأدوية على ظهور الجمال، فكانت خير معين لي على أداء تلك المهمة. كانت مدرسة كيتشنر الطبية حديثة الافتتاح. وكان دكتور (أيتكي) كثير الانشغال بمختلف شؤونها. لم يكن عدد الأطباء البريطانيين -آنذاك- ليتعدّى الأحد عشر طبيبًا في جميع السودان؛ البلد الذي تبلغ مساحته مليون ميل مربع، ويسكنه حوالي أربعة ملايين ونصف المليون نسمة!. مع تلك الظروف، وتلك المساحة الشاسعة من الأرض، لم يكن لدى دكتور (أيتكي) الكثير من الوقت، لمناقشة الكثير من تفاصيل عمل مجموعته الصغيرة من المرؤوسين. كان يكتفي بإسناد المهام إليهم، تاركًا لهم حرية التصرف فيما يليهم، وهو مليء بالثقة في حسن تدبيرهم.

قضيت يومين في ذلك المعمل الممتاز: معمل (ويلكم) للأبحاث الطبية بالخرطوم، حيث نلت بعض التدريب على كيفية فحص شرائح الدم لتشخيص مرض الملاريا. كذلك اطلعت على أهم المستجدات في علاج مرض البلهارسيا، التي اشتُهرت بين الجنود البريطانيين العاملين في مصر إبّان الحرب الكونية الأولى بمرض: (بيل هاريس)؛ نسبة لمكتشفها الطبيب الألماني بلهارس Bilharz!!. كما أتحفني العقيد (روبرت آرشيبالد): مدير معمل (ويلكم) بالخرطوم، بجليل المعلومات عن كثير من الأمراض المدارية، التي سيقع على كاهلي عبء

علاج حالاتها.

بعدها انشغلت بتجهيز رحالي إلى كردفان. وأعانني على ذلك (فضل المولى): طباخي الخاص، و(سعيد): السفرجي؛ اللّذان اصطحباني من مدينة (أتبرة). لقد مكث معي (سعيد) زهاء الثلاثة والعشرين عامًا. الطريف في الأمر؛ أنّ ما أنفقته في شراء حاجياتي الشخصية للرحلة كان مبلغًا كبيرًا - لم يتردد د. (أيتكي) في دفعه!. مكتفيًا بتنبيهي إلى عدم الاكتراث لما صرفته على هذه الأشياء من راتبي الخاص، وأنّني لن أحتاج لصرف أي مبالغ تذكر لفترة طويلة أثناء تجوالي في كردفان!.

تقع مديرية كردفان على الضفة الغربية لنهر النيل. وتبلغ مساحتها حوالي 147 ألف ميل مربع. ويقطنها حوالي ثلاثة أرباع المليون. وهي مصدر أساسي للإبل الجيدة. والطبيعة هناك صحراوية قاحلة؛ لكن جنوبًا تتغيّر السمة المناخية إلى الطبيعة شبه المدارية. وتحفل أرضها بالكثير من أشجار الطلح والهشاب، التي هي المصدر الرئيسي للصمغ العربي. وتمثل صادرات جنوب كردفان حوالي ثلث إنتاج العالم كافة من تلك السلعة!. يقطن جنوب كردفان عرب البقارة، الذين مثلوا الشطر الأكبر من أنصار المهدي. وهم يجيدون تربية الخيول الممتازة.

بدأت رحلتي من مدينة (أم روابة)، وهي أول محطة على الخط الحديدي الذي يربط وسط السودان بغربه. كان في استقبالي مفتش المركز الإنجليزي (ليونيل أرمسترونج): الذي تواتر عنه، أنّه كان أصغر ضابط برتبة لواء في جبهة قتال الطليان، إبّان الحرب الكونية الأولى. أبدى (أرمسترونج) سعادته أن تكون المنطقة تحت إشرافه، هي التي اختيرت لإجراء أول مسح طبي لرصد البلهارسيا. فقدّم لي الكثير من العون. كما قام بتوجيه أحد رجال الشرطة من السودانيين، ليكون منّي بمثابة الدليل والحارس!. واستضافني فترة أسبوع كامل، كانت خير مقدّمة لعملي في مركز (أم روابة).

قبل شروعي في مسح البلهارسيا، قمت بفتح عيادة في باحة سوق (أم روابة). وسرعان ما غمرني طوفان من الأهالي طلبًا للعلاج والاستشارة الطبية!. تحت ذلك الضغط، اضطُررت لأطلب من مدير الخدمة الطبية د. (أيتكي)، أن يبعث لي بمن يعينني على ذلك. فوصلني -على التو- (أحمد أفندي)؛ أحد المساعدين الطبيين السودانيين: ممّن تلقوا تدريبًا مكثفًا فترة عامين لعلاج الحالات الشائعة البسيطة. نال (أحمد أفندي) إعجابي، لذكائه الحاد ومقدرته

الفائقة على تعلم الكثير مني في زمن وجيز! وصار موضع ثقتي، لاسيّما عند تعلمه السريع كيفية استخدام إبر علاج البلهارسيا على الوريد!.

هنالك نوعان من مرض البلهارسيا؛ أولهما: يصيب المسالك البولية، والآخر يصيب الأمعاء. ويتأتى التشخيص بتحليل عيّنة من البول في الأولى، وبتحليل عيّنة من البراز في الحالة الثانية. بلهارسيا المجاري البولية هي النوع الأكثر شيوعًا. لذا فقد تركز بحثنا على تشخيصها، لاسيّما وأنّ تشخيص بلهارسيا الأمعاء، يلزمه وجود بعض الوسائل التي لا تتوافر إلا في المستشفيات. كانت المعضلة؛ في كيفية شرحي للأهالي ما يلزمني القيام به، لإنجاح ما أنا بصدده. كان الحل في أن أبدأ بحثي وسط تلاميذ المدارس الأوّلية. حينذاك؛ كانت توجد في كثير من القرى والمدن، مدارس أوّلية – فقط للبنين!. أبدي ناظر مدرسة (أم روابة) الأوّلية للبنين –على مضض– موافقته على مساعدتنا في مهمتنا تلك. ولم أنجح في ذلك؛ إلا عندما قمت بالكثير من الشرح والإسهاب فيما نحن بصدده!. كانت المفاجأة؛ أنّ ناظر المدرسة أبدى كثيرًا من الدهشة والإعجاب، حين وضحت له أنّني أريد ابتداءً الكشف على عيّنات البول لكل التلاميذ! وابتدرني صائحًا «والله ... إنّك تحدثنا عن البول الحار!». وكان اصطلاح (البول الحار)، هو المتعارف عليه بين الأهالي لمرض البلهارسيا البولي!. كانت سعادتي غامرة، حين صارت كل فصول التلاميذ في مدرسة (أم روابة) الأوّلية تعج بالصياح، لإعطائنا عيّنة من البول. بين أول عشر عيّنات تم فحصها، كانت اثنتان منها إيجابيّتين! ولم تصادفني صعوبة في رؤية الشكل البيضاوي لبيضة البلهارسيا، وشوكتها التي عند مؤخرتها.

قمت حينها بحيلة أخرى؛ هي أنّي ناديت ناظر المدرسة، وأريته كيفية استعمال جهاز الميكروسكوب، والنظر في شرائح العيّنات، بل؛ كيفية ضبط العدسة حتى يتحصل على صورة واضحة لبيض البلهارسيا!. وكانت سعادتي غامرة حين قام بعدها –على الفور– بتوجيه تلاميذه لإخبار أهلهم، وتحفيزهم على الحضور لإعطاء عيّنات من البول، لكي يتم فحصها. لقد نجحت الحيلة؛ ويا له من نجاح!.

خلال أسبوعي الأول في (أم روابة)، قمت بتشخيص ستين حالة إصابة بالبلهارسيا البولية. وقرّرت علاجهم –على الفور– بالعقار الجديد، الذي اكتشفه دكتور (جون كريستوفرسون): كبير الأطباء في مستشفى الخرطوم الملكي قبل خمسة أعوام. كان العلاج عبارة عن حُقن يومية من عقار الـ(انتيموني تارتاريت)، تُعطى بالوريد.

بعد أن أمضيت فترة في عيادة (أم روابة) - أحسست فيها أنّ العمل يسير على ما يرام؛ قرّرت عندئذ الانتقال ببحثي إلى الريف خارج (أم روابة). أعددنا العدّة عند الصباح الباكر لحملة ذلك اليوم، بتجهيز ثلاثة من الجمال؛ اثنان محمّلان بالأدوية والأجهزة الطبية، وثالثهما عليه أغراضي الشخصية. فيما انهمك (فضل المولى): طباخي الخاص، في تجهيز مستلزمات الأكل والشرب ووضعها على متن حماره. بعدها؛ تتقدّم القافلة الصغيرة أمامنا، ونمضي خلفها - أنا و(أحمد أفندي)، على ظهر اثنين من الخيول المحلية المنتقاة بعناية من سوق (أم روابة)، إلى حيث القرية المختارة. كنا في الطريق نتوقف بين الفينة والأخرى لمحادثة بعض الأعراب، أو لصيد بعض دجاج الوادي، أو حتى غزال برّي - أحيانًا. عند وصولنا إلى مقصدنا، عادة ما نجد جمهرة كبيرة من أهالي القرية، وهم لا يكادون يخفون دهشتهم لرؤية طبيب الحكومة الأبيض! بعض هؤلاء يحدوهم وازع الفرجة والتطفل؛ لكن الغالب منهم يطمع في الحصول على علاج أو استشارة طبية. كان المتبع أنّ شيخ القرية هو أوّل من يأخذني إلى بيته ليكرمني باحتساء القهوة، قبل أن أشرع في الروتين اليومي!.

بعد احتساء القهوة مع شيخ القرية؛ يبدأ عرض كل ليلة: (**Fun Begins**) - على نحو عيادة طبيب الأسرة في بريطانيا مع بعض الاستثناءات! حيث المشاكل الصحية الروتينية التي يعالجها طبيب العائلة هناك، مضافًا إليها ما استقريته عن أمراض المناطق المدارية المستوطنة. ثمّ إنّه بعد كل حلقة استشارية يومية، هناك عرض يقوم به بعض الأهالي؛ الذين يعيدون على أسماع البعض كل ما رأوه أو سمعوه من الطبيب - بلا أدني تحفظ!. لقد حُذّرت من اللجوء إلى أي تدخل جراحي يحتاج عناية خاصة بعد العملية؛ حتى ولو كان ذلك فتح (خرّاج) أو خياطة جرح غائر!.

يجدر القول: إنّني ومنذ الأيّام الأولى في غرب السودان، قد أصابني غير قليل من الإحباط حيال كثير من الحالات، التي تستوجب تدخلًا جراحيًا ضروريًا يلزم إجراؤه داخل مستشفى! حيث إنّ أقرب مستشفى كان على مسافة أسبوع - سيرًا على الأقدام أو على ظهور الدواب. كان الأهالي دومًا ما يطلبون الدواء، وكنت دومًا ما أحتفظ بخلطة دوائية ذات أثر نفسي كبير لدى أولئك الأهالي!.

أثناء تجوالي ذلك في ريف (أم روابة)، لم تكن لديّ خيمة أخلد فيها إلى الراحة أو النوم!. فقد كنت أقضي الليالي في بعض أكواخ شيوخ القرى، أو في الاستراحات المتسخة على طول

الطريق! تلك التي كانت دومًا مرتعًا خصيبًا للباعوض والبراغيث!.

بعد عناء كل يوم طويل - وما أكثرها تلك الأيام وما أطولها!. أذكر ذات يوم، أن قمت بالكشف على زهاء ثلاثمئة وعشرين مريضًا، جملة واحدة. كنت عادة ما أستريح من مثل هذا العناء، إلى عشاء يطبخه (فضل المولى) ويقدّمه (سعيد)!. كان (فضل المولى) دومًا ما ينجح في عمل الطعام من مخزوننا الضئيل وممّا أصيبه من صيد البر!. إذ كان الحصول على الخضروات الطازجة أو الجبن أو الزبادي، من الاستحالة بمكان!. بعد تلك الوجبات؛ كنت آوي إلى مخدعي متصفّحًا كتابًا - قبل إخلادي إلى النوم.

في أيامنا الأولى؛ حين كان عملنا الميداني لا يبعد كثيرًا عن (أم روابة)، كنت أميل إلى الرجوع إليها كل مساء، لكي أنعم بصحبة ممن التقيتهم هناك، وأستمتع بلعب (البريدج) أو (التنس)!. لكن؛ وبعد زهاء ستة أشهر من العيش لوحدي، أصبت - ذات مرة- بنوبة إسهال أعقبتها حمّى الملاريا! ممّا جعلني أشعر بكثير من الإعياء، وصرت حاد الطبع والمزاج!. كنت حينها قد أنجزت مهمتي في مسح البلهارسيا وسط السكان؛ وكانت النتيجة، أنّ حوالي 9٪ من السكان مصابون. لكنّ ما أدهشني؛ أنّ معظم الإصابات كان طفيفًا!.

كانت تقاريري الدورية تصل إلى مدير الخدمات الطبية الدكتور (أوليفر أيتكي)، الذي - وبحسب اعتقادي- أنّه ربما استشفّ عدم ارتياحي في الفترة الأخيرة من خلال تلك التقارير!. فعند عودتي إلى أم روابة في أول يونيو 1925 منهكًا متعبًا كثير الشكوي، وجدت رسالة من الرئاسة تفيد باستحقاقي إجازتي السنوية، وأنه يتوجّب عليّ العودة إلى الخرطوم! وأن أترك ما لدي من معدات وأجهزة في حوزة مفتش مركز (أم روابة)!. عند وصولي إلى الخرطوم؛ قدمت طلبًا إلى دكتور (أيتكي) - مفاده أن أزوّد بمستشفى متنقل، به ما يكفي من التجهيزات والطاقم الكامل، عند عودتي من الإجازة لزوم إكمال مهمتي في شرق كردفان.

لم يتردّد دكتور (أيتكي) في الترحيب بالفكرة! معدّدًا مزاياها وفوائدها المنظورة، وما سينجم عنها من سمعة طيبة للخدمات الطبية السودانية!. طلب مني دكتور (أيتكي) موافاته بخطة متكاملة لمشروعي المقترح، قبيل سفري إلى بريطانيا، وكلفني ذلك ثلاثة أيام حسومًا.

أول إجازة في ربوع الوطن

استقللت القطار من محطة السكك الحديدية في الخرطوم، لأعبر الجزء الأول من رحلة العودة إلى الوطن، ومعي تسعة من الموظفين البريطانيين. إنّ لك أن تتصور مدى سعادتنا ونحن نتخلص - ولو إلى حين- من لسعات الباعوض القاسية، والعواصف الترابية العاتية!. كنّا أشبه - حينها- بطلاب المدارس الداخلية في فرحتهم بالعودة إلى منازلهم، عقب منحهم الإجازة المدرسية!. أضف إلى ذلك؛ التحرّر من ربقة معاناة إيجاد فهم مشترك بينك وبين أناس، أنت بينهم غريب الوجه واليد واللسان!. لكن حين أخذنا في مناقشة إيجابيات عملنا في السودان، ألفينا أنفسنا مصمّمين على العودة بعد الإجازة، لنسهم في تدريب هؤلاء المواطنين السودانيين الرائعين والجديرين بكل محبة، لكي يصيروا يومًا أمة تحكم نفسها بنفسها.

في وادي حلفا؛ انتقلنا إلى العبّارة التي مخرت عباب النيل مرورًا بمعبد (أبو سمبل) إلى (أسوان)، حيث استقللنا القطار إلى (الأقصر)، وبعدها القطار السريع إلى (القاهرة)، ومنها إلى (الإسكندرية)؛ حيث عبرت بنا إحدى السفن الإيطالية البخارية البحر الأبيض المتوسط إلى مدينة (البندقية). لم نمكث طويلًا في تلك المدينة الساحرة؛ إذ كان علينا أن نستقل القطار السريع إلى (باريس). ذهب بقية رفاقي من هناك إلى بريطانيا عبر القطار، ثمّ العبّارة!. لكنّني اخترت أن أستقل

«(الطيران الإمبريالي الجديد) إلى (لندن). ولقد نصحني مكتب حجزهم في (باريس)، أن أقضي الليلة في (القراند هوتيل) بـ (باريس)، ثمّ أستقل باص الساعة السابعة صباحًا من هناك إلى المطار. لم أحظ بغرفة خالية في الفندق، واتبعت نصيحة موظف الاستقبال أن

أذهب إلى أحد البنسيونات القريبة من هناك لقضاء الليلة. وبالفعل؛ فقد وُفقت في الحصول على غرفة. كان على أن أقضي أمسية وليلة كاملة هناك، لوحدي. لاحظت عندها أن اسم البنسيون، هو ذات اسم الشارع.

بعد أن بدّلت ملابسي؛ دلفت إلى الحي اللاتيني في (باريس)، حيث اخترت أحد المطاعم لتناول وجبة العشاء. وبينما أنا أستمتع بوجبة الطعام الفرنسية، حاولت استذكار اسم البنسيون الذي تركت فيه متاعي، وبحثت - دون فائدة- عن الورقة التي أعطاني إيّاها موظف استقبال الـ(قراند هوتيل). لكن ولتعسي ونكسي؛ لم أعثر لها على أثر!. حينها تذكرت أنّني قد استبدلت سُترتي الأولى بأخرى غيرها، وأنّ تلك الورقة اللعينة قد تركتها هنالك!. فشرعت أسأل النادل عن اسم البنسيون الذي يماثل اسمه اسم الشارع الواقع عليه! فأجابني ضاحكًا، أنّ هنالك آلاف البنسيونات التي تحمل ذات الاسم!. لحسن حظي؛ فقد أجابني أحد الجالسين إلى الطاولة المجاورة، أن أقفل راجعًا إلى حيث الـ(قراند هوتيل)، ولسوف أظفر بالجواب الصحيح!. تلك كانت - لعمري- فكرة طيبة. الرجل الذي وجهني؛ طباخ فرنسي يعمل في أحد الفنادق الكبيرة في (لندن)، وجاء إلى (باريس) لقضاء بضعة أيام بين أهله. وسرعان ما اتفقنا على قضاء تلك الأمسية سويًا. وطفقنا نتجول في العديد من الملاهي الليلية! وانتهى بنا المطاف عند أحدها ويُسمى (رات مارت)، حيث كان بعض الراقصات يؤدّين أدوارًا لأشباح تخرج من توابيت!. ولّما دنا مطلع الفجر؛ كانت الخمر الفرنسية قد فعلت برؤوسنا الأفاعيل!. عندها قفلنا عائدين إلى الـ(قراند هوتيل). لكن؛ ويا للهول! لم يكن موظف الاستقبال من قابلت عند ظهيرة الأمس!! فعدت أجرجر أذيال الخيبة إلى عربة الأجرة التي كانت في انتظاري خارج الفندق، وطلبت من السائق أن يذهب في اتجاه أحد الشوارع - على أنه الاتجاه الصحيح. ولسعادتي الغامرة؛ فقد تمكنت من التعرف على ضالتي، ودخلت إلى البنسيون وأنا أترنح من السكر! وطلبت من موظف الاستقبال أن يوقظني عند الساعة الخامسة. وعندما استيقظت؛ كانت الساعة السابعة والنصف صباحًا!. لقد انتابني جزع شديد، حين أدركت أنني لن ألحق بالباص ولا بالطائرة المغادرة إلى (لندن)!. وذهبت بعدها غاضبًا إلى موظف الاستقبال ومحتجًا؛ لِمَ لمْ يوقظني كما طلبت منه عند الساعة الخامسة؟. لكنّه؛ - وبكل برود- أجابني: أنّ الساعة الخامسة لم تأت بعد! إذ إنّني دخلت إلى البنسيون عند الساعة السادسة صباحًا - وكانت تلك، لحظة طلبت منه ذلك!!

في المطار؛ قوبلت رواية الليلة العاصفة التي أمضيتها في (باريس) بالكثير من الضحك! ووافق مسئول الطيران الإمبريالي، على منحي تذكرة سفر للرحلة التالية إلى (لندن)!!. حين وصلت إلى هناك؛ كان ضجيج الشوارع الملأى بالحركة يبعث في النفس حبورًا! وكنت أتوق إلى اجتياز طريق الشمال العظيم، مسافرًا إلى مسقط رأسي (أبردين)!!. ذهبت للتو؛ وابتعت أول سيارة خاصّة بي! كانت تكلفتها 175 جنيهًا إسترلينيًا، ومعها ضمان شراء إلى حين انتهاء إجازتي!. السيارة كانت جديدة من طراز (كلاينو: (**Clyno**: ذات مقعدين أماميين ومقعد عريض في الخلف. كان معرض (ويمبلي) عام 1925 في أوجه. ولذا؛ فقد أبرقت والدتي أن تستقل القطار من (أبردين) إلى (لندن)، لكي نشاهد معرض (ويمبلي) سويًا، وبعدها نعود أدراجنا إلى (أبردين).

ذات صباح صيفي شددنا الرحال إلى (أسكتلندا)، وقطعنا رحلة الخمسمئة ميل إلى (أبردين) – مرورًا بالكثير من الأصدقاء في الطريق. بالطبع؛ كان كل فرد من العائلة يرغب في أخذ نصيبه من قيادة أوّل سيارة للعائلة!. وكانت حينها سعادتي غامرة أن آخذ والديّ في تلك السيارة في غدوهما والرواح طيلة فترة إجازتي؛ وكذلك الأقارب والأصحاب. لقد استمتعنا بالتجوال في ريفنا الأسكتلندي الرائع، خاصة منتجع (الدي سايد الملكي: **Deeside**).

عدت إلى (لندن) لآخذ دورة مختصرة في طب المناطق الحارة، ولأنال – كذلك– تنويرًا عن مختلف الأمراض الأقل شيوعًا في السودان وقتذاك. عقب انتهاء إجازتي؛ استقللت القطار إلى (دوفر)، ومنها عبر (المانش) إلى (أوستند) و(بروكسل) ثمّ (كولون) فـ (نورنبرج)، وأخيرًا (فيينا) – بعدها إلى ميناء (تريستي) عبورًا إلى (الإسكندرية)، وانتهاءً بـ (الخرطوم) عبر قطار الصعيد من القاهرة. ولم أنسَ أن أقضي يومًا متجولًا في وادي الملوك قرب الأقصر!.

عند وصولي إلى (الخرطوم)؛ أُخبرت أنّ شاحنة من طراز (فورد) قد سبقتني إلى (أم روابة)، ومعها مساعد طبي سوداني على درجة عالية من الخبرة، واثنان من التمرجيّة. تمّ توجيهي في (الخرطوم)؛ أنّه عند حال اكتمال تجهيزاتي، يلزمني تغطية جميع مناطق (كردفان)، عدا تخومها الشمالية، لخلوّها من البلهارسيا. كان شعوري بعدها مزيجًا من الراحة والاطمئنان؛ لاسيّما وقد صار لديّ من الرفاق ومن المؤهّلات، ما يُمكّنني من الأداء بل والعطاء بلا حدود! ووشيكًا ما تلاشي عندي ذلك الإحساس القديم بالوحدة والغربة.

الجزء الثالث

الفصل السابع

المستشفى المتنقل

كان الوقت لا يزال ليلًا والظلمة لا تزال حالكة؛ عندما رفع عني خادمي النوبي (سعيد) غطاء نومي برفق! وقرصني قرصة خفيفة في أصبع قدمي الكبير. كانت النجوم لا تزال تتلألأ، والنسيم العليل يداعب أوراق شجرة الطلح، التي كنا قد نصبنا خيمتنا تحت ظلها. كان معي زميلي (جورج) مفتش المركز – وهو شاب إنجليزي لم يتخط العشرين إلا بقليل!. بدأنا في حزم متاعنا؛ حالما أفقنا من ذلك النوم المريح الذي سعدنا به ليلتها. وبعد أن فرغنا من احتساء أكواب الشاي، لم نستغرق سوى برهات قليلات، حتى امتشق كل منا قميصه الكاكي، وشورته القصير، واحتذى حذاءه! وقد شرعنا نناقش برنامج عمل ذلك اليوم.

وسط ذلك الزخم؛ كنت تسمع همهمة رجال المخيم، وحركة الخيول وسط صهيلها، وخوار الثيران: تلك التي اضطررنا لحمل أمتعتنا واحتياجات حملتنا الطبية على ظهورها؛ لأنّها الأقدر في تلك المنطقة الموبوءة بذبابة التسي تسي! حيث الإبل هناك فريسة سهلة لمرض النوم الخطير.

في ذلك الصباح الباكر؛ انطلقنا على ما يربو على الستين ثورًا تحمل أثقالنا، تشق طريقها –لا تلوي على شيء– وسط شجيرات الطلح الكثيفة! كل واحد منها يقوده صاحبه أو أحد أقارب صاحبه – من (أم روابة) أو ما حولها. وعند شروق الشمس؛ يسرع أولئك الرجال إلى امتطاء ظهور الثيران – مع ما تحمله من متاع!.

ما أثار دهشتي واستغرابي! قدرة الواحد من تلك الثيران على حمل كمية كبيرة من المتاع – من خيام، وأسرّة نوم، وصناديق خشبية تحوي ملابسنا والكتب، وأخرى بها مختلف مؤن الطعام وأدوات الطهو، أضف إلى ذلك أثاث مكاتبنا وجميع لوازم المستشفى المتنقل: من

صناديق الأدوية، ومستلزمات الغيار، والأدوات الطبيّة - حُملت جميعها على ظهور تلك الحيوانات المدهشة!.

كان طاهي المعسكر (محمد) هو: الأضخم والأهم في ذلك الحشد من الرجال. كان (محمد) غاية في البدانة، ولكنه شخص مرح لطيف، ينتمي إلى إحدى قرى (البرابرة) على ضفاف النيل، على بعد آلاف الأميال جوار (أسوان). كان لـ«محمد» اثنان من المساعدين من صغار الصبية، يُسمّى الواحد منهم (المرمطون). كل يوم؛ بعد أن نفرغ من أكل وجبة النهار، يسرع (محمد) إلى ركوب بغلته، بعد أن يطمئن على أنّ كل محتويات مطبخه المتنقل قد رتبت بانتظام وسط متاعه. وكان في صحبة هؤلاء الطبّاخين أحد أفراد قوة البوليس المحليّة، والذي كان دليلنا في تلك الفيافي. كان الشرطي و(محمد) الطبّاخ، هما من ينسّقان لاختيار الموقع التالي لحطّ رحالنا، حيث مصادر المياه وحطب الوقود.

(محمد دفع الله) ناظر قبيلة المسيرية؛ أتى ليرافقني، عندما علم بوصول فريقنا للعمل إلى موطن قبيلته - كما يقتضي العرف السائد حينها. كان الناظر (محمد دفع الله) رجلًا فارع الطول، طاعن السن، ذا لحية وخطها الشيب وشعر رأس خفيف، وتبدو عليه سيما الذكاء والمكر!. كان من الصعب على أن أقرأ أفكاره، لاسيما أنّ الموقف كان يدعو إلى الدهشة والسخرية! حيث عزيز القوم مُظهرًا فروض الولاء للضيوف الغرباء، الذين صاروا الآن أولياء نعمته وأسياد بلاده!!.

كانت معالم محيّا ذلك الأوتوقراطي؛ تنم عمّا يعتمل في صدره ويدور في رأسه، من تلك الأفكار القديمة المرتبطة بعهد الريادة والقيادة إبّان حكم المهدية!. وعلمت فيما علمت؛ أنّ الرجل كان يمتلك الكثير من الرقيق والعبيد، وأنّه الآمر في قومه والنّاهي - ولمّا يزل!. حتى أطلّ عليه يوم، ألفى فيه نفسه على الجادة في رفقتنا نحن صغار السن والمقام!. بيد أنّنا رسل القوة التي آلت على نفسها نشر قيم العدل والحق والمساواة!!.

كان في معية الناظر (محمد دفع الله) أخوه الأصغر الشيخ (عبدالله)، وابن أخ له يدعى (عمر حسين)، وجماعة من شيوخ وكبار رجالات القبيلة، ومعهم رجال من البوليس المحلي. كان لمفتش المركز مساعد يدعى (وقيع الله أفندي): ذو بشرة داكنة السواد، سليط اللسان، ساحر الشخصية. أمّا المساعد الطبي (عبد الماجد أفندي) ذو لون أبنوسي، فينتمي إلى إحدى القبائل العربية في وسط السودان. ولم يكن ممّن يعتنون بهندامهم؛ لكنّه كان طيب القلب حلو

المعشر! ومن غريب الأمر؛ أنّه لم يكن ذا ذكاء وقّاد! لذا فكثيرًا ما يقع فريسة لتعليقات (وقيع الله أفندي) الماكرة. كان معنا قوة من رجال البوليس تتكون من عشرة أفراد بقيادة الشاويش (أحمد)، الذي كان سليم البنية سليم القلب.

كان في فريقنا أفراد آخرون؛ منهم كاتب المركز، وبعض الممرضين والخدم. كل هؤلاء، كانوا على متون رواحل ما بين ثور أو جواد؛ باستثناء مسجون كان في معيّتنا، لم يكن يسمح له بركوب أي دابة! إذ كان عليه أن يدفع دولابًا أمامه، لقياس ما قطعناه من أميال.

صباح اليوم الثاني؛ وبعد أن ألقينا التحية على جناب ناظر المسيرية وحاشيته، أسرعنا المسير حثيثًا على بسيط من الأرض يعج بالشجيرات القصيرة، ومضينا نقطع المسافات سراعًا ساعة تلو ساعة. كنا بين الحين والآخر؛ نتزاور ذات اليمين وذات الشمال عن أفرع تلك الشجيرات. وحين يداعب النعاس أجفاننا؛ كنا نصحو على دوابّنا وهنّ يجرين بنا الهيدبى، جافلات من فحيح الثعابين أو نافرات من زئير الأسود!. عند الفجر؛ أقبلت علينا جحافل من الذباب لم ندر مأتاها؛ لكنّها عكرت صفونا والدواب!. كنت بين فينة وأختها؛ أسمع نشيد الطيور وشقشقة العصافير – ترحيبًا بمقدم يوم جديد. وبين هذا وذاك؛ كنّا نسمع همهمة بعض رجال (الفريق) وسعال بعضهم، وأصواتًا أخرى من هنّا وثمّ! وحينما تعلو الشمس فجأة على أفق السماء؛ وشيكًا ما ينزاح الليل الطويل وينجلي، عن بداية يوم آخر من أيّام رحلتنا السرمدية صوب الجنوب! فنمضي مستعرضين مشاهد طبيعة ذات صيد وفير وغزلان!. فبين الفينة والفينة؛ تنزاح أطياف الصباح وأغصان الشجيرات وأعطافها، عن المسرح العامر بالظباء على اختلاف صورها وألوانها! من (الثيتل)، إلى (العريبي)، فظباء الـ(دك دك(. أو قد ينهض منتفضًا – فجأةً- من بين ثنايا الأعشاب، طاؤوس في حلة زاهية ذات ألوان مشرقة!. في ذلك الخلاء شبه الاستوائي؛ تعيش كثير من الحيوانات النادرة من مثل طائر (أبو قرن)، الذي يُعرف عند أهل السودان باسم (أبو مركوب). أمّا الطيور السوداء؛ فكانت نذير شؤم لدى القوم! والتي غالبًا ما تُرى على هيئة مجموعة من ثلاثة أطيار تسير ببطء على الأرض! فالأهالي –هناك- يعتقدون أنّها تجلب النحس! بل حتي من يراها؛ قد يصاب بـ(الجذام)!! لذا فإنّ أقرب راكب فرس ينطلق نحوها، ليجبرها على الطيران بعيدًا. وأحيانًا يطالعنا من بين الأشجار، الجديُ البري ذو الوجه المستطيل والملامح الحزينة، فتثير فينا كوامن العواطف ومرّ الشجون!.

كانت حيوانات الصيد البري تلك؛ مصدرًا غنيًا لما نطبخه من لحوم وما نأكله من شواء!. وكان (جورج) مفتش المركز الإنجليزي، يتناوب معي اقتناص ذلك الصيد بطلقة واحدة. ولم يكن ذلك يروق لأفراد طاقمنا من المسلمين، الذين كانوا دائمًا ما يفضّلون أن يذبحوا الصيد قبل أن يلفظ أنفاسه. لذا فقد كان الواحد منهم؛ سرعان ما يُهرع إلى ما اقتنصنا من صيد، لكي يقوم بذبحه على الفور مكبرًا: (الله أكبر... الله أكبر)! والدم يسيل من موضع الذبح!.

ونحن إذ نستحث الركاب ونجد في المسير، كانت الشمس تعلو إلى كبد السماء. كنت ورفيقي (جورج)؛ ننزل -بين الحين والحين- من على صهوتي فرسينا، ونمشي راجلين مسافة ميل أو ميلين، حتى نبعث النشاط والحيوية في عضلات أرجلنا، التي كانت تنكمش من طول ركوبنا على ظهور الخيل. حوالي الحادية عشرة - قبيل ظهر اليوم الأول من رحلتنا، وبعد سبع ساعات قضيناها على متون الخيل، وصلنا إلى محطتنا الأولى (آبار فاطمة)، فنصب عندها (محمد) الطاهي خيمتنا تحت شجرة من أشجار الطلح الكبيرة. وقبل أن نفرغ من احتساء أكواب الشاي الذي أعده (محمد)، كانت هنالك جمهرة كبيرة من المرضى، الذين كانوا يتوقعون - فيما يبدو- وصولنا بفارغ الصبر. ولسرعان ما شرع فريق العمل، في التجهيز ليوم حافل.

نُصبت خيام المستشفى على عجل! وحينما شرعت في الكشف على المرضى وتشخيص علاتهم، وشيكًا ما ناجزني (عبد الماجد) مهمّة غلي الحقن وتجهيز الأدوية، بينما يقوم ثنائي التمريض بتنظيم دخول المرضى فيما يشبه الصف. كانت معظم الحالات المرضية بسيطة - لا تعدو أن تكون شكاوى من الإمساك، أو الديدان، وحالات السعال، والجروح والقروح الملتهبة، وآلام العضلات والمفاصل. كنت أكتب الوصفة للمريض باللغة العربية في وريقة يأخذها إلى (عبد الماجد)، الذي يقوم بإعطائه العلاج أو توجيهه إلى الممرّض ليضمّد الجرح وعمل ما يلزم. كانت حالات الإصابة بالزهري منتشرة بين الأهالي؛ ولذا فقد كانت حقن (606) أو كما يسمى دواء الزهري في ذلك الزمان، من الفعالية بمكان في الإصابات الأولية. وكانت تلك الحقن يتعين تجهيزها بالماء المعقم، ثم نقوم بحقنها وريديًا في أذرع المصابين. وكنت كثيرًا ما أفضل أن أعطي تلك الحقن بنفسي. كنت أقصر حالات التدخل الجراحي في عملنا الميداني ذلك -فقط- على فتح الخرّاج أو خياطة الجروح. لكن؛ عندما توغلنا أكثر

ومكثنا فترة أطول، كان لزامًا عليّ القيام ببعض العمليات الجراحيّة، متى ما دعا الحال.

إنّ الغبار والطقس الحار وكثرة الذباب وعدم إلمامي بلغة الأهالي – جميعها؛ كانت تثير في نفسي الكثير من الاستياء والإحساس بعدم الراحة، زد عليها العناء والرهق والتعب من وعثاء السفر وطول الطريق!. لكن بين الحين والآخر؛ كان هنالك ما يثير فضولي ويحفزني للعمل، خاصة حينما تعترضني بعض الحالات الطبية النادرة! عندها تنقشع سحابة الكآبة، وأهرع إلى كتبي الطبية، أو ما أحمل من كاميرا، أو جهاز الفحص الميكروسكوبي، مستعينًا بها في الوصول إلى التشخيص السليم! كان ذلك؛ ما يملأ جوانحي بالحبور والغبطة والسرور. على الجانب الآخر؛ كان مفتش المركز (جورج) ومساعده (وقيع الله أفندي) وناظر المسيرية، مشغولين بالفصل في قضايا الأهالي المختلفة: من سرقة البهائم وحالات التعدي والاغتصاب والزنا؛ قبل أن يقوم الناظر بالنظر فيها والتوقيع على العقوبات. كان البعض يحكم عليه بالجلد (بالكرباج)؛ وهو عبارة عن سوط من جلد وحيد القرن! وآخرون كانوا يُحاكمون بالغرامة – إمّا عينيًّا بدفع بهائم من ضأن أو ماعز أو أبقار، أو نقديًا بدفع مبلغ من المال. والأخيرة كانت نادرًا ما تتم؛ لندرة النقود في تلك الأنحاء وقتئذ. كان من يُحكم عليه بالسجن، يقتاده جنود البوليس الذين هم تحت إمرة ناظر المسيرية.

ما سقته؛ كان مثالًا ليوم عمل عادة ما ينتهي بعد منتصف النهار. بعد ذا؛ نتناول غداءنا، ونحزم أمتعتنا، ونسرج خيولنا وثيراننا، ونشدّ الرحال –قبل الغروب– إلى المحطة التالية! حيث نختار أنسب بقعة لإقامة معسكر تلك الليلة، بعد تنظيف المكان من الشجيرات والأعشاب على هيئة دائرة نوقد في وسطها نارًا! ثمّ يقوم من بصحبتنا من القيّمين على الخيول والثيران بسقيها وعلفها: عشبًا أو غلة.

بعد نيلنا قسطًا من الراحة؛ نتفقّد دوابّنا حتى نطمئن على سلامة أجسادها. وكان فريق المعسكر من خدم ومرافقين، يصطفون – كل يوم– ليأخذوا جرعتهم الوقائية اليومية من عقار (الكينين)، الذي كان الوسيلة الوحيدة لتفادي وقوع هؤلاء فريسة لحمى الملاريا الفتاكة!. بعد ذا؛ تأتي أفضل فترات اليوم، حينما نستحم ونرتدي بيجاما النوم وأحذية الباعوض الطويلة، ثمّ نستلقي في تلك الكراسي الوثيرة لنحتسي بعض النبيذ وندخن غليون التبغ!. أحيانًا كنّا نحتسي بدل النبيذ؛ كوبًا تلو كوب من الشاي. وكان يشاركنا المجلس في بعض الأحايين؛ الناظر، و(وقيع الله أفندي): مأمور المركز، والمساعد الطبي، فنتسامر

ونتجاذب أطراف الحديث عن أمور شتّي، وعن كل ما هو طارف وتليد!. كان لدى الناظر و(وقيع الله أفندي)، مخزون ثرّ من الروايات والقصص عن التركية السابقة، وملكة نادرة في سوقها وحكيها!.

وكان (محمّد) طاهي المعسكر، مفتنًّا في إعداد الأطباق الشهية وإجادة صنعها! حيث كان يبدأنا بتقديم (حساء الفول السوداني)، ثمّ يتحفنا بعده بقطعة مشوية من لحم الظباء البريّة أو لحم الأرانب، مع شرائح البطاطا والبصل. معظم الطهاة من السودانيين ليسوا بميّالين إلى عمل التحلية، بيد أنّ أكثر ما يفضله (محمّد)، هو عمل كريم (الكاسترد) المطعّم بـ (الكراميل).

كان يحرس المعسكر ليلًا أحد أفراد البوليس الذين في صحبتنا. وكان يحرص على أن يظل مستيقظًا طوال ساعات الليل، وقائمًا على إذكاء النار الموقدة في لبّ المعسكر - بين الفينة والأخرى- بأجذال الحطب. كنت تسمع أصوات الذئاب والثعالب، التي دومًا ما تثير خوف دوابنا من خيول وبغال. لذا؛ فقد تسمع صهيلها ونشيجها - بين حين وحين!. ومع كل ذلك؛ كنت أستلقي بهدوء داخل خيمة الناموس، المشدودة بأعواد الخيزران أو قصب السكر. وكنا على عادة أن نعلّق على تلك الأعواد مرايل الجراحة! حتى وقع ذات يوم ما جعلنا نقلع عن تلك العادة!. كان أحد الأطباء البياطرة في رحلة مماثلة. وصادف أن نام، ليفاجأ بذلك الشبح الذي هو أشبه بالإنسان في الظلام!. وفي غمرة الخوف والارتياع، لجأ إلى بندقيته فأفرغ رصاصها جميعه في جوف ذلك الشبح الإنسان!. وانتهت الحكاية لينتبه إلى وجود طاقة كبيرة في ناموسيته، وبقايا مبعثرة لمريلته الجراحية!!.

استمرّ سفرنا لثلاثة أيّام أخرى، كنا نقف خلالَها عند كل موقع من مواقع المياه في تلك الأنحاء المُقفرة. وفي اليوم الرابع؛ انتهينا إلى (حزام العطش)، حيث لا ماء مسيرة يومين!. كانت تلك أيّامًا عصيبة اجتزناها بشق النفس. وبعد أسبوع من السفر عبر القفر والأرض اليباب؛ وصلنا إلى تخوم بحر العرب، حيث يلتحم عرب البقارة من المسيرية وغيرهم مع أفراد قبيلة الدينكا. وهنا؛ كانت البداية الحقيقيّة لمهمّة المستشفى المتنقّل.

الفصل الثامن

طب البداوة

كنت أول طبيب بريطاني يزور تلك المنطقة من أرض الدينكا. كانت ذاكرة الأهالي حية عن ذلك (الطبيب التركي)؛ لكنّها لم تك ذكريات سعيدة!. كان ذلك المفتش الطبي السوري مفتونًا بملكاته الجراحية، لذا فقد قام بالعديد من العمليات الجراحية الرئيسية. والنتيجة؛ كانت موت العديد من مرضاه!. وكانت إحدى ضحاياه شقيقة زعيم القبيلة، فعدت لم أستغرب الشك وعدم الثقة والخوف الذي يخالط نظرة الأهالي إليّ!. لذا؛ فقد بدأت بداية حذرة.. لكن دون جدوى!. حيث لم تتعدّ محاولاتي عمل الغيار للجروح البسيطة وشرح فوائد ملح (ابسوم): الذي يعرف في السودان بـ(الملح الإنجليزي). ولم يجد ذلك فتيلًا!!. كانت هناك -عند كل صباح- جمهرة من المرضى وذويهم حول خيمة المستشفى، ترى الفضول ملء أعينهم والترقب!. كان بينهم كثير من الأطفال الذين يعيشون تلك اللحظات؛ وكأنّها أسعد لحظات حياتهم!!. في البداية؛ كان كل شيء يجب أن يتم لإرضاء فضول ذلك الجمهور! حتّى إذا ما عبس أحد الأطفال بعد تناوله دواءً مرًّا، ضج الحاضرون بالضحك!. وإذا قمت بطعن أحد المرضى في إصبعه، لأخذ عيّنة دم وفحصها على الشريحة تحت المجهر الميكروسكوبي؛ تعالت الهمهمات! لاسيما حين أدعو بعضهم إلى النظر في عدسة المجهر!. كان الحاضرون على قناعة أنّ سماعتي الطبية، مكوّنة من قطع من قرون البقر: وموصولة أجزاؤها بأمعاء البقر!. وعندما أطلب من أحدهم ويضع السماعة ليسمع دقات قلبه، يندفع ذلك المسكين مهرولًا خارج الخيمة لا يلوي على شيء! إذ يحسب أنّ ذلك ضربًا من ضروب السحر، وأنّه قد أصابه مس من ذلك السحر!!.

يومًا بعد يوم؛ كنت أتحين الفرصة لنيل ثقتهم، مستغرقًا زمنًا طويلًا كي أشرح لأحدهم

-بمساعدة مترجم- كيف عن طريق فتحة بمبضع الجراحة، يمكنني شفاء خرّاج ممتلئ بالصديد؟ وكيف عن طريق عمل فتحة صغيرة في عين أحد المسنّين وإزالة تلك العدسة البيضاء، يمكنني أن أجعل ذلك المسكين يبصر مرة أخرى؟. كل ذلك صادف آذانًا صماء!. ثمّ إنّني لم ألجأ أبدًا إلى عمل عملية جراحية قسرًا لأحدهم، ولو كانت طارئة!. حينها؛ قرّرت اللّجوء إلى العراء، في حال أي تدخّل جراحي! فنصبت (عنقريبًا)، أي: سريرًا مصنوعًا من الخشب والحبال! كان بمثابة طاولة الكشف لدى ظلّ إحدى أشجار الطلح الوريفة. عيّنت اثنين من الصبية يساعدانني على طرد جحافل الذباب، وأنا أقوم بالكشف على مرضاي في العراء!. كنت أستثمر الوقت ومتعزيًا بكثير من الصبر، منتظرًا اللحظة الحاسمة؛ التي سرعان ما أتت!!.

الزعيم ذو البطن الكبيرة:

تأملت مليًا جمهرة من القادمين .. كانوا أربعة من المحاربين السود العراة طوال القامة، الذين يبلغ طول الواحد منهم حوالي الستة أقدام أو تزيد!. جاءوا يحملون آباءهم – وهم يتصبّبون عرقًا – على (عنقريب) مثبتة قوائمه على أكتافهم!. كان زعيم القبيلة المستلقي على (العنقريب)، غير قادر على المشي – ولو خطوة واحدة- منذ أكثر من عامين!. وبعد الكشف عليه؛ تبيّن أنّ الرجل يعاني من حالة استقساء مزمن في البطن!. عندها؛ أيقنت أنّ أمامي حالة يُمكنني أن أحرز فيها نجاحًا ملحوظًا بينًا، حتى ولو كان ذلك مؤقتًا!. إذ إنّ الشفاء من تلك العلة؛ ليس واردًا!!.

بكل هدوء؛ أوضحت لمن حولي أنّني بصدد غرز إبرة عريضة في بطن المريض، ستجعله يحس كثيرًا من الراحة ضربة لازم!. لكن ما إن وقعت عين الزعيم العجوز على منظر الإبرة الكبيرة؛ حتى صرخ جزِعًا هلِعًا!! فاندفع أبناؤه الأربعة يحملون (العنقريب) قافلين به إلى حيث الدار مرة أخرى!!. بيد أنّي أتبعتهم -على الفور- بأحد الممرضين ومعه جرعة من ملح (أبسوم): الذي وشيكًا ما أتى بالنتيجة المطلوبة! ممّا جعل زعيم القبيلة يطلب في اليوم التالي من أبنائه – رغم اعتراضهم الشديد واعتراض ساحر القبيلة- العودة به إلى الطبيب الأبيض الغريب!!.

مرة أخرى.. وبكل تأنٍ وعن قصد؛ شرحت للزعيم العجوز كيفية عملية البزل باستخدام تلك الإبرة العريضة! لكنّه ما لبث أن رفض على نحو أقل حدة من المرة الأولى!. عندها لجأت إلى إعطائه جرعة أخرى من ملح (أبسوم): ذي الأثر الفعال، الذي سريعًا ما جعله يتقيّأ إلى حد قلّت معه كميّة السوائل حول البطن!!. وفي اليوم الثالث؛ عاد مرة أخرى مريضي المتردّد! لأشرح له – وللمرّة الثالثة– ما أنا بصدد عمله. أحسست بعدها؛ أنّ الزعيم العجوز واقع تحت تأثير أسرته. لكنّه صرّح في زيارته الرابعة، أنّه يريد ليجرّب علاجي! معترفًا أنّني قدّمت له أكثر مما قدّم ساحر القبيلة من علاج على مدى عامين. غير أنّ الزعيم طلب منّي أن يكون علاجي له في العراء – على مرأى ومسمع من أفراد القبيلة! وليس في (بيت القماش) – مشيرًا إلى خيمتي! وأن يكون جميع أبنائه حاضرين!!.

كان كل شيء قد تمّ إعداده بإحكام، وقمت بعمل الاحتياط اللازم لكل احتمال، فشرعت أول ما شرعت في الكشف على القلب، ثمّ قمت بقياس ضغط دم الزعيم العجوز. وفي العراء المكشوف؛ كان الرجل مستلقيًا على (العنقريب) – مسترعيًا بطنه المنتفخ انتباه كل المشاهدين!. كان البطن الأسود اللامع يبدو وكأنّه على وشك الانفجار! مثل بالون طفل غرير!. وكان أبناؤه: فارعي القوام بائني الطول، حافّين حول جوانب (العنقريب) الأربعة؛ حاملين بأيمانهم الرماح ذوات النّصال الحادة، وملء صدورهم التوتر والترقب والوجل!!. والكل يتصبب عرقًا من وطأة حمّارة القيظ، وجحافل الذباب تدأب تزنّ في آذاننا!. كان (عبد الماجد) مساعدي الطبي: الصغير الحجم، قد اختفى! حيث شوهد وهو يصلي ويدعو الله، طالبًا منه أن يسعفنا جميعًا. وهناك – خلف المسرح– جمهرة صامتة من الأهالي، وجبين كل واحد منهم يندى بالعرق!. كان مفتش المركز (جورج)؛ قد قام – مسبقًا – بإخبار قوة البوليس المحلية على سبيل الاحتياط! لكنّهم كانوا على مبعدة منّا.

مرّة أخرى؛ قمت بالكشف على قلب الزعيم العجوز، محاذرًا ما يُحدث الصدمة! التي إذا ما وقعت، فستكون القاضية!!. أخيرًا؛ كان كل شيء على التمام والكمال. قمت بوضع مسحة من محلول اليود المطهر على الجلد حتى أسفل البطن، ثمّ قمت بإخراج إبرة (التروكار)!. عندها لاحظت أن عضلات وجوه الأبناء قد تقبّضت وتقلّصت إلى حد بعيد! ثمّ ساد صمت وسكون عظيمان!. قمت بغرز إبرة (التروكار) في بطن الزعيم العجوز وإخراجها سريعًا، فانبثقت نافورة من الماء ومعها آهة عظيمة من الحضور ذاب معها الجليد!

وطفق الحضور يُهمهمون همهمة طيور (العقعق) الأسترالية!. ولسرعان ما امتلأ جردل يسع أربعة من الجالونات – قد تمّ إفراغه أربع مرات!!. بعدها قمت بالكشف على نبض الزعيم العجوز الذي ازداد خفقانه.. فتركته ليستجمّ فترة وجيزة.

قمت بإدخال إبرة (التروكار) مرة أخرى. كان ذلك كافيًا لإعطاء مريضي تنشيطًا كافيًا، أحس بعده بعضًا من الراحة. بعد ذلك؛ طلبت من ابنيه أن يحملاه إلى داره، على أن يعودا به في اليوم التالي، لإزالة قدر آخر من سائل الاستقساء عن جوف بطنه؛ الذي بدا وقد تقلّص حجمه! بيد أنّ ثمّة ما يستوجب إزالة ما تبقّى!. في اليوم التالي تمت العملية بنجاح! في أجواء تختلف كلية عن أجواء البداية. لقد حلت الثقة وحب الاستطلاع محل الخوف والشك!!. ثمّ قمت خلال اليوم بعده بإزالة كمية أخرى، تربو على ثلاث صفائح من سائل (البروتون) المُرتشح! وأتممت مهمة ذلك اليوم، أن أعطيت مريضي زجاجة من الـ**Tonic**)، مع تعليمات واضحة بكيفية استعمال محتوياتها. وكان ذلك شرحًا عصيًا! لأنّه استوجب أن يأخذ المريض المحلول بكميات بسيطة، وعلى جرعات بالملعقة! حيث لا تحتوي بيوت قبيلة الدينكا، إلا على قليل من الأواني التي ليس من بينها الأكواب ولا الملاعق!!. وأخيرًا هبّ لنجدتنا (محمّد)؛ إذ جاء بملعقة هي من أدوات مطبخنا، ليأخذها زعيم القبيلة بكل غبطة وكل سرور!.

بعد ذلك بيومين؛ أتاني وفد زائر مختلف في هيئته عمّا كنّا ألفناه!. إذ دلف إلى (عيادة الهواء الطلق) زعيم الدينكا برفقة اثنين من أبنائه بلا حراب –هذه المرة– أو سلاح! وثلاث من زوجاته. لقد تحققت المعجزة واختفى البطن العظيم، وصار الآن في إمكان الزعيم السعي والمشي على قدميه مرة أخرى!.

استعادة الثقة:

كانت تلك نقطة تحول؛ بدأ الأهالي على أثرها يكثرون من الحضور إلى (عيادة الهواء الطلق) يطلبون العلاج! وتحديدًا يطلبون إليّ القيام بعمل الجراحة لحالات قد لا تستدعي عمل الجراحة! أو لا تتناسب – حتّى– وطبّ البداوة ذاك!. فجأة؛ صار الشعور العام مليئًا بالرضاء والقناعة، بما كنت أقوم به من تطبيب!. وعلى الرغم ممّا كان يعروني من تردّد حول

إعطاء مخدّر لعمل العمليّات على نحو مطلق، إلا أنّه كان بإمكاني إجراء كثير من العمليّات مستخدمًا بنجًا موضعيًا. وكانت تلك العمليّات، تصيب الأهالي بكثير من الدهشة والطرافة في مجتمعهم ذلك البدائي البسيط!. وإنّ لك أن تتصوّر عظيم سرورهم وحبورهم! حين تسترجع امرأة عجوز بصرها، بعد إزالة ماء العدسة المتكلّسة -الذي يعرف عند العامة في السودان بـ (الماء الأبيض)- وهي تصيح بين أقاربها: (إنّني مبصرة الآن)!! فيعاجلونها بالأسئلة التترى، عمّا إذا كانت تتعرّف وجوههم!!.

ذات يوم احتجت كثيرًا ملكة الإقناع، لكي أقوم ببتر ذراع صبية صغيرة تعرضت للدغة ثعبان سام مضت عليها أيّام!. فنتج عن ذلك حدوث (غرغرينة) في اليد والذراع، أوجبت عملية بتر لم يكن من سبيل غيرها لإنقاذ حياة تلك الصبية!. لقد كان إقناع والدها ببتر يدها عند الموضع السليم من ساعدها فوق الجزء التالف أمرًا عصيّا!. على كل، تمّت تلك العملية يومها بنجاح! وصاحبتها معجزتان، الأولى: هي القيام بعملية البتر باستخدام المنشار، ذلك كان غريبًا جدًا لدى الأهالي من الدينكا، الذين لم يروا أداة مثله من ذي قبل! لكنّه -على كل حال- أفضل عندهم من البتر بالفأس!. أمّا المعجزة الثانية: فهي أنّ عملية البتر لم يصاحبها نزول أي دم! وإن كان سبب المعجزة، هو استخدامي مادة الـ **Tourniquet**.

لم يكن هناك - بالطبع- أجر يُدفع لقاء ما كنت أقوم به من تطبيب. وكان إحساس الدينكا عظيمًا بذلك الذي يعتبرونه معروفًا كبيرًا. فكنت أجد حينًا إناء من الحليب عند مدخل سكني! أو خروفًا مربوطًا إلى جذع شجرة قريبًا من خيمتي!. كانت الرسالة جدّ واضحة لدي، أنّ القوم يريدون ليسدونني جميلًا! مثلما حدث -ذات يوم- حين خرجنا سويًا مع (جورج) مفتش المركز لصيد بعض البط في بحيرة قريبة. فلاحظنا أثناءها أنّ أحد الأهالي - وبه عرج- مضى يجمع بشق النفس ما اصطدناه! وعندما بادرته بالسؤال: (لم تتكبد كل هذا العناء؟) .. فأجاب على الفور: (أولست من ردّ إلى أمّي بصرها، وقد ظلّت عمياء حينًا من الدهر؟).

كان صيد البط متعة ورياضة، ومصدرًا لوليمة شهية نجتمع عليها متى ما راق لنا ذلك! وكان (المأمور) و(ناظر المسيرية) و(عبد الماجد) - ثلاثتهم؛ من يؤدّي مهمّة الصيد تلك بين الفينة والأخرى، بجدارة واقتدار!. وكنت أسمع بعد كل جولة همهمات النقاش، عمّن هو أكثرهم نصيبًا في صيد ذلك اليوم!. وذات يوم ادعى المأمور أنه اصطاد - وحده- ستًا

وعشرين من البط!!

بعد أسابيع قمنا بالرحيل إلى جبال النوبة؛ حيث نصبت مستشفاي المتنقل، ثمّ ما لبثت أن شرعت في علاج مرضاي. كانت تقرحات الأرجل المدارية الفظيعة المصحوبة بالآلام الممضّة من الشيوع بمكان! فهي تتطوّر إلى جروح غائرة بين أنسجة اللحم، وقد تصل أحيانًا إلى عظم الساق، أو قد تنتهي إلى حدوث حالات الجلد السرطانية!. كان الأهالي يعالجون تلك التقرحات بأوراق شجرة التبغ، التي يلصقونها بعد مضغها على تلك الجروح!. جديرٌ بالذكر؛ أنّ أوراق التبغ تلك كانت فعّالة في علاج الجروح الصغيرة! لذا فلم أنهِ أحدًا عن استخدامها!. أمّا الجروح الكبيرة؛ فقد قرّرت علاجها بطريقة مبتكرة استحدثها أحد الزملاء. لأنّ هذا النوع من الجروح؛ عادة ما يكون غائرًا، ويصاحبه التهاب حاد يُلزم تدخلًا جراحيًا لإزالة الأنسجة المهترئة والميتة. بعد عمل اللازم جراحيًا؛ كنت ألجأ إلى تلك الطريقة المبتكرة في تضميد الجرح، بضمادات غُمرت في سائل من الصمغ العربي. كان السودان هو المصدر الرئيسي لتلك الثمرة الرائعة! لاسيّما وقد حللنا عند التخوم الجنوبية لمناطق إنتاجه في سهول كردفان. لقد مثل هذا الابتكار علاجًا ناجعًا ورخيصًا في آن. كنت عادة ما أقوم بإلصاق الضماد الليّن اللّزج على الجرح. وبعد ساعة من زمان؛ يكون قد تحوّل إلى ضماد صلب! وهكذا يعطي الجرح فترة حماية كافية من الجراثيم، ويساعد على التئامه، بل والتخلّص من الآلام المبرّحة!!.

أذكر أن دلف إلى العيادة -ذات يوم- أحد أبناء النوبة وهو عارٍ كما ولدته أمه! وكان في حالة عناء شديد من عينه اليمنى، إثر حادثة أفقدته الإبصار تمامًا!. وسرعان ما تبيّن لي أنّه مصاب بحالة نسميها (**Popping Optic**) أي: (الحدقة الخارجة)، التي ينتج عنها – تلقائيًا – فقدان البصر! إذ تجحظ العين وتخرج كرتها من المحجر، وتكون عرضة للالتهاب الذي ربّما تطوّر إلى ما يهدّد حياة المريض كليًا. شرحت للمريض خطورة الوضع، وأنّه لا من بد من استئصال العين برمتها. ولسرعان ما وافق المريض! فشرعت في عمل الترتيبات اللازمة للعمليّة، حيث قمت ابتداءً بتخديره بمادة الـ (كلوروفورم). وعندما هممت بالشروع في العملية؛ إذا بي أسمع ضجيجًا خارج خيمة عيادتي ناحية الجبل المواجه للخيمة. وسرعان ما دلفت إلى خيمتي امرأة عجوز وهي تنتف شعرها! وكان من خلفها جمع من الرجال يحملون العصيّ والخناجر والحراب!. وقد بدا واضحًا أنّ شعور هؤلاء كان

عدوانيًا! وأنّهم ينوون شرًا وبيلًا بهذا الحكيم الإفرنجي!. في تلك الأثناء؛ دخل المترجم وهو يصيح قائلًا: إنّ هؤلاء القوم يريدون قتلك! فاسرع نحو جوادك واهرب!! هذه المرأة العجوز هي أمّ المريض. ولقد رأتك تقوم بإخماد أنفاس ابنها وقتله! بل وأنت الآن تشرع في تقطيع جسده!!. لم أملك غير أن أطلب إلى المترجم أن يشرح لتلك الأم العجوز، أنّ ابنها نائم من أثر التخدير! وأنّني سوف أتخلص بعد قليل من علته: تلك العين المتخثرة المريضة. كنت خلال ذلك قد شرعت في إتمام العملية؛ والحشد الهائج يقترب رويدًا رويدًا من الخيمة!. يا إلهي.. لقد أتممت العملية! وقمت على التوّ بمحاولة إيقاظ المريض من البنج. لكن كل محاولاتي باءت بالفشل!. وهنا؛ جاء (عبد الماجد) بسطل مليء بالماء، وقام بصبّه على المريض الذي وشيكًا ما انتفض جالسًا! ووقع بصره أوّل ما وقع على أمّه الثكلى وهي تندفع نحو خيمة العملية! ملقية بنفسها عند قدميه، وهي تنتحب نحيبًا مدويًا لم يخل من دموع الفرح!. كان حشد الثائرين الهائج خارج الخيمة، لا يزال يطلق صيحات الوعيد والتهديد، غير مدرك للدراما التي تمت داخل الخيمة!. قمت حينها ومعي (عبد الماجد)، بحمل الصبي من على منضدة العملية إلى خارج الخيمة. وعلى ما به من فتور وإعياء؛ لم يتركني أن أبيّن لقومه ما قد تمّ! ومضى يُعنّفهم بغلظة على سوء فهمهم!. وفي غمضة عين؛ ألقى ذلك الحشد ما كانوا يحملونه من أسلحة، وجعلوا يتصايحون وهم يرقصون!. وقبل أن نستجمع أطرافنا؛ قاموا باختطاف الصبي وحملوه على الأعناق وقفلوا به راجعين إلى أكواخهم. لم تك تلك هي الوسيلة السليمة لرعاية مريض خرج للتو من عملية جراحية. لكن؛ ولحسن الحظ، لم يؤدّ ذلك إلى مضاعفات غير محمودة!. لقد كان ما فعله ذلك الرجل الأبيض من سحر، كافيًا لإقامة احتفال مدوٍ بالطبول والغناء طيلة تلك الليلة، التي دارت فيها الكؤوس ودارت فيها الرؤوس!.

كانت تلك الحادثة بمثابة درس لي!. بعدها؛ كنت ألجأ إلى شرح كل ما أنا بصدده من جراحة وعلاج - لا للمريض وحده بل لصلته وأقاربه، لاسيّما عن أثر المخدر على المريض.

بعد تلك المأمورية التي استغرقت زهاء الأربعة أشهر وصلنا إلى نقطة البداية؛ حيث كان اللوري يقبع هناك في انتظار عودتنا. وقد خرج إلى استقبالنا شيخ المنطقة وهو من عربان البقارة.. كان رجلًا فارع الطول ذا هيبة ووقار، ما انفكّ أن حيّانا متمتمًا بكلمات ملؤها الشكر والحمد لله على سلامتنا. لكنّه لم يلبث أن قال معتذرًا: (آسف أن أقول لكم؛

إنّني لم أكن عند حسن ظنّكم بي فلم أحفظ أمانتكم! ولقد ساءني غايةً ما فشلت فيه. وحتّى هذه اللحظة، لم أتبيّن ما قد جرى!! إنّها مشيئة الله.. لقد تركت أمانتكم في رعاية أحد رجالي الأقوياء الذي لم يبرح مكانه أبدًا. ولقد عاقبت بنفسي أولئك السفلة الذين حاولوا أن يصيبوا بالرماح أرجل دابّتكم السوداء التي أشبهت لديهم أرجل الفيل!. لكن وحرمة الله؛ لقد ماتت الدّابة منذ ثلاثة أشهر ونيف! نعم إنّ دابّتكم ذات الأرجل الأربع والعيون التي تضيء ظلمة الليل، قد ماتت!!. وكنّا قبل ذا؛ قد قدّمنا لها كلأ وماءً قرّبناهما من فمها!. كنّا نفعل ذلك بكرة وعشيًا!. لكنّها عافتهما فلم تنل منهما قليلًا ولا كثيرًا!.. إنّ الله بدابّتكم الميّتة، لرؤوف رحيم!!.

قمنا بالكشف على العربة اللوري من ماركة (فورد)، ثمّ صببنا الزيت الوقود والماء. وبعد محاولات عديدة لإدارة الماكينة بـ(المنفلّة)؛ نجحنا آخر الأمر في تشغيل الموتور، وسط صيحات الحضور من عربان البقارة!.

(الحمد لله الحمد لله) – كانت تلك هي العبارة التي صدرت عن الشيخ، الذي امتلأ صدره عجبًا ودهشةً واستغرابا!!. بعدها؛ نجحنا في إقناع ذلك الشيخ بأن يأخذ أول جولة له في حياته على متن اللوري!!.

مضت سنوات طويلة؛ وقصة ذلك الوحش الذي يخلد إلى النوم لشهور طويلة ثم يصحو ويزمجر، يتردّد صداها بين الأطفال في تلك الأصقاع!. ذلك الوحش؛ الذي له عينان تضيئان بالليل مثل عيون مئات القطط الكبيرة!! ذلك الوحش؛ الذي يحمل عشرين رجلًا في جوفه ويمضي إلى أي وجهة يرغبها الرجل الأبيض!!.

الفصل التاسع

جنوب السودان

بعد عودتي من تلك التخوم الجنوبية لدارفور وكردفان على الحدود مع جنوب السودان، بادرني مدير الخدمات الطبية دكتور (أوليفر أيتكي) بالقول: (ألا تعتقد أنه قد آن الأوان لكي يكون للخدمات الطبية موضع قدم في الجنوب؟ هل بوسعك أن تضطلع بهذه المهمة؟). حتى ذلك الحين؛ كان هناك القليل من المستشفيات في جنوب السودان، تحت إشراف أطباء من سلاح الطب الملكي البريطاني، الذين يُنتدبون للعمل في الجيش المصري ثم بعدها في الخدمات الطبية بقوة دفاع السودان. كان هؤلاء الأطباء يؤدون عملًا جيدًا حسب الإمكانات البسيطة المتاحة لهم. ولكن كان هنالك تغيير متكرر لهؤلاء الأطباء؛ ولم يكن ثمّة أدنى اتجاه للتوسع في تلك الخدمات في جنوب السودان. كذلك الخدمة كانت قاصرة على نطاق محدود بين الأهالي - خاصة في مناطق انتشار مرض النوم. يضاف إلى هذا، عمل (سفينة المستشفى النهري العائم - ليدي بيكر)، والتي كانت تغطي الخدمة في المناطق حول فروع النيل الأبيض من قاعدتها في ملكال، وكانت تحت إشراف جراح بريطاني منتدب من الخدمة المدنية. قامت هذه السفينة بعمل ممتاز للحد من غلواء مرض الجدري بين الأهالي، في تلك الأصقاع والتخوم البعيدة.

كانت توجيهات دكتور (أيتكي) بسيطة ومحدّدة، كونها صادرة عن رجل دولة مرموق .. «أن اذهب إلى حيث النقطة الموبوءة بـ(الجذام) -على حدود الكونغو البلجيكي- لعمل مسح سكاني وتحديد نسبة انتشار المرض! .. أريد منك -كذلك- إنشاء مستشفى مدني في أكثر نقطة تراها مهمة، ومراكز صحية في مواضع إستراتيجية حول ذلك المستشفى، وأن تقوّم مشروعًا للحد من انتشار مرض (الجذام). ثمّ ألمح دكتور (أيتكي) إلى أن يكون عملنا بالتعاون مع أطباء السلاح الطبي البريطاني، لا أن يكون بديلًا عن عملهم! وأن نتعامل معهم

على نحو غايةً في اللياقة!.

تلك كانت تلك فرصة ذهبية لشحذ الهمّة وإلهاب العزيمة!. لقد كان جنوب السودان غير معروف لدى كثير من المسؤولين في الخرطوم. إنها أرض بدائية مأهولة بأناس بعضهم بعيد عن أسباب الحضارة، وآخرون منهم كانوا يشربون دماء الحيوانات، وفريق منهم يخلطون حليب الأبقار بأبوالها!!

وثمّة قوم قصار القامة من هؤلاء، اشتهروا بأكل لحوم الموتى من البشر ولحوم الكلاب الضالة - بذات النّهم. لقد كانت تلك الأنحاء مرتعًا خصبًا للأمراض؛ خاصة الملاريا. والرجال البيض إذ ينتهون إلى تلك الأنحاء، ربّما صاروا نهبًا لحمى البول الأسود! أو ربما غدوا مدمنين للخمور البلدية وزئرين للنساء المحليات!!. لقد انتحر كثير من هؤلاء!. وكان موظفو الخدمة من المصريين؛ يعتبرون نقلهم للعمل في تلك الأنحاء، ضربًا من العقوبات المترتبة على الحكم بالأشغال الشاقة **PenalServitude**!!

لقد كان بعض الموظفين من شمال السودان ينظرون إلى أهالي جنوب السودان نظرة دونية، ويعتبرونهم من العبيد الأرقاء، وأنّ التكليف بالعمل في تلك الأنحاء هو نوع من العقاب. لقد قامت كتابات السير (صموئيل بيكر) و(أمين باشا) وجنرال (غردون باشا)، بتحفيزي على العمل في جنوب السودان. ولقد كُتب عليّ أن أمضي (دستة) من الأعوام، حافلة بالأحداث ومليئة بالذكريات.

لقد قرّرت أوّل ما قرّرت، أن تكون قبيلة (الزاندي): تلك الموبوءة بمرض (الجذام)؛ هدفي الرئيس! ولقد تمّ توجيهي بحيث يكون مقر عملي في مدينة (يامبيو)، العاصمة الإدارية لمنطقة الزاندي. وهي تبعد نحو 1300 ميل جنوب (الخرطوم)!.

جاء التوجيه بالتبليغ لدى مفتش المركز هناك. ولم يكن هناك من كادر طبي وخدمة طبية، سوى طبيب سوري يافع، يعمل في مستشفى يتكون من كوخ من الطين معروش بالقش!. لقد استغرقت الرحلة من (الخرطوم) إلى (يامبيو) زهاء الخمسة أسابيع؛ قطعت فيها مسافة الرحلة من (الخرطوم) إلى (ملكال) عاصمة مديرية أعالي النيل، على باخرة -غاية في الفخامة- تتبع لمصلحة البريد!.

في (ملكال)؛ استقللنا باخرة صغيرة تسحب خلفها العديد من البوارج!. كانت مناطق السدود تلك الواقعة جنوب ملكال؛ هي المحك والامتحان الحقيقي في السفر إلى تلك

الأصقاع! حيث تمثل منطقة السدود على النيل الأبيض وفروعه، منطقة مستنقعات تعتبر الأكبر على مستوى العالم! بمساحة إجمالية تقدر على وجه التقريب بـ30 ألف ميل مربع، مغطّاةً بنباتات البردي وأعشاب المستنقعات والكثير من النباتات الطفيلية، مع وجود برك متقطّعة بها الكثير من الماء الراكد هنا وهناك. تتخلل هذه البرك – من مكان إلى آخر – درجات متفاوتة من طيور المستنقعات. وهناك العديد من مختلف أنواع أسماك النيل. وكل ليلة من عند غروب الشمس وحتى شروقها، يكون الجو مليئًا بأسراب الباعوض التي يطغى أزيزها على ما عداه!. وفي فترات الجفاف التي ينحسر فيها الماء عن أطراف المستنقعات، تكون تلك المناطق عامرة بالكثير من الأبقار، التي تغتنم الفرصة لرعي الحشائش وقد نمت نموًا عظيمًا.

لأيام عديدة حسبتها دهورًا! كانت سفينتنا البخارية تشق طريقها وسط أعشاب البردي، التي يبلغ طولها في بعض الأحيان زهاء العشرين قدمًا!. لم نبرح أن دخلنا إلى (بحيرة نو)، وهي اسم على مسمىً – تلك المساحة الشاسعة من المياه الزيتية المحاطة بأعشاب البردي من كل الاتجاهات! حيث لا شجرة تلوح على مدى البصر! ولا شيء سوى أعشاب البردي والنباتات المتحللة الطافية على سطح الماء!. ثم أبصرنا –مرة أخرى– باخرة مهجورة يعلوها الصدأ، يحكي مشهدها حكاية أولئك الروّاد، الذين سعوا لتحويل هذه المستنقعات إلى منطقة لاستخراج الوقود! لكن لم يحالفهم الحظ وفشلوا، ذلك أنّ المنطقة – جغرافيًا – منطقة انتحارية! فلا شجر ولا خضروات ولا لحوم ولا ألبان طازجة ولا أرض يرتاض عليها! لا شيء سوى ماء راكد آسن وجحافل من البعوض تجعل ليلك جحيمًا لا يطاق. هنالك؛ حيث الوحدة، وحيث الموت يتسلل لواذًا إلى أجساد أولئك الروّاد، الذين عاش منهم من عاش ومات منهم من مات!.

في تلك المجاهل؛ كانت وسيلة الاتصال الوحيدة هي السفينة البخارية التي تمر شهريًا، ثم مرة كل ثلاثة أشهر، حين تجعل مياه الفيضان في موسم الأمطار نهر الجور سهل الملاحة. الأهالي من القبائل النيلية في المناطق المجاورة قلما يأتون إلى منطقة السدود. لكن بين الفينة والأخرى، كنت ترى أحدهم وهو يمر سريعًا على قاربه الضيق لا يلوي على شيء!. لقد فعلت حمى البول الأسود والإدمان على الخمر والجنون، أفاعيلها في الذين ارتادوا إلى هذه المجاهل! فقضى منهم من قضى ونجا منهم من نجا، حامدًا شاكرًا سعيدًا غير نادم ولا آسف على مغامرته المجنونة تلك!.

كان (الريّس) أو قبطان السفينة رجلًا شماليًا من الأعراب ذا لحية وخطها الشيب. كان يقود السفينة بمهارة اكتسبها من أسفار كثيرة ومن خبرة تراكمت عبر السنين!. مضى (الريّس) يقود بنا الباخرة بين أعشاب السدود من ذات اليمين وذات اليسار - مصطدمًا بأعشاب البردي بين الفينة والأخرى؛ واضعًا البارجات الخمس أمام السفينة البخارية، ممّا ساعد على شق الطريق وسط أعشاب السدود!. كان المهندسون البريطانيون المسئولون عن تلك البواخر النيلية، على درجة عالية من قوة الشكيمة والخبرة والمهارة، لكنّهم كانوا جدّ سعداء أن يكون النهر صالحًا -فقط- للملاحة خلال ثلاثة أشهر من العام!. كانت مهمة الجميع دومًا عسيرة؛ إذ تصطدم الباخرة بالشاطئ على نهر (الجور). وبعد أن يتم تخليصها لمسافة يارادات عدّة، تصطدم مرة أخرى بالشاطئ! وهكذا تارة بعد تارة. كان أولئك البحارة من أهل شمال السودان، قومًا ذوي دراية ومهارة. ومعظم أولئك ينحدر من القبائل التي تعيش على الحدود الشمالية مع مصر.

كان نهر (الجور) مرتعًا خصبًا لمختلف أنواع الأسماك التي تعيش وتتكاثر في نهر النيل وفروعه. وكانت حركة الباخرة وهي في مسارها الضيق، كثيرًا ما تزعج الأسماك التي تندفع في الهواء فتسقط على سطح البارجة!. كان ذلك بمثابة لحم طازج نفتأ نحمد الله كثيرًا على أن ساقه إلينا.

لدى أوّل خروجنا من نهر (الجور) الضيّق إلى المجرى الرئيسي للنيل الأبيض، وصلنا أوّل محطة بعد (ملكال) تُسمى (عين ونك)، وهي عبارة عن نصف دستة من الأكواخ المبنية من الأشجار ومتجر لأحد التجار الأغاريق!. وكنت تبصر على طرف المحطة أحد أفراد قبيلة الدينكا العراة متكئًا على رمحه، وواقفًا على رجل واحدة، وجاعلًا قدم الأخرى على الركبة المقابلة!. كانوا دومًا يراقبون الباخرة بكثير من الفضول وقليل من المشاعر التي لا يبدونها لأيٍ من كان!. كنا نملك الكثير من حطب الوقود اللازم لتسيير الموتور البخاري. وكنت تسمع أصوات الرجال وهم يحملون تلك الجذوع من الحطب وينشدون الأناشيد ويهمهمون. وسط ذلك؛ كانت ترتفع صياحات من هنا وهناك، لكنّ ذلك الصخب المزعج عرضة لأن ينقطع فجأة مع ارتباك الحركة، حين يظهر الأسد: ملك الغابة، محاولًا شق طريقه بين أشجار الشاطئ!.

كانت محطتي الأخيرة: (مشرع الرق)، وكلمة (مشرع) أصلها عربي، وتعني: المرفأ أو

الميناء. في ذلك المكان، أبصرت استراحة ذات سقف مُموّج تبدو مهجورة، وخلفها متجران لبعض التجار الأغاريق، ثمّ مركز البوليس فالشفخانة، انتهاءً بسلسلة من الأكواخ المبنية من الطين وأغصان الشجر!. لقد وصلت الباخرة مع الغروب. وما إن أرخى الليل سدوله حتّى أقبل معه أزيز مزعج! لقد انتفضت جحافل البعوض من مرقدها؛ بعضها كبير الحجم قاسي اللسع، والآخر صغير الحجم كثير الإزعاج! وهي زرافات تلو زرافات تحط على كل مكان من الجسم، لا تفرّق ما بين الوجه والأيدي، وقد تدخل إلى تجاويف الأذنين والأنف والعينين، وحتى إلى ما دون البنطال وأسفل القميص من أَمَم! بل قد تقتحم تلك الجموع إلى فمك؛ إن أنت فتحته ساهيًا أو عن بلاهة!.

هرعت إلى (الاستراحة)؛ ودلفت خلال الباب المزدوج المغطى بخيوط رفيعة من أسلاك الحديد بصورة مزدوجة – كحاجز من دخول الحشرات!. وفي هذه الأثناء؛ ظهر فجأة صبي أسود، هو: ابن حارس الاستراحة، حاملًا في يده (مِنشّة) البعوض. ثمّ ما لبث الصبي أن بدأ في مهاجمة البعوض، الذي بدأت جحافله في مهاجمتي من جديد!. بعدها قام الصبي بإخراج مِضخّة يدوية مليئة بزيت (البرافين)، وطفق يرش الهواء بطبقة كثيفة منه لقتل البعوض. شرعنا سويًا بعد ذا؛ في البحث عن الفتحات غير المرئية في حاجز البعوض الحديدي، وقمنا بإلصاق ضماد ضاغط لسدّها ومنع البعوض من الدخول إلى الغرفة – ألبتّة. عقب ذلك؛ إخراج حذاء المشمع البنيّ الطويل، وأنزلت أكمام القميص وقفلت أزرارها عند الرسغين. عندها بدأت زخّات العرق تندّي جبيني وتسيل أسفل جسمي!. في هذه الأثناء؛ بدأت مجموعة جديدة من البعوض الدوران حول رأسي! وهنا بدأت معركة جديدة سلاحها مضرب الأسكواش الذي يبدو أن أحد المسافرين قد تركه في الاستراحة. وبدأت في الدوران! ولحسن حظّي أتى (محمد) بكل أغطيتي. ومثل الـ **Conjuror** قمت بإخراج زجاجة (الويسكي)، وصببت منها كأسًا أضفت إليه كمية من الماء قمت باحتسائها، لكي أعوض ما افتقدته من سوائل!.

في ذات الليلة؛ أتى مفتش المركز الكابتن (ريتشاردز) لاستقبالي، بعد أن قطع مسافة مقدرة من مقرّه للترحيب بي. وهنا؛ أحب أن أذكر أنّني كنت أحمل تقديرًا خاصًا لمفتشي المراكز من البريطانيين الذين عملوا في جنوب السودان. إذ كان هؤلاء الرجال من ضباط الجيش السابقين، لا كمثل رصفائهم في شمال السودان من خريجي أكسفورد أو كامبردج. كانوا من الرجال الذين لهم سجل خدمة مشرّف في الجيش، ورغبة صادقة في خدمة تلك القبائل

البدائية في جنوب السودان. لقد كان نظام الإدارة المباشرة يعطيهم صلاحيات هي أقرب إلى سلطة الدكتاتوريّين! فتلك مسؤوليتهم في أن يشرفوا على كل شؤون الحكم والإدارة، في المناطق الواقعة تحت إدارتهم. لقد كانت مهمة تصعب على الحصر وليس لها نهاية!. فعلى سبيل المثال؛ كان عليهم تنفيذ القانون، وإقامة دولة العدل، وجباية الضرائب، ورقابة عمل الشرطة والسجون، والإشراف على نظام التعليم والزراعة والغابات، والتعاون مع الأطباء حين حدوث الأوبئة، والإشراف على الطرق والكباري، والعمل على صيانتها عند حدوث الفيضانات، وتنظيم الخدمة البيطرية، وحل النزاعات القبلية، وإصدار التصاريح للزواج، وتسجيل المواليد والوفيات، وإصدار مختلف التصاريح والأذونات، ثمّ إصدار تصاريح المباني ومختلف الخدمات، والعمل على صيانة أمن ورفاهية المواطنين. إنّها مهمة عظيمة لرجال عظماء، وفرصة ذهبية لكي يثبتوا صلابة معدنهم وكفاءتهم. كان السودان –حقًا – محظوظًا باجتذاب العديد من رجال الخدمة الأكفاء والممتازين، الذين رغمًا عن سوء المناخ وظروف العمل الشاقة والعزوبيّة والوَحَدَة – حيث لا رفيق ولا أنيس ولا صديق؛ ندر ما تجاوز أو أساء أحد منهم – فيما عاينت وشاهدت– استخدام الصلاحيات الممنوحة له!!. وإذا ما صادف أن حاد أحدهم عن الجادة؛ فإنه غالبًا ما يكون استثناءً يضاف إلى الشواذ من القاعدة العامة العريضة: تلك التي كانت دائمًا مضرب المثل في التفاني والإخلاص!!.

وفي مجال الإسهام في الخدمة الطبية، فقد كان هؤلاء الإداريون ذوي اقتدار عال على التخطيط لبناء المستوصفات والمراكز الصحية في الأماكن المناسبة، وعلى اختيار أفراد الكادر السليم من بين الأهالي، لكي يتدربوا للعمل في وظائف المساعدين الطبيّين، وكذلك أفراد الطاقم المساعد للأطباء، للاضطلاع بمهامّهم في تلك المراكز على الوجه الأكمل.

في الليلة الأولى من وصولي إلى (مشرع الرق)، جلست وكابتن (رتيشادرز) نحتسى النبيذ، وإذا بمجموعة من أفراد الدينكا العراة ذوي الأجساد المدهونة بالرمال اتقاء البعوض، أتوا يخبروننا عن رتل من الأفيال قد شوهد على بعد أميال قليلة من الاستراحة! فلم نلبث أن قررنا الذهاب إلى حيث الأفيال، لكي نضمن كمية معتبرة من لحومها! ولكي أستمتع بأوّل محاولة لي في صيد الفيلة. لدى أوّل بزوغ الفجر؛ أتانا أفراد قبيلة الدينكا على زوارقهم الضيقة، لنشدّ الرحال إلى منطقة الأعشاب الطويلة، حيث ترعى الأفيال. وبعد مسيرة ساعة؛ اتخذنا مواقعنا عند أحد جبال النمل ليس بعيدًا عن موقع الأفيال، ترقّبًا للحظة الحاسمة.

أبصرت مجموعة من الأفيال فتخيّرت فريستي من بينها. كان من الضروري؛ أن أتجنّب صيد أي فيل ذي نابين يزنان أقل من ستين رطلًا وصيد أي أنثى - حسب قانون صيد الأفيال!. وبينا نحن كذلك؛ أشار دليلي كابتن (ريتشاردز) إلى أحد الفيلة، فاخترت - بعناية- موضعًا يصيب فريستي في مقتل! وحين جاءت اللحظة الحاسمة؛ سدّدت طلقاتي من بندقية (زغبي ماغنم) - مباشرةً- نحو قلب ذكر الفيلة، الذي هوى إلى الأرض! فيما رأيت فيلين من رهطه يدوران حوله؛ وهما يحاولان إقالة عثرته وإيقافه على أقدامه، ولكن دون جدوى!. عندها قام أفراد الدينكا بتغطية الفريسة بالكثير من الأعشاب وأغصان الشجر، حفظًا لها من الذئاب والثعالب! إذ كانت تعليمات زعيم المجموعة، أن لحم الفريسة سيكون من نصيب زعيم القبيلة المحلي، الذي سوف يشرف على توزيع نصيب كل فرد. توجه أفراد المجموعة بخطىً أثقلها إعياء المسير عائدين إلى (مشرع الرق)، فيما نحن نعاني عذاب لسعات البعوض!.

من (مشرع الرق)، تعرّج بنا الطريق مسافة مئة ميل وسط أحراش غير مأهولة، نحو مدينة (واو): عاصمة مديرية بحر الغزال، تلك التي حطّ عندها الجنرال الفرنسي (مارشاند) رحاله، بعد أن عبر إليها من غرب إفريقيا محمّلًا بالقوارب الفولاذية، التي تمّ تركيبها للإبحار بها أسفل نهر الجور وصولًا إلى نهر النيل، ثمّ الاتجاه بها شمالًا لإقامة معسكره في (فشودة) عام 1899!. لقد انطلق خبر وصول القوة الفرنسية إلى قلب إفريقيا انطلاق النار في الهشيم! ووصل إلى أسماع الجنرال (كتشنر) الذي كان لتوّه في (الخرطوم)، عقب انتصاره في معركة (كرري) على جيوش المهدية. مضى (كتشنر) منزعجًا في قوة من جيشه مبحرًا جنوب النيل الأبيض إلى حيث أقام (مارشاند). وبدأت جولة من المحادثات بين القائدين. وكانت نذر حرب بين فرنسا وبريطانيا العظمى على وشك أن يذكى أوارها! لولا أن تغلبت الحكمة الدبلوماسية على العصبية القومية، وتم نزع فتيل كاد أن يشتعل، وانسحب القائد الفرنسي عائدًا إلى الكونغو الفرنسي.

من مدينة (واو)؛ كان عليّ أن أقطع حوالي المئتي ميل جنوبًا صوب الحدود مع الكونغو البلجيكي، ثم نحو الشرق إلى عاصمة الزاندي أو ما تعرف بقبيلة (النيام نيام). كان أول من التقاني العقيد (لاركن) مفتش المنطقة، والذي أمضى زهاء الاثنين وعشرين عامًا في تلك الأصقاع! وهو رجل جذاب خجول كريم مضياف، كان يحب قومه الجدد -ربما أكثر- الذين هم من بني جلدته. بادرني (لاركن) بالترحيب - مشدّدًا على أهمية وجود من يقوم بعلاج

أهالي إدارته، رغم تفضيله عدم تدخل إداريي الشمال في عمله.

قبل سنوات؛ قام العقيد (لاركن) بإقامة نقاط يبعد بعضها عن بعض حوالي خمسة أميال، حيث يقوم الأهالي عندها بقرع الطبول، تنبيهًا له على القادمين إلى إدارته والمسافرين عبرها!. ولقد كانت نقاط قرع الطبول من الفائدة بمكان، حيث كان السفر عبر أرض (الزاندي)، يتم فقط على الدرّاجات أو سيرًا على الأقدام! لكن مع مجيء التلغراف ودخول العربات، لم يعد لتلك الطبول دور يذكر! بيد أنّي عدت؛ فاستخدمتها لأداء وظيفة عظيمة في مستعمرة (الجذام) التي شيّدتها في (يامبيو)، حيث يستدعي دويّها العاملين في المستعمرة أوّل الصباح، ويصرفهم آخر النهار!.

نصحني (لاركن) بعمل مسح شامل لسكان (الزاندي)؛ وأردف - أنّ فائدة ذلك، لن تنحصر في معرفة مدى انتشار (الجذام) ومرض النوم، بل تشمل معرفة الأمراض الأخرى، والإلمام بأحوال المنطقة والوقوف عند مشاكلها، مما يساعد على الإسهام في حلها! ثمّ أضاف قائلًا: «إنّها ستكون فرصة لتعرّف القبيلة عليك!».. كان ذلك الخاطر حين ينتابني، يثير القلق بين جوانحي! ذلك أنّ خيطًا رفيعًا يفصل بين نجاحي في مهمتي والفشل! وكان اعتمادي -كل اعتمادي- على الانطباع الأوّل لدى الأهالي عنّي وعن طريقتي في التعامل!.

في منزل (لاركن) الصغير؛ شرع كلانا في وضع الخطة لعمل مسح للمنطقة، التي يقارب تعداد سكانها حوالي المئة ألف نسمة أو يزيدون، وتبلغ مساحتها حوالي الاثني عشر ألف ميل مربع. قام (لاركن) بإرسال مناديب إلى زعماء المنطقة، لإخطارهم بمهمتي، وتوجيههم بأن يقدّموا لي كل مساعدة ممكنة، حين يتطلب الأمر إحضار المرضى للكشف عليهم. كانت فرصة عظيمة؛ أن تقوم بتحديد مدى الأمراض، في مجتمع كان يعتمد -كليًا - على السحرة في التداوي والتطبّب!

فيما بعد؛ وبقليل من تقليب الفكر، حسبت أنّ ما أنجزته ربّما تمّ بصورة أفضل، إن كان لديّ إمكانات أكثر! أو كان في معيّتي مساعد طبي! لقد كنت وحدي أقاسي الأمرين بين قوم غرباء عنّي، أجهل لغتهم وكيفية التعامل مع عاداتهم وثقافاتهم. كنت حريصًا على ألا أسبب حرجًا لهم في معتقداتهم. وخلال أسبوع من وصولي إلى (يامبيو)، كان كل ما احتجته من معدّات ورجال لعمل المسح الطبي، قد صار جاهزًا تحت تصرّفي! وبمساعدة (محمّد) و(أحمد)؛ بدأت مهمتي.

الفصل العاشر

إنشاء مستوطنة (الجذام)

بعد أربعة أشهر من العمل الشاق، أتممت الكشف على حوالي الستين ألفًا من الرجال والنساء والأطفال. وتم تشخيص ألف وخمسمائة وست وخمسين حالة إصابة بـ (الجذام)!. وبعد أن بلغ بي الإجهاد مبلغه، جرّاء العيش في أكواخ القش، وأكل طعام واحد رتيب متكرر آناء الليل والنهار! لم يفلح (محمّد) الطباخ الماهر في جعله مستساغًا! قرّرت الاكتفاء بما لديّ من المرضى والشروع فورًا في علاجهم والاهتمام بهم. ثمة سبب آخر حملني على القرار بوقف المسح - رغم أنّ ثلث السكان لم يتم الكشف عليهم بعد- وهو تغير سلوك المواطنين حيال ما أقوم به من عمل! إذ تبيّن لي أنّ خوفًا صادقًا نشأ عند هؤلاء، بعدما شاهدوا نقلي المصابين للعلاج بعيدًا عن قراهم! ولقد كانوا مُحقّين في ذلك.

تدريجيًا؛ بدأ عدد الحالات التي تعاني من (الجذام) في الانحسار. فاكتشفت -عندئذ- أنّ سحرة القبيلة كانوا يقومون بإخفاء القوم المصابين بعيدًا وسط الأحراش! حيث عزل أولئك وإبعادهم عن ذويهم لعلاجهم، أمر غير مرضي عنه من الجميع!.

لقد كانت مهمة صعبة أن أنشئ مستعمرة[1] لـ(الجذام)[2] تكون جاذبة للسكان. وتطلّب الأمر؛ أن يكون المقر هو الأفضل بين قرى الزاندي!.. لقد نجحت الفكرة؛ إذ ادّعى عدد معتبر من الأهالي الإصابة بالمرض، حبًا في الانضام إلى سكان المستعمرة الجديدة!. عدت بعدها إلى (يامبيو) حيث الرفقة الطيبة مع المفتش (لاركن)، والمسكن المريح، وأطايب الطعام

(1) المترجم: استُعملت كلمتا (مستعمرة ومستوطنة) (الجذام)، على عهد الإدارة الطبية البريطانية في السودان، في معنى المكان الذي يجمع فيه مرضى (الجذام) في مكان واحد لعلاجهم. راجع أيضاً كتاب (ويليام بايام) عن أول مستعمرة (جذام) أنشئت في (القلابات) بمنطقة القضارف عام 1908

(2) William Byam, The Road to Harley Street, Geoffrey Bles, London 1963

والشراب. سويًا؛ حسبنا أنّ عدد المؤهلين للدخول إلى مستعمرة (الجذام) من المرضى وذويهم، زهاء الأربعة آلاف نفس. لقد كان ذلك التقدير خاطئًا! إذ وصل ذلك الرقم في فترة لاحقة إلى حدود الخمسة آلاف شخص. لقد رأى المفتش (لاركن) أنّه أضحى من الأهمية بمكان، أن يكون لزعماء العشائر دور في إدارة المستعمرة! وهو الإشراف على رعاياهم بطريقة غير مباشرة، عن طريق تعيين ممثلين لهم من بين المرضى. لقد كانت تلك الخطوة موفقة. إذ جعلت هؤلاء الزعماء أكثر ارتباطًا وحرصًا على سير المستعمرة بطريقة جيدة. الأمر الذي سهّل من صعوبة تتبع من يتخلفون عن المستعمرة، والتعامل مع الكثير من المشاكل الاجتماعية والعاطفية، التي تطرأ بين الفينة والأخرى على سكان المستعمرة.

بعد الفراغ من سبر غور تلك الأمور الإدارية المهمة، انصب جهدنا في إيجاد منطقة مناسبة غير مأهولة، وعلى مقربة من (يامبيو)، وبها مصادر كافية للمياه، لاسيما وأنّه قد تقرر أن يكون المستشفى المزمع إنشاؤه ضمن الحيز الجغرافي للمستعمرة. وبعد دراسة كل الاحتمالات الجغرافية المناسبة، وبعون لا غنى عنه من المفتش (لاركن) الخبير بالمنطقة وتفاصيلها، وقع الاختيار على ثلاثة أماكن، يتم اختيار أفضلها بعد معاينتها جغرافيًا. وعلى الفور شرعت في تنفيذ تلك المهمة على قدم وساق، وفي معيّتي رهط من أهالي الزاندي وستة حمالين، إلى جانب رفيقيّ: المساعد الطبيّ (أحمد) وطبّاخي الخاص (محمد).

بدأنا جولاتنا سيرًا على الأقدام متفقدين المناطق الثلاث على الطبيعة. وأنا على ذلك؛ انتابني إحساس من هو في إجازة، لا إحساس من هو في مهمة الكشف على ملأ من الأهالي!. تُرى وقد خصّصت لكل منطقة من المناطق الثلاث أيامًا ثلاثة. وانصب اهتمامنا وجل تركيزنا على مصادر المياه من ينابيع وأنهار، مع تحرّي غابات قريبة نستعين بأخشابها في عمليّات البناء. كما وضعنا في الاعتبار وجود مساحات مناسبة للزراعة حول المكان المقترح. وبعد إجراء مشاورات مع (لاركن)، وقع الاختيار على أحد المواقع، والذي أطلقنا عليه اسم المستعمرة الجديدة وهي: (لي رانجو). وكانت كلمة (لي: (**Li** إحدى كلمات التعريف في لغة الزاندي، وتعني (رأس) أو (مصدر). و(رانجو: **Rangu**)؛ هو ذلك النهر الصغير الذي ينبع من هضبة غرانيتية في وسط تلك المنطقة.

تبعد (لي رانجو) حوالي الثمانية عشر ميلًا من مدينة (يامبيو)، والمساحة الكلية للمستعمرة كانت حوالي الثلاثين ميلًا مربعًا، حيث تم تحديدها ووضع علامات لها على الخريطة، فامتلأت

بذلك نفوسنا غبطةً وسرورًا.

بعد أيام قليلة؛ بعثنا رتلًا من الحراس لقطع الأخشاب وبناء بعض أكواخ القش، لتكون سكنًا مؤقتًا. كان أحدها ما اتخذته مسكنًا ومكتبًا، شهورًا عدة. وذات يوم مشمس من أيّام شهر فبراير – كنت قد اخترت له فيما بعد اصطلاحًا اسم (يوم المؤسس)– شددت الرحال إلى (لي رانجو) على متن عربتي (الستروين)؛ خلف مئة وعشرة من الحمّالين، على رأس كل واحد منهم ما بين الستين إلى الثمانين رطلًا من الأحمال. كانوا يحملون كل ما نحتاجه من المعدات والمؤن والأدوية وأدوات الجراحة. بعد حوالي عشرة أميال، كان من العسير أن تواصل عربتي المسير! لذا؛ فقد تركتها تحت إحدى أشجار المهوقني، وواصلت مسيري على الأقدام. عُرفت لتلك الشجرة –فيما بعد– عند الأهالي بـ(ميتي موتور كاري)، وتعني عندهم (شجرة العربة). بعد وصولنا إلى المستعمرة؛ قمت باختيار أحد الأكواخ مسكنًا لي ومكتبًا – كما أسلفت، وآخر مطبخًا لرفيقيّ الشماليّيْن: (أحمد ومحمد).

كانت أولى مهمّاتي؛ التواصل مع العالم الخارجي. لذا؛ فقد شرعت في تعبيد الطريق الذي يصلنا بـ(يامبيو). أنفقت أيامًا عدة أجوب الأحراش مستعينًا ببوصلتي. وبذلت ما في وسعي لتجنّب الأنهار والخيران. لكنّي اضطُررت آخر الأمر، إلى بناء أربعة كبارٍ على ذلك الطريق. قام مفتش المركز (لاركن)، بتسهيل توظيف الكثير من العمال بأجر متوسط؛ في حدود (قرش) واحد – يوميًا – لكل عامل. وسرعان ما شرع هذا الجيش الجديد، في قطع الأشجار وتسوية الأرض الزراعية، وتكملة تعبيد الطريق. قمت في تلك الفترة بعمل المسح اللازم لمنطقة الهضبة، ثمّ قمت –فيما بعد– ببناء المستشفى والمخازن وسكن الموظفين، وغيرها من المباني.

تمّ تقسيم العمال إلى مجموعات؛ اضطلعت كل مجموعة بمهمّة معينة – إحداها تقوم بتجهيز طوب البناء، وأخرى مهمتها تسوية الأرض، وثالثة تقوم بتجهيز حدائق الزهور والفواكه. كذلك؛ قام كل زعيم من زعماء القبائل بإرسال مئة رجل من رجاله بشكل دوري. حيث تقوم تلك المجموعة بالعمل اليومي في المستعمرة مدّة أسبوع، على أن يتمّ تغييرها عند نهايته بمجموعة أخرى، وهكذا. أذكر أنّ بعضًا من أولئك العمّال صاروا ميّالين إلى مواصلة العمل في المستعمرة؛ ذلك أنّ ما يجنونه من أجر كان مجزيًا!. وهكذا توافر لدينا العدد الكافي من العمّال لتغطية كل ما نحتاجه.

حفظ الحسابات المالية وتنظيمها، لم يكن مما أجيده في يوم من الأيام. لكنّني أدركت صعوبة

ترتيب الحسابات وحفظها، عندما احتملت عبء إنشاء مستعمرة بحالها! وتبيّن لي استحالة الاضطلاع بمسؤولية الحسابات - تلك الجسيمة، دون وجود كاتب أو محاسب متفرغ للقيام بها!.

لقد تمّ منحي -ابتداءً- خمسمئة جنيه لإنشاء المستشفى، ثمّ خمسمئة جنية أخرى لإنشاء منزل لي. لم أستطع أن أفهم؛ كيف تكون قيمة إنشاء منزل لي مماثلة لقيمة إنشاء مستشفى بحاله؟. لم تصلني أي إرشادات أو توجيهات بشأن بناء الأخير، ما حجمه؟ وكم عدد المرضى الذين يفترض أن يخدمهم؟. كل ما تلقيته كان مبهمًا! لقد تُرك لي كل شيء، كي أتصرف فيه بحرية رجل الدولة في موقع المسؤولية. لكن كان هناك استثناء واحد، هو إرسال الحسابات - شهريًا - إلى الرئاسة، ومن صورتين.

لم يكن كوخ القش وما حوى من تربيزة الرحلات الخشبية ومصباح الزيت المتدلي من السقف؛ مكتبًا مثاليًا - ضربة لازم!. لقد كانت قطع القش والزبالة تتساقط من السقف مـرارًا!. وعند إضاءتي المصباح الزيتي حين أمسي، كانت تتدافع مقتتلةً نحوه جحافل الحشرات وجيوش الهوام الطائرة، ما بين مكتوٍ بوهجه أو منتحر!. وكان يقطع عليّ خلوتي بين الفينة وأختها، من يقوم باستبدال المصباح الذي أمسى مقبرة للحشرات بآخر غيره!. لقد كانت آلتي الكاتبة الصغيرة، خير مُعين لي على طباعة وترتيب ما أحتاج أن أبعثه إلى الرئاسة من الحسابات والمراسلات؛ حتى قامت مجموعة من النمل الأبيض -ذات يوم- بالتهام كل تلك المستندات! لكن؛ ربّما كانت تلك واحدة من المرّات القليلة، التي قبل فيها المسؤولون في الخرطوم اعتذاري لعدم إرسال حسابات المستشفى!.

لقد كان بناء المستشفى وبقية مباني المستعمرة يستلزم موادّ جيدة كالطوب الأحمر، لا تتوافر في ذلك المكان القصي. ولقد كنت محظوظًا أن مررت قرب كنيسة في (يامبيو) بنيت بالطوب الأحمر. وكان مهندس ذلك العمل، أحد المبشرين ويدعى الأب (كانون قور). لقد قام الأب (قور) بتدريب مجموعة من تلاميذ الإرسالية على صنع الطوب الأحمر. وممّا أوجب امتناني لذلك المبشر؛ هو إرساله اثنين من أولئك التلاميذ إلى المستعمرة، للمساعدة في تجهيز الطوب الأحمر، وتدريب بعض العمال لديّ لإنجاز تلك المهمة!. كان من المثير لديّ؛ معرفة أنّ الموادّ الخامّ المستخدمة في صنع الطوب الأحمر، عادةً ما تؤخذ من التراب الأحمر، الموجود - بكثرة- في جبال النمل الأبيض المنتشرة في أرض الزاندي!. لقد كان يومًا مشهودًا؛ يوم أتممنا

تجهيز الطوب اللازم لمشروع المستعمرة!. هذا؛ ومن الطريف أنّ أفراد قبيلة الزاندي، يستغلون فرصة خروج ذلك النمل الأبيض من حتوف تلك الجبال الحمراء عند فصل هطول الأمطار، فيقومون بإشعال النار أسفل تلك الجبال الصغيرة، وسرعان ما تسرع جحافل النمل الأبيض نحو لهيب النار، ملاقيةً حتفها! حينئذ تقوم نسوة القبيلة بجمع النمل الميت في أواني عشبية وإعداده للأكل، بوصفه غذاءً رئيسيًا ومصدرًا غنيًا بالبروتين الحيواني، لأولئك القوم الذين تنتشر في أرضهم ذبابة (التيسي تيسي)، التي يصعب مع وجودها عيش الحيوانات في تلك المنطقة!. ونحن على ذلك؛ إذ ظهر من أهالي الزاندي من يدعي ملكية هذا الجبل أو ذاك؛ من تلك الجبيلات متناهية الصِغر!. عندها؛ لم يكن ثمّة بدٌ من شراء تلك الجبيلات من أصحابها، وبقيمة ناهزت الخمسة وعشرين جنيهًا للجبيل الواحد!. كان لا بد من إيجاد بند في حساباتي كي أضيف إليه تلك القيمة. لكن وضعتها آخر الأمر تحت بند (علف البهائم) في المستعمرة.

بذلت جهدًا عظيمًا في بناء مستعمرة (الجذام). لم تمض سوى أيّام قليلة؛ حتّى نهض العمل على قدم وساق!. لقد قام أفراد قبيلة الزاندي بعمل طيّب في إنشاء الأكواخ والمستشفى وبقية المباني؛ ولسرعان ما بدا لي منهم كريم الخصال، مع سرعة استيعابهم للعمل، وإتقانهم له، وحسن اضطلاعهم به!. ولمّ تنقض بضعة أسابيع؛ إلا وكانت أكواخ المستعمرة مأهولة بمرضى (الجذام) وأسرهم!.

هناك حادثة طريفة حدثت ذات مساء، بعد أسابيع من اكتمال المستعمرة؛ إذ انتويت المرور على الأكواخ كي أتفقد ساكنيها. ولجزعي الشديد؛ لاحظت أن الأكواخ جميعها واحدًا تلو الآخر كانت خاوية من قاطنيها، وأحسست قلبي يتداعى بين أضلعي! فحسبت ساعتها أن هؤلاء البؤساء قد قرروا الهروب من المستعمرة. وبينما أنا في غمرة شكوكي وظنوني؛ إذا بشيخ عجوز من القوم يخرج من أحد الأكواخ، ليقول لي: إنّ هذه الليلة؛ هي: (ليلة النمل)!. لقد سمع مرضى (الجذام) دبيب النمل وهو يخرج من الجبال الحمراء!. في تلك الليلة؛ كنت أرى -على مد البصر- النيران الصغيرة المشتعلة، هنا وهناك. وكانت الريح تأتي لي بأصوات النسوة السعيدات بجموع النمل الميتة قرب النيران! وهنّ يملأن في نشوة وحبور أواني العشب بصيدهنّ الثمين!. لقد كانت (ليلة النمل) في أوجها؛ حيث لم تفت على أي من قاطني المستعمرة، فرصة وجوده بين أولئك المحتفلين.

الآن؛ وقد آن أوان بداية العمل الطبي في المستعمرة! فشيّدت أوّل ما شيدت؛ مستشفىً

مؤقتًا قوامه عنبر من القش والطين يسع عشرة أسرّة، إلى حين الانتهاء من تشييد المستشفى من الطوب الأحمر. إلى جانب ذلك العنبر؛ قمت بتجهيز غرفة عمليّات طليت جدرانها بخلطة من الطين والأعشاب! ثمّ غطيت سقف المستشفى المؤقت بقماش الدمورية، منعًا لتساقط الأوساخ والأوراق من ذلك السقف المصنوع من الأغصان والأعشاب. لقد قمنا بتجهيز نظام بدائي لتسخين الماء يوفي بالغرض! ولعمل ذلك؛ مددنا ماسورة من خزان الماء الخارجي إلى حوض غسيل داخل غرفة العمليات. وكنّا نشعل أسفل خزان الماء نارًا وقودها الحطب!. كان ثمة صبي مرح سمَّيناه (إستوكر)؛ على استعداد أن يقوم بمهمّة إيقاد النار أسفل الخزان ليل نهار، لقاء ستة قروش كلّ أسبوع.

كانت مهمة تدريب طاقم التمريض لدى أوّل عهد المستشفى، جدّ عسيرة! حيث استعنت بأربعة من ممرضي الجيش السابقين المتطوّعين للعمل معي، بيد أنّ هؤلاء كانوا جميعًا أميّين!. كنت حريصًا على أن ينال طاقمي مستوى أرفع، فلجأت - مرة أخرى- إلى صديقي المبشر (كانون قور)، الذي لم يبخل عليّ -أيضًا - بعونه هذه المرة! إذ أقنع بعض الطلاب في فصوله التبشيرية بمعاونتي على العمل في المستعمرة، ففعلوا!. وقبيل مغادرتي السودان عند مطلع الخمسينيات، تأهّل أربعة من هؤلاء الشباب للعمل كمساعدين طبيين، وأرسلوا إلى العمل في المستوصفات الصحية، التي فتحت في أرجاء المديرية الاستوائية. الأمر الذي جعل الأب (كانون قور) في سعادة غامرة.

كما هو الحال في معظم أرجاء السودان، فقد كانت الرغبة عارمة في تحصيل العلم، والانخراط في المدارس الحديثة التي أنشأتها الإدارة البريطانية في السودان. ولكن في جنوب السودان؛ وعند عهد مجيئي، لم تكن ثمّة مدارس ولا تعليم! اللهمّ إلا من بعض الخدمات التعليمية والصحية، التي تقوم بها بعض المنظمات التبشيرية، سواء كانت من طائفة البروتستانت - وهؤلاء إمّا أن يكونوا بريطانيّين، أو من دول الكمونولث، أو من طائفة الكاثوليك: الطليان أو النمساويين في مديرية أعالي النيل. كانت هناك مجموعة المنظّمات التبشيرية الأمريكية، التي تُعنى بالتدريس والخدمات الطبية. كان كثيرًا ما يحدث احتكاك بين هذه المنظّمات، حول مناطق النفوذ (الكاثوليكي أو البروتستانتي)! وهذا ما دفع حاكم عام السودان لأن يشهر قانون الرومان، حيث أخذ المسطرة ورسم خطًا فاصلًا: غربه للكاثوليك وشرقه للبروتستانت!. ولقد أدى ما قام به الحاكم، إلى حل ذاك الإشكال حينًا من الدهر.

لتدريب القلة من الممرضين ومساعدي التمريض، ألقيت عليهم الدروس باللغة الإنجليزية!. كان ذلك مجهودًا جبارًا بذلته؛ رغمًا عن مشغوليات المستوطنة الكثيرة، والتي أخذت في النمو. كنت قيّمًا على تلك المهمة بنفسي، إلى أن جاء من يمد لي يد العون. في هذه الأثناء، بدأت جموع مرضى (الجذام) في التقاطر إلى المستوطنة. ومع مرور الوقت؛ ازدادت هذه الجموع وغدت شيئًا أشبه بالطوفان!. كان كل مريض قادم يلزمه كشف طبي كامل، وتسجيل لتاريخ المرض، وتحديد لمدي الإصابه. كل ذلك؛ يتم تسجيله في سجل خاص بكل مريض. بعدها تأتي مشكلة مرافقي مريض (الجذام). إذ كان من الضروري الكشف عليهم، لمعرفة ما إذا كانت العدوي قد انتقلت إليهم. ثمّ تأتي مرحلة مَن مِن الأقارب يمكن ضمه للعيش مع مريض (الجذام) داخل المستوطنة؟. غالبًا يتم قبول الزوج أو الزوجة والأطفال. أمّا البقية من الأقارب، فأولئك يتم قبولهم -فقط- في الحالات الاستثنائية.

كان كل مريض بـ(الجذام) يُمنح منزلًا، في الحيّز الواقع تحت إدارة زعيم قبيلته. وكان كل مريض يُمنح أيضًا هكتارًا من الأرض في المنطقة المحيطة بالمستشفى لزراعته. كذلك؛ يُطلب من كل مريض القيام ببناء الكوخ الذي سيسكن فيه! يُستثنى من هؤلاء المرضى، ذوو الحالات المتطوّرة أو مبتورو الأطراف. كان القادرون على بناء منازلهم، يُمنحون مساعدة مالية مقدارها خمسة قروش، كانوا بها جدّ سعداء. في الغالب الأعم؛ يُنفق ذلك المبلغ في شراء وتحضير المواد الضرورية، ونادرًا ما كان يستقطع المريض جزءًا من ذاك المبلغ، لاستئجار عمّال قد يساعدونه في بناء الكوخ!.

في بعض الأحايين؛ كانت تلك المنحة تذهب لشراء نبيذ احتفالًا بإكمال بناء الكوخ! وربّما أعطيت لساحر القبيلة، لقاء قيامه بسؤال وسائطه الروحية، عن مدي مناسبة المكان لقيام الكوخ!!. لحسن الحظ؛ فقد كان ذلك التدخل من الوسائط الروحية في اختيار مكان بناء الكوخ، دومًا ما يأتي متسقًا مع اختيارنا! وندر ما تقاطع أو تعارض مع قرارنا!. فإن جرى تقاطع أوتعارض؛ فمردّه إلى أنّ الأجر الذي دفع لساحر القبيلة، أدنى ممّا طلب! أو ربّما تكون الوسائط الروحية قد طلبت أجرًا - هي الأخري!. وحين يحدث ذلك؛ كنّا نستعين بزعيم القبيلة ليمارس سلطانه على المرضى!. وهكذا؛ كانت تمضي الأمور سلسةً في المستوطنة!.

عند اكتمال بناء المستوطنة؛ كانت خارطتها تمثل شكلًا دائريًا قطره حوالي أربعة أميال من القطب، الذي كان يمثله مبنى المستشفى. كان هنالك طريق خارجي بطول الدائرة، تتفرّع منه

عشرة طرق صغيرة تجري في اتجاه المستشفى: قلب المركز. قمت بعدها بتخطيط طريق دائري داخل المستوطنة، يبعد حوالي نصف ميل من المستشفى. وعلي جانبي هذا الطريق؛ أنشأنا أكواخ المرضى ذوي العاهات والإعاقة، حيث استأجرنا العمالة اللازمة لبناء تلك الأكواخ بالقش والجالوص. كانت تلك الأكواخ من الكبر بمكان؛ إذ كان يسع الواحد منها ما بين أربعة إلى خمسة أفراد!. لقد قمنا ببناء ثلاثمئة كوخ من ذلك النوع كلفتنا تسعين جنيهًا، حيث تكلفة بناء الكوخ الواحد حوالي ستة (شلنات).. لم يكن ذلك المبلغ متاحًا في الميزانية الممنوحة لنا، ولكن ولأهمية تلك المجموعة من المرضي، تمت الموافقة على الإيفاء بالمبلغ!.

الدواجن هي الحيوانات الأليفة الوحيدة الموجودة في أرض (الزاندي)، إلى جانب الكلاب المشهورة عندهم باسم (نيام نيام)، وتعرف عندهم كذلك باسم (باشنجي). هذا النوع من الكلاب؛ وجد اقتناؤه رواجًا عاليًا في إنجلترا لزمن ليس بالقصير!. تلك الفصيلة من الكلاب مشهورة بقلة نباحها، وذات أحجام صغيرة، وجلد أملس، ولها آذان كبيرة، وذيل ملفوف! يستخدمها أفراد القبيلة في الصيد. كانت هنالك إشاعة لا أساس لها من الصحة، وهي أنّ (الزاندي) يأكلون لحوم هذه الكلاب!. أصل هذه الإشاعة؛ مردّه إلى محبة (الزاندي) الشديدة لأكل اللحوم، حتي ولو كانت متعفّنة متحلّلة.

هنالك روايات تقول: إنّ (الزاندي) من أكلة لحوم البشر!. بيد أنّ الرواية الرسمية الوحيدة التي تعضد تلك الفرضية، كانت إفادة أحد مفتشي المراكز عند بدايات عهد الحكم الثنائي، والذي قدّم تقريرًا عن بحثه المضني، عن وجود قوم يعيشون سرًّا بين الأدغال! وكل ما عثر عليه؛ هو بقايا لنار مشتعلة تُركت -علي عجل- وعليها بقايا جثة لامرأة عجوز!. وقد ذكر المفتش؛ أنّه وبعد التحرّيات التي أجراها البوليس، تبيّن أنّ تلك المرأة هي من قوم بينهم وبين الزاندي عداوة مستحكمة!!. كان ذلك؛ هو الخيط الوحيد لإبطال فرية أكل لحوم البشر، التي أُلبِسها (الزاندي) زمنًا طويلًا!!. إنّ محبة (الزاندي) لأكل اللحوم ومنظر أسنانهم الأمامية البارزة، خلع عليهم لقب (النيام نيام) المشهور، الذي كان يوحي بما يعزّز تلك الفرضية!.

أحسست أنّ قيامي بتوفير اللحوم في المستوطنة، سوف يزيد من شعبية المكان، ويسهل علينا مهمتنا في علاج مرضى (الجذام). فإلى جانب استيرادي ثيرانًا للذبح على نحو منتظم في المستوطنة؛ اجتهدت في ترتيب رحلات صيد عبر الغابات المجاورة. ومن غريب الأمر؛ اعتقاد (الزاندي) أنّ أكل اللحوم الحمراء ولحم الخنزير، يجلب مرض (الجذام)!. رغم ذلك؛

كان مرضاي بـ(الجذام) يأكلونها، بحجة أنّهم أصلًا مصابون، وأنّما هو متوقّعٌ حصوله، قد حصل!.

تمكنت فيما بعد؛ من إنشاء مزرعة للألبان على قطعة من الأرض، كنت قد نجحت في تنظيفها من العشيبات والأشجار، تُقدر مساحتها بعشرة هكتارات. كما استنبت في ذلك المكان نوعًا من الحشائش يصلح لتهيئة ملاعب (القولف)، استجلبته من (يوغندا). إلى ذلك؛ أحضرت قطيعًا من الأبقار من المناطق الشمالية الخالية من مرض النوم، وقمت بتطعيمه لحمايته من المرض. عند نقلنا الأبقار من الشمال؛ كنا نسير ليلًا، لئلا تتمكن ذبابة (التسي تسي) من إيذائها! وأثناء النهار؛ كنا نحفظ تلك الأبقار في أرض فضاء، ونحيط معسكرها بنيران يطرد دخانها الذباب!.

بذلنا كذلك جهدًا مقدرًا في تشجيع (الزاندي) على تربية الأغنام، تلك التي لديها مناعة ضد مرض النوم، لكنّ ذلك لم يلقَ نجاحًا، حيث استوردت مئة رأس من الأغنام، وقمت بتوزيعها على البعض ممّن وقع عليه الاختيار. بعد ستة أشهر؛ لم يتبق من تلك الأغنام شيء! فدعوت زعماء القبيلة إلى اجتماع، لمناقشة سبب اختفاء كل تلك الأغنام!.

«أواه يا دوروقا!!» .. ابتدرني أحدهم! .. «لقد هربت كل أغنامي ذات ليلة، واختفت بين الأحراش! وسرعان ما التهمتها النمور، جميعًا!!»

ثمّ قدّم آخر الإيضاح التالي:

«لقد فعلتم جميلًا أن أعطيتمونا كل تلك الأغنام! لكن قام بعضهم - حسدًا من عند أنفسهم- بالإيعاز إلى ساحر القبيلة، كي يقوم بعمل ما!. بعدها؛ ماتت كل تلك الأغنام -الواحدة تلو الأخري- من مرض غريب!».

آخر قال:

«ثمة بعض الأوغاد بيننا!»... «بذلت ما في وسعي، كي أحفظ الأغنام التي أعطيتني إيّاها، في زريبة محكمة التحصين بنيتها بنفسي. لكن نتيجة لسحر عجيب؛ كنت أجد كل صباح فجوة في سور الزريبة، تمّت عبرها سرقة الأغنام واحدة تلو أخرى، إلى أن اختفت جميعها!!».

أمّا أكثر الروايات طرافة في تفسير اختفاء الأغنام؛ كانت تلك التي قدمها رجل صغير الحجم مليء بالحبور!. حكي ذلك الرجل القصة التالية، دون أن يطرف له جفن:

«لقد قمت برعاية أغنامك الأربعة وكأنها أطفالي! فاخترعت لها الأسماء وخصصت

لنومها مكانًا ذا باب محكم إلى جوار كوخي! لكن عندما انتصف الشهر وصار القمر بدرًا، داهمني شعور غريب في تلك الليلة، حين رأيت شعر شيء غريب يتدلي من سقف الكوخ! عندها تملكني الخوف والجزع، إذ أدركت أنّ ذلك نذير شؤم!. جلست طوال الليل مرتجفًا من الخوف ومرتعدًا!. وعند الفجر؛ ذهبت لأطلق سراح أطفالي الأربعة. وما إن فتحت باب حظيرة الغنم، خرجت بدلًا عنها أربع دجاجات قمت بحفظها لأريكها، وأنا أعلم أنّ تلك الدجاجات الأربع، هي الأغنام لا غيرها!!«

بلى؛ فقد كانت واحدة من تلك الأغنام، بمثابة وليمة شهية للرجل صغير الحجم ورفاقه!!... يا لها من أيّام كانت حُبلى بالأحداث، وملأى بالكثير المثير الخطر!.

الآن؛ وبعد كل تلك السنوات، أجدني مندهشًا إزاء هذا الكم الغفير من الأعمال، التي حشدت لإنجازها كل قدراتي وكل قوّاتي! وأنا بعد؛ صغير السن، عظيم الهمة، ماضي العزيمة، كلما أصبتُ نجاحًا، أفضى إلى نجاح!

الفصل الحادي عشر

الحياة البرية

كثير من أصقاع بلاد السودان غير مناسبة لسكن البشر. لذا فقد أضحت تلك الأرجاء بيئة مناسبة للحيوانات البرية والمتوحشة. في أقصى الشمال الغربي؛تمتد صحراء شاسعة جرداء، كانت مأوىً لحيوانات نادرة مثل الـ**addax** والمها، والتي لا تعتمد كثيرًا على وفرة المياه مثل بقية الحيوانات الأخرى. لقد كان لديّ القليل من الفراغ أيام عملي في جنوب السودان، لم أجد بدًا من استغلاله في الترفيه بتنظيمبعض رحلات الصيد – من قبيل ممارسة الرياضة! ومن أجل إشباع رغبة مرضاي المجذومين من اللحوم!.

بعد فترة من وجودي هناك، استطعت الحصول على ترخيص باصطياد ستة من أفرس النهر (القرنتي)، التي يزيد وزن الواحد منها على الثلاثة أطنان! وذلك لتزويد مستعمرة (الجذام) في (سورس يوبو**Source Yubo**) باللحوم. على بعد حوالي العشرين ميلًا من المستعمرة، كانت هنالك بعض المناطق في النهر من العمق بمكان،ممّا جعل منها مرتعًا لأفرس النهر!. لذا فقد كنت أذهب إليتلك المناطق– مرة كل سنة، كي أصطاد تلك الحيوانات والأسماك في آن!.

فرس النهر؛ له عينان وأذنان وفتحتا أنف تقعانعلى خط مستقيم، تمكّنان ذلك الحيوان من التنفس فوق سطح الماء، دون الحاجة إلى إبراز بقية جسمه!. لذا فقد كان مجال التصويب بالبندقية لاصطياد تلك الحيوانات، ضيّقًا للغاية. كما ذكرت؛فقد كان فرس النهر يزن حوالي الثلاثة أطنان! الأمر الذي جعلنيأصطحب معي في رحلات الصيد تلك، ما لا يقل عن ثمانين رجلًا لحمل لحوم تلك الحيوانات بعد سلخها!!. كان معسكرنا عند ثاني أيام الذبح، يبدو وكأنّه يوم لآكلي لحوم البشر! إذ يمكنك رؤية شرائح لحوم الذبيحة معلقة أو منشورة على فروع الأشجار لكي تجف!كان عرض كل شريحة من تلك الشرائح، لايزيد عليالبوصة الواحدة،

أمّ طولها ففي حدود العشر بوصات! وسرعان ما يَحُولُ لونها،فيصير داكن السواد من جراء الذباب المتجمّع عليها!. وفي اليوم الثالث؛ يتصاعد أزيز الذباب المتجمّع، وتملأ المكان رائحة اللحم الجاف!. رغمًا عن وجود عشرين من الحراس، كنت حريصًا على وجودي بنفسي، وإلا تبخرت تلك الأطنان من اللحوم في طرفة عين!!. خلال النهار؛ كنت أقضي الساعات على متن قارب صغير في عرض النهر،لأصطاد السمك على الناحية الأخرى من البحيرة.أمّا خلال ساعات الليل؛فقد كنّا نوقد النيران لطرد الحيوانات المفترسة، لكيلا تهجم على تلك الشرائح المعلقة من اللحم. ورغمًا عن ذلك؛ تفتأ تسمع بين الفينة والأخرى، أصوات الذئاب والثعالب التي تحاول -جهدها- أن تنال نصيبًا من تلك الغنائم!.

بعد أن يجف اللحم؛ تبدأ جحافل الذباب في التناقص رويدًا رويدًا. هذا؛ وبعد مرور بضعة أيام نبدأ المسير صوب مستعمرة (الجذام) - بتلك الحمولة من اللحوم على رؤوس الحمالين، وفي حراسة العساكر!. كان دائمًا ما يتسلل إلى خاطري سؤال؛ هو: هل ثمة من داع إلى قضاء تلك الأيام،بين الأدغالوالأحراش ورائحة اللحوم النتنة الجافة؟. لكن ذاك الخاطر كان بعيدًا -بالطبع- عن أذهان مرضى (الجذام)، الذين سيسعدون-قطعًا -بتلك الشرائح! التي حينما يتناولونها، تحدث لديهم تغييرًا مهمًا في النمط الغذائي الرتيب، والذي لم يكن غير حساء الذرة الشامية!.

كان ثيتل (البونقو)؛ أكثر أنواع الثياتل جمالًا في السودان! ولندرته، غدا اسم (البونقو)، وكأن لا وجود له إلا في قصص الأطفال! بيد أنّ (البونقو) حقيقة واقعة في منطقة الأدغال، التي تقع على الحدود بين السودان والكونغو البلجيكي وإفريقيا الاستوائية الفرنسية!. طول ذلك الحيوان؛ يماثل طول البغال المستخدمة عند الجيش البريطاني،ولونه أسودحالك السواد يبدو لامعًا ومخططًا بثلاثة عشرشريطًا أبيض، ويعلو ظهره وبر أبيض مرتفعًا قدر بوصة، وممتدًا على طول جسم الحيوان!. أمّا الرأس؛ فيعلوه قرنان بنّيان ملتويان نحو الداخل ثمّ إلى الخارج، وينتهيان بطرفيْن حادّيْن.

إنّ أفراد (الزاندي)؛الذين لطالما اشتُهروا أنّهم قوم صيد،ندر ما يذهبون إلى مناطق عيْش حُمُر الوحش!إذ المناطق التي تعيش فيها حُمُر الوحش، هي أحراش ذات أشجار ضخمة، ولدى أسافلها حشائش ذات أشواك حادة! وبين تلك الحشائش يتخفّي الكثير من الثعابين والنمور، مثلما تحوُم حولها الكثير من الفراشات البديعة، وتحط على فروعها الطيور ذات

الألوان المتناسقة!. كانت حُمُر الوحش تعدو في مسارات بين ذلك الزخْم من طبيعة الغاب، رامية رؤوسها على أقفائها، حتى تلامس قرونها أعالي ظهورها!!.

ذات صباح قائظ الحر، دلفنا إلى أدغال الغاب بحثًا عن تلك المخلوقات البديعة. كان في صحبتنا اثنان من الأهالي ذوا خبرة في الصيد؛ لا يلبسان ما يسترهما سوى قطعة واحدة من جلود الأسود!. وعلى مدى ساعات؛ انطلق ذانك الخبيران يجوبان بنا الأدغال، بحثًا عن ضالتنا المنشودة!. لم تكن هناك نسمة من هواء تحرّك أوراق الشجر!كنا نبصر -كلما سنحت سانحة- مجموعة من السحب السوداء تتجمع في كبد السماء. كان فضاء خاليًا من الأشجار وسط تلك الغابات!. بدأت حبات العرق تتجمّع على أكتاف أفراد الكشافة، ثم تنحدرفتسيل على ظهورهم!كان الجو ينذر بهبوب عاصفة، وكنت تحس أنّ كل شاهد من شواهد الطبيعة غدا في حالة ترقّب. لقد انتابنا شعور غريب! شعور هو: مزيج بين الوَحَدَة والولوج إلى عالم مجهول!.

مع مغيب الشمس؛ وصلنا إلى مكان فسيح وسط الغابة. قرّرنا حينها نصب معسكرنا عند ذلك المكان، لاسيّما وقد تتالت علينازخّات المطر، الذي سرعان ما انهمر فكأنه أفواه القرب! وانفلجت السماء من البرق، وزمجر الرعد، ولم تمضِ نصف ساعة من أوان، إلا وقد انقشعت كل تلك المشاهد!. رغما أصابنا من البلل، لكن عاد الهواء طلقًا عليلًا منعشًا. لقد ابتلت أوراق الشجر وصارت ناعمة، بعد جفاف أصابها حينًا من الدهر! ومثل الذي أصاب أوراق الشجر؛أصاب الأرض اليابسة الجدباء فغدت ميثاء لينة، لا تكاد تسمع فيها للصيادين صوتًا أو تحس لهم ركزًا! وتلك مزيّة كنا نفتقدها لدى اصطيادنا حمار الوحش: ذي السمع الحاد وذي الأذنيْن الكبيرتين!.

مع بزوغ الفجر؛أسرعنا المسير، ولسرعان ما تمكن الكشافون من معرفة أثر حمار الوحش. ولم نلبث أن غمرتنا الإثارة! وكنّا قد دلفنا إلى منطقة جوفاء ملأى بالدهاليز، متحسّسين موطئ أقدامنا!إذ كانت الرؤية فيها لا تتجاوز أقدامًا قليلة. كنّا جدّ حريصين على ألا نُحدث جلبة أو ضوضاء تنبه حمار الوحش إلى خطر قادم. مضت ساعتان من الترقب،وبدأت أحس أثر الخدوش في وجهي ويديّ وركبتيّ من فعل الأشجار! وعادت قدماي خائرتين من التعب والرهق. وفجأة؛ توقف أحد الكشافين متسمرًا في مكانه، ثمّ أشار بيده. أنعمناالنظر وأرهفنا السمع،حتى لم نعد نسمع غير دقات قلوبنا!. ثمّ أصخنا إلى صوت هو أشبه بالهمس.

بعدها جعلنا نمشي الهوينى على أطراف أصابع أقدامنا، ولا نكاد نجرؤ على التنفس بصوت مسموع!بيد أنّ كل تلك الاحترازات ذهبت أدراج الرياح! إذ تبيّن لحمار الوحش وجودنا، وعرف مقصدنا، فتلاشى عنّابين الأدغال!.

قمنا بعدها بتتبع آثاره، زحفًا خلال المستنقعات، وخلف جبال النمل، ثمّ عبر مجاري أحد الأنهار! حتى تصبب منّا العرق، وحامت حولنا جيوش ذبابة (التسي تسي). لم نحفل بكل ذلك؛ فهدفنا هو العثور على حمار الوحش!. فجأة؛ ومرة أخرى، توقف أحد الكشّافين متسمّرًا في مكانه، ثمّ دفعني أمامه. كانت بندقيتي مشرعة ويداي ترتجفان من التعب والترقّب والإثارة!. استدرت إلى جانب من معي - ومن خلال أغصان الحشائش أبصرت حمارين وحشيين يقفان أمام تلك الخلفية الخضراء الرائعة من الأشجار الخضراء، وقد برز بوضوح جلي لونهما الأسود اللامع ذو الخطوط البيضاء الرائعة الجارية مع عرضيْ جسميهما! هنالك يتدلى رأساهما إلى أسفل وآذانهما إلى الأمام. ثمّ مضيا يداعبان بعضهما البعض. وفجأة؛ شق عنان السماء صوت رصاصة أطلقت تجاههما! لكنّها اخطأتهما. تسمّر ذانك الحيوانان في مكانهما، ورفعا رأسيهما صوبنا منتصبةً آذانهما إلى الأعلى، وكانت عيونهما ملأى بالخوف!. عندها أدركت أنّ اغتنامي الفرصة قد حان، وإلا فقدت ومن معي كل شيء!.

شددت إصبعي على الزناد ميمّمًا بندقيّتي صوب الهدف، ثمّ ضغطت على الزناد. ولم تمضِ غير ثانية؛ حتى دوّى الرصاص وأصبت هدفي في مقتل! وهنا طوّح قرينه في الهواء إلى أعلى، واختفى بين الأحراش!.

في الخلاء؛ يُشتهر حمار الوحش بالتوحّش والعنف إذا ما هوجم. وبعد تلك الرحلة بيومين، استمعت إلى حادثة مؤلمة راح ضحيتها أحد أفراد (الزاندي)، حينما كان بعضهم خارجين للصيد،عدت عليهم إحدى إناث حُمُر الوحش،وعندئذ قام قائد تلك المجموعة بطعن تلك الأنثى برمحه في أحد جانبيها! فثارت تلك الأنثى واستدارت مباشرة على من طعنها فأصابته في مقتل!إذ قضت عليه دهسًا بقرنيها، قبل أن يتمكن بقية الرجال من طعنها بالرماح!.

حسبما توقعت؛فقد كان لبعض الحيوانات وضع خاص عند أفراد قبيلة(الدينكا)!فبينما كنت أتحدّث ذات يوم، إلى بعض زعماء قبيلة الدينكا،لاحظت أنّ ثعبانًا ضخمًا يقترب منا! فقمت عندها بالصراخ محذرًا رفاقي، الذين لم يحرّك أحد منهم ساكنًا،بل واصلوا حديثهم بلا انقطاع!فيما اقترب الثعبان من أحد أولئك الزعماء مارًّا من فوق قدميه! وسرعان ما اختفى

بين الحشائش. لقد كنت محظوظًا وقتها، فلم أفعل شيئًا ألبتة! ذلك أنّ هذا النوع من الثعابين يعتبر مقدسًا عند قبيلة الدينكا،ويعتبرونه حافظًا لأرواح أجدادهم!! إذ لو قمت بمهاجمة ذلك الثعبان،فسيكون ذلك بمثابة شروع في مهاجمة أحد أرواحهم المقدسة! ولشرع أقارب ذلك الراحل في الانتقام ممّن اعتدى على روح أحد أجدادهم!.

خارج أكواخ أولئك القوم؛ كنت دائمًا تبصر بعض قناني الحليب التي تترك أثناء الليل،لتُروي عطش تلك الأرواح! ولتجدنّ ذات القناني وهي خالية من الحليبعند الصباح!!

أذكر أنه ذات يوم؛ جلست أتناول وجبة الإفطار مع مفتش زراعي تحت إحدى أشجار الهشاب، وكان كلانا يلبس ملابس خفيفة فضفاضة بدون ياقات. وإذا بشيء أخضر يسقط من على الشجرة، منزلقًا إلى داخل قميص رفيقي، ومختفيًا خلف ظهره!. لقد تسمرنا عندها في مكاننا، لا نجرؤ على الحديث أو الحركة ولا حول لدينا ولا قوة!. ظللنا على ذلك الحال فترة حسبناها دهرًا طويلًا! وفجأة ظهر رأس قميء الشكل صغير الحجم ذو عينين لامعتين من فوق أعلى قميص رفيقي فوق صدره، ثمّ ما لبث بعد هنيهة، أن انسلّالجسم الأخضر الأملس منزلقًا أسفل بنطاله إلى الأرض، ثمّ اختفى بين الحشائش!. ودون أن ينبس صديقي ببنت شفة، تناول الشوكة والسكين معاودًا التهام إفطاره!. ربّما يكون مثل ذلك الجَلَد، متوقعًا من أحد أفراد الدينكا، الذي يعتقد جازمًا أنّ روح أحد أجداده تسكن ذلك الثعبان!. وحين عبّرت لصديقي عن مدى إعجابي بشجاعته إزاء ذلك الموقف، لم يزد على أن علق قائلًا: «إنّه من شدة ما غشيه من الخوف،لم يزد على أن تسمر في مكانه!!»

إنّ النمور هي أكثر الحيوانات افتنانًا في قتل الأهالي؛ ويرجع ذلك إلى ممارستهاالصيد خلال الظلام. لذا يندر أن يفلت أحد منها إذا باغتته. وهي عادة ما تفضل مهاجمة الكلاب والدواجن! والأهالي إذ يدافعون عن حيواناتهم الأليفة، يكونون عرضة للنمور وإصاباتها القاتلة!.

تلك الحيوانات؛ لا تفرّق بين بني البشر!!!حيث دعيت إلى إسعاف اثنتين من الحالات الحرجة، كانتا لاثنين من القساوسة المبشرين الأوربيين؛ أحدهما من قساوسة الجمعية الكنسية البروتستانتية للتبشير، الذي سمع ذات ليلة صوتًا صادرًا من أحد بيوت الدواجن، وعندما فتح الباب مستطلعًا الأمر، انقض عليه أحد النمور وسلخ فروة رأسه واختفى! تقهقر القسيس إلى داخل منزله، ونصف فروة رأسه متدليًا أمام عينيه!. قامت زوج القسيس بإيقاف

النزيف، ثمّ أعادت فروة الرأس مكانها، وقامت بتضميد الجرح. بعدها؛ قامت بقيادة السيارة مسافة خمسين ميلًا إلى المستشفى خلال الليل، حيث قمنا بتنظيف الجرح وخياطته. بعد ذلك بشهر؛ تكوّن صديد في موضع الجرح. وعند فتح الخرّاج؛ وجدت أحد مخالب النمر وقد انغرز في عظم الجمجمة!!!.

الحادثة الثانية؛ وفيها يتجلّى مدى عدم انحياز تلك النمور لأي ملة دينية!! حيث كان الضحية هذه المرة أحد القساوسة الكاثوليك النمساويين. خرج ذلك القس يحمل بندقية، وقد سمع صوتًا وسط بيت الدواجن، حسبه ثعلبًا يريد اقتناص إحداها. وحين قام القس بفتح الباب؛ إذا بنمر ضخم يهجم عليه ويلقيه أرضًا، وقد أصابه بكسر في عظمة الفخذ!.

بين أغرب مصادفاتي الشخصية مع النمور، تلك التي حدثت خلال قيامي بمغامرة لصيد الأسود. كنت حينها في بقعة نائية من السودان أحقق في اندلاع وباء مرض الجُدري. وصادفوجودي في تلك الأنحاء، وجود مفتش المديرية الذيكان مكلفًا بجباية الضرائب هناك. ذات مساء؛ ونحن على وشك احتساء (نبيذ المغرب)، إذا بمجموعة من الأهالي يخبرون مفتش المركز، أنه ليس بوسعهم دفع الضرائب عينيًا من قطعان الحيوانات، لتعرضهم لهجوم الأسودالمتكرر كل ليلة! لذا فقد باتت قطعانهم في تناقص مستمر. كان مفتش المركز بارعًا في الصيد. وبعد مشاورة معي؛ اتفقنا على أن ننصب شركًا لتلك الأسود عليه شاة مربوطة، قبل مغيب الشمس. وعملنا على أن تكون تلك الشاة مربوطة فوق حفرة عمقها ثلاثة أقدام، مغطاة بفروع الشجر والحشائش.

بعد حلول الظلام؛ لجأت ومفتش المركزإلى حيث مخبئنا،ماكثين فيه فترة امتدت ساعات،كنّا نسمع خلالها زئير الأسود من على البعد، ولكن لم يظهر أي منها قرب الشاة!. وبعد مضيّ زمن طويل، دب النعاس إلى جفنيّ فأخلدت إلى النوم. وفجأة؛ أيقظني رفيقي بهدوء، وهمس لي:إنه يسمع حركة في الجوار. وقبل أن نقوم بتجهيز البندقية، إذا بفأر يقفز خارجًا من أحد الجحور!. قمنا بعدها باحتساء بعض النبيذ من قارورتينا. وبعد برهة؛ تسلل النعاس إلى أجفاننا مرة أخرى. وفجأة؛ اشتعلت الحاسة السادسة، وانتبه كلانا! إذ كان يقف هنالك على بعد عشرين ياردة، أحدالنمور وعيناه مسمرتيْن على الشاة. وبتسديدة سريعة؛ أصابه مفتش المركز في مقتل!. قمنا بجر النمر إلى حيث الحفرة التي نختبيء فيها. إذ خشينا أن تفسد جثته في العراء خطتنا. ولم يكن من بد من جلوسنا فوق النمر كلانا! حيث لم يكن

هنالك متسع كاف لثلاثتنا. لم تمض دقائق إلا وشرعت ورفيقي في الحك والهرش! إذ تنزّت مئات البراغيث من جسم النمر مهاجمةً أجسادنا! وللتخلص من تلك المخلوقات المزعجة، قمنا بجر النمر إلى مكان خلف مخبئنا.

انجلت البقية من الليل دون أحداث تذكر. ومع بزوغ الفجر؛ بدا لنا أنه لا فائدة من مواصلة الانتظار، وحسبنا أننا ظفرنا بنمر بديلًا عن الأسد! أو هكذا خُيّل لنا. لدهشتنا؛ لم نجد ذلك النمر ولم نعثر له على أثربعد! فما كان منّا إلّا أن هنّأنا بعضنا البعض على نجاتنا، بما يشبه المعجزة! ذلك أنّه لو ظفر بنا من كانوا قد أتوا لإنقاذ النمر ونحن في مخبئنا؛ لما كان نجا منّا من أحد!!!

ربّما كان الجاموس البري؛ الأكثر رهبة وتقديرًا بين كل الحيوانات البرية الإفريقية لدى الصيادين. فعندما يصاب الجاموس البري بجراح؛ يتملكه ذلك الشعور الملتهب المماثل لشعور البشر في أخذ الثأر والانتقام!. لقد قمت ذات يوم بجمع بقايا جسم أحد الصيادين من النمساويين ذوي الخبرة في ذلك المجال، وأنا أحس بالأسى!. ذكر لي أحد الأفارقة من السكان المحليين؛ أنّ ذلك النمساوي كان يتعقب أثر أحد الجواميس البرية، والذي كان قد أصيب من قبل بجراح من أثر طعنة رمح. كان لدى ذلك النمساوي خرطوش ذو ماسورتين من طراز إكسبرس 485 حين هاجمه ذلك الجاموس. ثبت النمساوي في مكانه وأطلق عيارين من مسافة قريبة. قام بعدها الجاموس بالدوران من خلف بعض الحشائش العالية، وهجم مرة أخرى على النمساوي، الذي كان متوقّعًا هجوم الجاموس! لكن؛ وقبل تمكنه من إعادة تجهيز رصاصته وإطلاق النار مرة أخرى، كان الجاموس قد طرحه أرضًا إلى حتفه!.

بعد ذلك بشهور عديدة؛ كنت أستكشف بعض الأنحاء غير المأهولة وسط الغابة، كي أقيم مستعمرة جديدة.قضيت ثلاثة أيام بين مجاري المياه، أبحث عن الذبابةالسوداء من فصيل السيموليمSimulium، والتي تنقل (عمى الجور). وبدأت حصيلتنا من اللحوم في التناقص؛ لذا بعثت بأحد أفراد الحرس ليبحث لنا عما نصطاده. أتى ذلك الرجل ليخبرنا أنّ ثلاثة من الجواميس البرية قد شوهدت على مقربة من معسكرنا. كنت وقتها أحس بالإجهاد بعد عناء تلك الأيام التي قضيتها، وأنا أجوب تلك الأصقاع سيرًا على قدمي.لكن أدركت أنّني في نعمة مقارنة بأولئك الرجال الذين في صحبتي؛ حيث كنت أنعم بثلاث وجبات كاملة يوميًا، ورجالي لايأكلون سوى وجبة واحدة من بليلة من الذرة الشامي! وعلى رأس كل واحد

منهم خمسون رطلًا! وليس فوق رأسي شيء!!. عمدت إلى بندقيتي وسرت خلف دليلي .. وبينا كنا نخوض أحد المستنقعات الملأى بنبات البردى، رأينا -مع الغروب- أحد الجواميس يسير وحيدًا، ولم يكن عنّا ببعيد. ورغم أنّ الظلام بدأ يتسلل إلى تلك الأرجاء، قمت بالتصويب نحو الجاموس وأطلقت رصاصة في اتجاهه! بعدها تعالى صوت الجلبة وتصاعد الغبار، وإذا بنا نبصر حوالي الخمسين من الجواميس تركض نحونا خائفة مذعورة!. فأدركت أنّها ليست بسبيل مهاجمتنا، وأنّ صوت الرصاص هو ما أصابها بالخوف وبالذعر! جعلت تلك الحيوانات تركض إلى جانبنا. وإذا بي أبصر ضالتي وهو مصاب على جنبه يحاول اللحاق برفاقه، فعاجلته بطلقة أخرى. لكنّه واصل المسير مع رفاقه نحو الغابة!. لقد استحكم الظلام، ولم يكن لدي أدنى رغبة في مطاردة فريستي بين الأحراش. لكنّ رفاقي من الحمالين، كانوا في شوق وترقب لوجبة من اللحم المشوي. لذا فقد واصلوا المطاردة غير عابئين بالأخطار. لكنّني أقنعتهم أنّ الاستمرار في المطاردة، ربّما يكون أقرب إلى الشروع في الانتحار!. وبعد جدال طويل؛ توصلنا إلى أن يعتلي ثلاثة منهم إحدى الأشجار، حتى يطلعوا على ما حدث للجاموس الجريح. لقد أحسست حينها بالخجل؛كون رجالي غير مسلحين بسلاح ناري، وليس لديهم سوى تلك الرماح البدائية. لكنّهم رغم ذلك؛ مستعدون لخوض غمار الصعاب. وبعد أن صعدت إلى أعلى الشجرة معية اثنين من رجالي، أبصر أحدهما فريستنا وهو مُلقى وسط بركة من دمائه غير بعيد - على مسافة عشرين ياردة! وقبل أن أنتبه لما جرى؛ إذا بذينك الرجلين يقفزان من أعلى الشجرة إلى حيث يرقد الجاموس، ويقومان بغرس رمحيهما في جسده!. وفيطرفة عين؛ انضم إليهم باقي الرجال، وبدأوا في سلخ الجاموس وتقطيعه. أصدرت حينها؛ الأوامر بإقامة معسكرنا في تلك البقعة، وأن يقوم الرجال بإشعال النيران.سرنا قبل وصولنا إلى موقع المعسكر المقترح،مسافة ساعة في بطن الوادي. لقد دعوت نفسي إلى احتساء قدحين من الويسكي،عساهما يهدّئان من أعصابي ويمكّناني من النوم!.

بعد وصولنا؛ وجدت مستلزماتي قد سبقتني إلى المكان، ولكن ليس ثمة أثر بعد لـ(محمد) أو (أحمد)، حيث لم يكونا قد وصلا بعد.وعند الصباح؛ أبصرت رفيقيّ(محمدًا) و(أحمد): اللذين كانا قد ابتعدا عنا لحظة هروب قطيع الجواميس، إذ أدركهما الجزع ممّا شاهدا، فلم يملكا غير أن تسلقا إحدى الأشجار، ومكثا هنالك مذعوريْن حتى الصباح!. لقد أقسم (أحمد) بالله؛ أنّ أحد الجواميس كان يدور حول الشجرة لفترة طويلة، حتى خيّل إليه أنّه

سوف لن يرحل، إلا بعد أن يتمكن منهما!. تلك القصة لم أشك في صحتها؛ فهي مماثلة لأخرى حدثت لصبي من قبيلة (المورو)، اضطُر ذات مرة إلى التعلق بأغصان شجرة، هربًا من جاموس هائج! لكنّ وضع تلك الأغصان، لم يمكن الصبي من سحب رجليه المتدليتيْن عن متناول الجاموس، الذي ما فتئ يلعق رجلي الصبي بلسانه الخشن إلى موضع الركبتين، محاولًا جذبه نحو الأسفل! وحين تم إنقاذ الصبي، كان جلد رجليه قد انسلخ تمامًا من أثر لعق الجاموس!. وللأسف؛ كانت حال ذلك الصبي مزرية ومؤلمة للغاية! ولم يلبث أن تُوفي بعدها من جراء تسمم بكتيري.

كذلك خضنا كثيرًا من المشاكل مع الأفيال؛ لكن نهاياتها لم تكن سيئة. في إحدى المرات؛ كان أحد أفراد قوة البوليس يقود دراجته الهوائية وسط إحدى تلك الغابات، ثمّ جريأحضر إلى مستشفى جوبا مصابًا بجرح كبير في جبهته. وعندما سألته عما حدث، أجابني أنّ دراجته قد أصابته في وجهه!. لكن الحقيقة؛أنّ الشرطي كان شارد البال سارح الخيال، وهو يقود دراجته نحو محبوبته التي سيلتقيها في تلك الأمسية. وفجأة؛ اصطدم بمؤخرة فيل!فلمّا انتبه، فر مذعورًا بعيدًا عن الفيل، تاركًا دراجته في مكانها. الشاهد في الأمر؛ أنّ الفيل الذي كان غاضبًا من انقطاع نومته النهارية، تناول الدراجة بخرطومه وطوّح بها في الهواء، ثم قذف بها نحو الغابة. لكن يبدو أنّها ارتدّتفأصابت ذلك الشرطيفي وجهه مباشرة!.

من أعظم الأحداث إثارة خلال عملي في مستشفى جوبا، ذلك الذي ارتبط بقطيع كامل من الأفيال. هنالك؛ وإلى الشمال من مدينة جوبا، توجد بقعة بها العديد من المستنقعات، مثلت منتجعًا موسميًا للأفيال، وهي في طريق هجرتها السنوية نحو الجنوب. بعد إنشاء الطريق البرّي الذي يربط جوبا بالكونغو البلجيكي، مثل هذا الطريق حجر عثرة أمام حركة تلك الأفيال، التي كانت تبذل كل ما في وسعها، لتجنب كل ما تنبعث منه رائحة ابن آدم!. لذا فقد اتخذت تلك الأفيال المهاجرة طرقًا جانبية، خشية الاقتراب من ذلك الطريق!. في تلك المرة؛ جاب قطيع يناهز عدد أفراده الأربعة وعشرين فيلًا، المنطقة المتاخمة لمستشفى جوبا. مرّت الفيلة قريبًا من المستشفى. فلوشاء أحد الممرضين اصطياد أحدها بقوس وسهم، لفعل!. في تلك الليلة؛ كنت مدعوًا إلى حفل خارج المستشفى. ولم أعد إلى منزلي إلا حوالي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. حينها تناهى إلى سمعي أصوات أعيرة نارية. وعلى الفور؛ أدركت أن أحد الأغبياء يحاول أن يصطاد فيلًا!. لم أعر الأمر انتباهًا، ولم أفعل

شيئًا؛ إذ إنّ الأمر لا يعنيني بحال!. لكنّ إطلاق النار المستمر، حملني على السعي لاكتشاف ما يحدث!. خرجت من منزلي؛ بعد أن أخذت بندقيتي ومعها حوالي عشرين طلقة، وطفقت أبحث عن موقع الحدث. هنالك قرب مكاتب الأشغال على ضفة النهر، كان حشد كبير من الأهالي يتجمعون، تعلو وجوههم الإثارة، ويملأ صدورهم الأمل في الاستمتاع بكمية هائلة من لحوم الأفيال!. ذكر لي أحدهم؛ أنّه وعند منتصف الليل،حاصر ذلك القطيع من الأفيال نادي الموظفين المحليّين! فما كان من الأفندية والكتبة المذعورين، إلا أن اتصلوا بالبوليس مستنجدين. لكن؛ وللأسف،أطلق أفراد من البوليس النار على الأفيال بصورة عشوائية!. عند وصولي إلى مكان إطلاق النار، كان من الصعوبة تبيّن تفاصيل ما يحدث. لكن تمكنت آخر الأمر من رؤية أحد ضباط البوليس وهو في قمة الإثارة، يقوم بتوجيه رجاله بالتصويب نحو الأفيال، وهو في ملابس النوم!. قمت بسؤاله؛ «كم من الأفيال قتلت؟» فأجابني على الفور «لم نقتل فيلًا بعد، ولكن تمكنا من إصابة العديد منها، وبعد قليل سيكون لدينا لحمًا وفيرًا –سيدي!». فهددته على الفور؛ بتقديمشكوىً ضدّه إلى مدير البوليس، إن هو لم يأمر بوقف إطلاق النار على الفور!. ووشيكًا اقتنع الضابط؛ الذي تمكن بعد كثير من الهرج والمرج، من إصدار الأوامر لجنوده بالتوقف عن إطلاق النار!. وقمت كذلك بتحذيرهم أنّه إذا استدعى الحال إطلاق النار؛ فسأتولى تلك المهمة بنفسي. بعدها وعلى ضوء القمر؛ قمت بمعاينة قطيع الأفيال. فتبين لي، أنّه ما من أحد منها قد أصيب إصابة بالغة. عندها طلبت من ضابط البوليس تفريق حشد الأهالي على الفور!.

وهكذا؛ شرعت تلك المخلوقات في التحرّك بعيدًا، ولم يتبق منها سوى واحد فقط، يبدو أنّه قد أصيب إصابة بالغة في إحدى رجليه الخلفيتين. قرّرت عندها؛ إطلاق النار فورًا على ذلك المسكين! أمّا البقية من الفيلة، فرأيت في معاينتها عند الصباح، لمعرفة ما إذا كان أحد منها قد تأذى كثيرًا. لقد كانت الرؤية ضعيفة للغاية، فلم تمكّنّي من تحديد ذلك الهدف على كبر حجمه! حتى وأنا منه على بعد عشرين ياردة فقط!. لقد وجدت أنّه من العسير إصابة ذلك الفيل في مقتل، فلجأت إلى تفريغ حمولتي من الرصاص، قبل أن يهوي ذلك الحيوان العملاق إلى الأرض. ثمّ صحت في القوم: «الآن قوموا فاطعنوه برماحكم، وخذوا غنيمتكم من اللحم، واتركوا الأخرى تمضي بسلام!». بعدها؛ تدافعت حشود الأهالي ورماحهم مشرعة في الهواء. لكن سرعان ما انتصب الحيوان العملاق على أقدامه مزمجرًا وغاضبًا! فلاذ من بأسه

الأهالي بالفرار. بيد أنّ الفيل الجريح فقد القدرة على التركيز، وهوى مرة أخري إلى الأرض طريحًا على باحة رملية! فسنحت لى سانحة الوقوف على حافة تلك الباحة،لأطلق على رأسه رصاصة الرحمة!. بعدها أصدرت أوامري للبوليس، بحراسة جثة الفيل حتى الصباح.

في اليوم التالي؛ تجمع حشد كبير من الأهالي حول الفيل الصريع. وأبصرت بعض هواة التصوير يقومون بتصوير بعض ممن ادّعوا اصطياده!. هذا؛ وإنّ لك أن تتخيّل أو تتصوّر أبًا، وهو ينظر بعين الإعجاب إلى صورة ابنه واضعًا رجله اليسرى على رأس الفيل، الذي قام للتو باصطياده! فضلًا عن بقية الأقارب، من أخ وعم وخال وهلم جرّا.

عندما أتى مفتش المديرية: الذي كان غائبًا في جولة تفتيشية خارج جوبا، علم بما حدث، وأخبرني أنه يأسف لاضطراره إلى فرض غرامة مالية عليَّ، جرّاء قيامي بصيد ذلك الفيل، تنفيذًا لقانون حماية الأفيال التي لا يتعدى وزن أنيابها الوزن المحدّد، وكذلك لعدم حيازتي ترخيصًا بصيد الأفيال. كان ردي حاسمًا؛ وهو أنني سوف أضطر في حال إصراره على فرض تلك الغرامة، إلى كتابة تقرير مفصل لحاكم المديرية، بشأن تصرفات رجال البوليس! فقام عندها بإلغاء الغرامة. ولم يهدأ غضبي؛ إلا حين تلقيت خطاب إشادة لما قمت به من عمل!.

الفصل الثاني عشر

الرحلة الموسمية للحيوانات البرية

في الركن الجنوبي الشرقي للسودان، تحدث رحلة موسمية للحيوانات البرية، بصورة تدعو إلى الدهشة والاستغراب. ومن المثير حقًا أن تلك الرحلة الموسمية، تشمل أعدادًا هائلة من مختلف الحيوانات البرية، قد تربو أعدادها على بضعة ملايين!. لقد كانت مشاهدة الرحلة الرائعة لتلك الحيوانات، على اختلاف أنواعها وألوانها وأشكالها، وتجلّي صورها الطبيعية البديعة على سهول الأرض الإفريقية البكر، واحدة من أمتع اللحظات التي عشتها، وأجمل المشاهدات التي مررت بها في حياتي!.

يا لغباء الإنسان! ذلك الذي في وسعه ألّا يفسد نسق تلك الرحلة الطبيعية الرائعة!

إنّ المنطقة التي تعرف في السودان بـ(العطش الكبير)، هي: أرض جرداء واقعة في جنوب السودان. يسودها طقس جاف، وخالية من الوجود البشري! تحدها من الشرق هضاب إثيوبيا، ومن الجنوب تحدها التخوم الشمالية من كينيا، وإلى الشمال منها مناطق زراعة القطن ومنطقة السدود على نهر النيل. إنّ ثمّة مظهرين طبيعيّين اثنين، يميزان تلك المنطقة الشاسعة من (العطش الكبير)، هما: جبال النمل والأشجار الشوكية. فجبال النمل تمثل كتلًا ترابية متراصة ذات لون بني يميل إلى الحمرة، تشيدها النّمال على سطح الأرض بإفرازاتها الجيلاتينية!. وثمّة أجسام مخروطية أو أبراج مجوفة على هيئة عمودية، تُرى منسلّةً من كُتل تلك الجبيلات الصغيرة! هذه الأجسام أو تلك الأبراج؛ قد يصل ارتفاع الواحد منها إلى نحو العشرين قدمًا، فيما يتراوح طول قطرها ما بين الست إلى الثماني عشرة بوصة، ولا يتجاوز سمكها نصف بوصة. كانت تلك الأجسام المخروطية تعطي انطباعًا، عن أنّ ذلك الجزء من العالم لا تسكنه مخلوقات!. لم أستطع أبدًا أن أكتشف ما هي وظيفة تلك الأجسام!.

من ناحية أخرى؛ كانت جذوع الأشجار الشوكية عادية ومستقيمة تميل إلى السواد في اللون، ويتراوح سمكها ما بين الثلاث إلى الأربع بوصات، وترتفع إلى ما بين العشر إلى الخمس عشرة قدمًا. والملاحظ؛ قلة فروع الأشجار وأغصانها، بما يفسح المجال لتلك الأشواك الطويلة القوية، والتي تنشأ من قاعدة عريضة بنيّة اللون.

كان هطول المطر باكرًا؛ يؤدي إلى تحوّل عظيم، فيمتد بساط سحري من الأعشاب، تجلّله روائع الزهور وأفواف الورود وأنفاس الرياحين! وهنا؛ سرعان ما تسري الحياة في أجساد الحيوانات، فتبتل بها عروقها، وتمتلئ بها أوصالها!. مع هطول المطر يرتفع منسوب مياه المستنقعات في المناطق الشمالية، وتبدأ الأشجار والحشائش حولها في النمو، مكوّنة مرتع الحيوانات البرية، تلك التي راودتها ذكرى السهول الخضراء، واطّباها عهد مرعى الجنوب الخصيب! فهي من كل ذلك؛ في حبور وغبطة وسرور!

هذا عادة ما يحدث عند نهاية أبريل وبداية مايو. وعند حلول أكتوبر أو نوفمبر – حيث الشمس تبدأ في تجفيف الحشائش في الجنوب، تشرع تلك الحيوانات البرية في الهجرة مجددًا، صوب مناطق المستنقعات في الشمال مرة أخرى. ثمّة تناسق واتساق بديعان، لتلك الرحلة الجماعية ذات التنظيم والترتيب العسكري الصارم! إذ لا وجود للسلوك العشوائي في حركة تلك المجموعات من الحيوانات!. إنها حركة غاية في النظام ذات هدف معين؛ هو العبور السريع لمنطقة (العطش الكبير) التي تقطنها الأسود، وصولًا إلى منطقة السهول الخضراء في أمان.

من ذا الذي يعطي إشارة البداية؟ هل هو ثور الجاموس ذو الجسد البدين؟ أو زعيم حُمُر الوحش؟ أو تلك الزرافة صاحبة العنق الطويل؟ أو هو كبير الغزلان البرية؟ .. لا أدري من هو قائد تلك الرحلة الجماعية، لتلك الحشود العظيمة من مختلف أنواع الحيوانات.

ذات يوم؛ وأنا في صحبة الكولونيل (كيف) من القوات الاستوائية السودانية، قررنا أن نشهد تلك الرحلة المثيرة، التي اختلفت حولها الروايات. لقد كان للقوات الاستوائية السودانية قاعدة في (جبل بوما)، على الجانب السوداني من سفوح جبال الهضبة الإثيوبية. ولقد كانت العناية الطبية جزءًا من مهمتي في تلك الأنحاء، التي أنشأت فيها مستوصفًا كان لزامًا عليّ المرور عليه كل عام!. وكان الطريق الوحيد إلى (جبل بوما)، يمر عبر سهول (العطش الكبير). وكان من الصعوبة بمكان تجهيز قافلة يتجاوز عددها السيارتين. أمّا تلك

الرحلة؛ فكانت في حد ذاتها مغامرة كبيرة.

كان التحدي الرئيسي أمامنا؛ هو الحصول على إنذار مبكر ببداية هجرة الحيوانات. ولكي نتمكن من تجهيز أنفسنا قبل وقت كاف. قام الكولونيل (كيف)، مستخدمًا طائرته الصغيرة من طراز (هونت موث)، بالترتيب لعمل عدة طلعات استكشافية في بعض الأنحاء، التي حسبنا أنّ ذلك السيل العرمرم من الحيوانات سوف يمر بها!.

في اليوم الأول من أبريل من عام 1939، استلمت برقية من الكولونيل (كيف)، تفيد بأنه قد أبصر أرتالًا من الحيوانات المتجهة صوب السهول الشمالية. وكان تقديره أنها على بعد مسيرة ثلاثة أيام من الطريق المؤدي إلى (جبل بوما). وفي الثاني من مايو؛ بعد مسيرة يومين من جوبا، وصلت بعربتي إلى حوض جاف لأحد الأنهار يعرف بـ(الخور الشمالي)، والذي يقع في قلب منطقة (العطش الكبير) على سطوح جبال (كاسانقور). بعد الخور الشمالي كان هنالك سهل منبسط مغطى بالحشائش القصيرة. هذا؛ وبعد قيامنا بعمل بعض الاستكشافات، خلصنا إلى أنّه من الممكن هبوط طائرة الـ(هورنت موث) على ذلك السهل المنبسط!. قمنا بعدها بنصب معسكرنا على مقربة من الخور الشمالي، في منطقة تكثر بها الأشجار الشوكية القصيرة التي منحتنا بعض الظل. لقد قمنا بجلب كمية من الماء تربو على العشرة جوالين! حيث كان أقرب مصدر للمياه يبعد عنّا حوالي العشرين ميلًا، فيما قام الطباخ (محمد)، بحراسة تلك المؤن الحيوية.

في اليوم التالي؛ قدمت طائرة (الهورنت) على حسب الترتيب، حيث قامت بالدوران ثمّ الهبوط بسلام قرب خيمة المعسكر. وبعد الظهر؛ شرعنا في الطيران من معسكرنا عدة أميال صوب الشمال بحثًا عن تلك الحيوانات المهاجرة. ثمّ ما لبث أن أبصرنا ذلك الطوفان الزاحف من الحيوانات البرية المنتظمة في طابور ممتد إلى الأفق البعيد. ومضت طائرتنا الصغيرة محلّقةً على ارتفاع يربو على الخمسين قدمًا فوق ذلك الحشد الكبير، مما أتاح لي فرصة ذهبية لاستخدام آله التصوير السينمائية التي بحوزتي، في تسجيل ذلك المشهد الرائع!. كنّا كلّ مرة نحصي حيوانات كل فريق عدًّا! فنُلفي أنّ متوسط عددها خمسة وعشرين في كل صف! وهي تمضي متراصة متلاصقةً جنبًا إلى جنب، بحيث تلامس أنوفها مؤخرات تلك التي أمامها.

قمنا بالطيران فوق ذلك الحشد العظيم من أرتال الحيوانات التي تسير بهمة ونشاط، ثمّ بالدوران نحو الخلف، حتى وصلنا إلى مؤخرة الحشد الذي قدّرنا طوله بحوالي العشرة أميال.

كانت الـ((Cobs أي: الغزلان البيض، تمثل الغالبية العظمى من تلك الحيوانات، بالإضافة إلى غزلان (منقلا)، وهنالك في وسط ذلك الحشد كنت ترى ثياتل الغزلان؛ ليس بعيدًا عنها الجموع الكبيرة من الجاموس البري. أمّا جماعات الزراف، فكانت تسير حذو الحشد - مجانبةً لجته!

هذا؛ ومن المثير حقًا، ما رأيناه من جموع حُمُر الوحش، والتي كانت مهوّمةً على أطراف ذلك الحشد، وكأنها كلاب حراسة لقطيع من الخراف!. كان ما يتراوح ما بين الثلاثين إلى الأربعين من تلك الحُمُر ذات الشعر الأملس اللامع، تقوم بالركض على أطراف الحشد مثيرة للغبار. بعد إجراء عملية حسابية بسيطة، قدّرنا أنّ متوسط طول الواحد من تلك الحيوانات، لا يتجاوز الستة أقدام، وعليه فإنّ كل طابور من تلك الحيوانات الراحلة، متكوّن من مئتي ألف حيوان - تقريبًا. ثمّ بعد التحليق فوق تلك الحشود الهائلة والدوران حولها؛ تبيّنا عدّة الصفوف، فألفيناها متراوحة ما بين الخمسة إلى الستة صفوف من تلك الحيوانات مجتمعة.

بعد يومين؛ صحونا على صخب وجلبة. وعندما نظرنا من خلال فتحات الخيمة، أبصرنا أشباح الحيوانات تمضي بهدوء - ليس على مبعدة منا!. لقد أبانت الشمس منظرًا خلابًا لا يُنسى لحيوانات؛ تمضي في سير حثيث!.

على مدى ساعتين من الزمان؛ كانت تلك الحيوانات تتكون في معظمها من الـcobs)): الغزلان ذوات الألوان البيضاء. لقد كانت لذكور تلك الغزلان جلود سوداء لامعة وآذان بيضاء وقرون متباعدة، وكانت إناثها ذوات لون يميل إلى الحمرة وما لديها من قرون! وكان لون صغارها يتراوح ما بين السواد والحُمرة.

لقد رأيت ذات مرة ذكرًا ناصع البياض خاليًا من الخصيصة الصبغية! أي: على شاكلة (أولاد الحور). وبعد كثير من الترقّب؛ نجحت في التقاط صورة ملونة له!. لقد كانت صغار تلك الغزلان تجري هنا وهناك، ممّا يثير الفزع لدى أمهاتها. وفي بعض الأحيان؛ يظهر أحد نبلاء الـ(Buck)، ليردع أحدها إن هو حاد عن الصواب.

في غضون ساعة من نهار؛ كنا نرى عديد الإناث مضطجعات لإرضاع صغارهن! لكن وشيكًا ما تراهنّ ينهضن من بعد تلك الاستكانة، فينضممن للجموع السائرة، وصغارهنّ ركوض خلفهن!.

من البديع حقًا؛ مزيج تلك الأصوات المختلفة وهي تشق عنان السماء! ما بين قعقعة

اصطدام القرون، ونفض الذيول واختلاط زفير تلك الحيوانات.

كان ذلك المزيج من الأصوات يستمر بلا انقطاع طيلة اليوم. لكن بين الفينة والأخرى؛ كانت تظهر مجموعات أخرى من الحيوانات، مثل: المها والزراف والجاموس البري وحُمُر الوحش ومختلف أنواع الغزلان.

فعلت تلك الأصوات المتناغمة فينا فعل السحر! وسرى النعاس يداعب أجفاننا، فلم نلبث أن أخلدنا إلى النوم حتى صباح اليوم التالي. كان المعسكر ضاجًّا بحركة البشر، وتنبعث منه بين فينة وفينة رائحة الطبيخ. إلّا أنّ كل ذلك؛ لم تعره تلك الحيوانات الراحلة الذاهبة في حال سبيلها، أدنى انتباه. لم يك وجودنا يبعث فيها أدنى إحساس بالخوف. وكان شغلها الشاغل؛ هو رحلتها عبر تلك الفيافي إلى وجهتها الأخيرة. أمّا نحن؛ فقد كان أقصى همنا، هو الجلوس والاستمتاع بمراقبة ومشاهدة حركة تلك الجموع، ومنظرها البديع الرائع المتنقل المتبدّل بين الحين والآخر!.

عندما حل وقت الظهيرة؛ بدأت طوابير الحيوانات في التناقص تدريجيًا. ولمْ تمض هنيهات؛ حتى هُرع جُلّها في خفة ونشاط عبر الحشائش نحو الهدف! ولم يبق منها ثمّة، سوى القليل القليل!

ظل الطقس جافًا؛ فانتهزت تلك السانحة، كي أقوم بمهامّي بين أفراد القوات السودانية الاستوائية في الهضبة خلف (جبل بوما). تلك الهضبة التي ترتفع حوالي الخمسمئة قدم فوق (جبل بوما)، ذات إطلالة من الناحية الغربية على سهل منطقة (العطش الكبير). لقد كان ميز الضباط واقعًا على حافة تلك الهضبة – على مقرُبة من حافة الهاوية! كانت هناك (مسطبة) طالما جلس عليها الضباط لاحتساء كؤوس النبيذ. لكنّك حين تعلم أنّ قدميك على حافة هاوية عمقها مائتا قدم؛ يدركك صوت العقل: «ألّا تسرف في آخر الكؤوس، لأجل السفر!».

(البمباشي) في قوة دفاع السودان؛ عادة ما يكون حدثًا صغير السن مُعارًا من الجيش البريطاني، ذلك أنّ من كان في رتبة (الملازم) في الوحدات العسكرية البريطانية، يرفّع إلى رتبة المقدّم أي: (البمباشي)، حال إعارته إلى الجيش المصري!. كان أولئك؛ يتحدثون باللغة العربية المتوافقة مع لسان العامّة من الناس، حيث لا التزام في تحدّثها بقواعد النحو والإعراب! وكانوا جيّدين في التخاطب بها.

ذات مرة سمعت (بمباشيًا) سأل جنديًا كان يقوم بغلي بنطاله في ماء ساخن!: «إنت عاوز

تاكل بنطلون بتاعك؟!» فردّ الجندي: «لا جنابك؛ هو بنطلون بتاعي عاوز ياكلني أنا!!»..

بعد عودتنا إلى المعسكر؛ أخبرنا الكشافان اللذان تركناهما وراءنا، عن أحداث مدهشة حدثت في غيابنا!. أخبرانا أنه بعد ذهابنا بيومين، توقفت جموع الحيوانات المهاجرة، وصارت تدور حول المكان، ثم استدارت وقفلت راجعة في اتجاه الشمال!. لقد علمنا فيما بعد؛ أنّ ذلك قد حدث من ذي قبل. ذلك أنّ الحيوانات قد أدركت بحسها الغريزي، تأخّرًا في هطول المطر، مما يعني أنّه ليس من العقل الشروع في عبور منطقة (العطش الكبير)، مع انعدام وجود ماء للشرب!. لذا استقللنا الطائرة مرة أخرى. وبعد برهة قصيرة، أبصرنا على بعد خمسة أميال، موجًا متلاطمًا من أرتال الحيوانات!. بعد أربعة أيام؛ بدأ المطر في النزول، ولم تلبث جموع الحيوانات البرية أن استدارت مرة أخرى، ميمّمةً وجوهها شطر الجنوب.

من المكان الذي أقمنا فيه معسكرنا؛ يمتد طريق قديم يؤدي إلى إحدى النقاط في مديرية أعالي النيل. قمت بالقيادة على ذاك الطريق، حتى بارحت تلك المنطقة ذات الأشجار الشوكية، إلى سهل منبسط مغطىً بنبات (الهليون: **Asparagus**) البري، الذي أينعت أوراقه، وتفاوحت أزهاره، فعطّرت الجو بطيب نشرها ونفثات سحرها!.. إلا أنّ ارتفاع (الهليون) إلى ما فوق الركبة، حال دون متعة التجوال خلاله! لاسيما وأنّ بنطالي كان جدّ قصير!. كانت أرتال الحيوانات البرية المهاجرة متفقةً معي في استصعابي ارتياد مملكة (الهليون)! تبيّن لي ذلك عندما قادني الطريق إلى منعطف خلف أحد الجبال، لأجد قطيعًا هائلًا من الغزلان يسير بعيدًا عن موطن (الهليون!!. وحينما اقتربت العربة من القطيع، أفسحت الغزلان المجال للعربة! لكن كان عددها من الكثرة، بحيث وجدتني وعربتي محاطين بموج متلاطم من تلك الغزلان! ممّا أجبرني على التوقف. وما استطعت أن أتقدّم أو أتأخر!.

كان شعورًا غريبًا؛ أن تجد نفسك حبيس سيل عرمرم من الحيوانات البرية المتدافعة صوب وجهتها! تزكُمُ أنفك رائحة العرق المتنزّي من أعطافها! تلك الرائحة التي سرعان ما أطفأت الإحساس الرائع بطيب الزهور البرية!.

لم تنقضِ ساعتان من زمان؛ حتى استنزفت كل مخزوني من أفلام التصوير السينمائي! ثمّ تمكنت من مواصلة السير إلى نهر (كنقن)، حيث فوجئت بوجود قطيع يربو على مئة رأس من بقر الجاموس البري، التي حالما سمعت صوت السيارة أرخت آذانها ملقيةً السمع لهنيهة! ثمّ ما لبثت تحرّكت قدمًا نحو مصدر ذلك الصوت؛ فلمّا رأتني مترجلًا من العربة، استدارت

لائذةً بالفرار بعيدًا!. غير بعيد أسفل إحدي أشجار الهشاب الضخمة، كان هنالك تجمّع للآلاف من طيور الزرزور **marabou stork**، التي كانت أشبه برجال هرمين مجتمعين لدى نعش أحد الموتى!.

على مقربة من المعسكر الذي نصبناه على طريق الإياب، مررنا على سرب هائل من الجراد، أشبه ببساط بنيّ متحرك في جو السماء! ووشيكًا ما سمعت ومن معي صوت طقطقة، كان مصدره دواليب السيارة، وهي تمضي تدهس واغش الجراد المتقافز بين الحين والآخر!. كان رفيقاي في تلك الرحلة (محمد) و(أحمد)، يجلسان على قمّة متاعنا في الجانب الخلفي من العربة المنطلقة بنا غربًا نحو بلدتنا. وفي الطريق مررنا بثلاثة من قطعان الحيوانات البرية المهاجرة. أولها؛ كان قطيعًا متنقّلًا من غزلان. تلك الحيوانات الوديعة؛ كانت تُناقل بقوائمها الرفيعة الشبيهة بالعصي، مزيّنة الأقفاء بذيول ذات شعر كثيف!. أمّا ثاني القطعان؛ فقد كان سربًا غير متناسق من حيوانات (المها) ذات الصور البديعة، التي ما لها من مثيل!. ثمّ قطيع ثالث يتجاوز طوله نصف الميل من ظباء **Tiang** ذوات الوجوه السوداء، من فصيلة الـ**Hartebeest** .

لقد قمت والكولونيل (كيف)؛ بمحاولة تقديرية لعدد تلك الحيوانات المهاجرة، التي رأيناها في تلك التظاهرة الطبيعية العظيمة. لكنّا لم نجرؤ على القول: إنّ عددها قد تجاوز بضعة ملايين!. لقد تمنّينا يومًا؛ يتمكن فيه مصور سينمائي بارع له من الإمكانات الكثير، من تصوير وتسجيل تلك الهجرة البديعة، لذاك الكم الهائل من الحيوانات البرية، في تلك البقاع الجميلة من الأرض البكر! آملين أن يحرص بنو الإنسان على حماية تلك الحيوانات عبر العصور.

الفصل الثالث عشر

إكمال بناء مستوطنة (الجذام)

إنّ الزائر المتوجس خيفة من مرض (الجذام) ومخالطة المصابين به؛ سرعان ما يتبدد خوفه ويتراجع توجّسه، حيال ما يعاينه في معسكر (اللي رانجو)، حيث مستعمرة (الجذام)!. بعد عام كامل من تأسيس المكان؛ تداعى إليها حوالي خمسة آلاف آدمي – نصفهم من مرضى (الجذام)، ونصفهم من ذويهم! بينما المئات كانوا ينتظرون فرصة الدخول إلى معسكر (لي رانجو)، بغية الحصول على تموين منتظم من الحبوب والزيت والملح وما تيسر من اللحم، إضافةً إلى فدان من الأرض البكر للزراعة، وحياة المعسكر المليئة بالزخم الاجتماعي! الأمر الذي جعل الكثيرين يتصنّعون الإصابة بالجذام، حتى يسمح لهم بالدخول إلى المستعمرة!. كان أولئك الحالمون بالدخول؛ يتفنّنون في وضع الأعشاب التي تؤدي إلى التهاب الجلد! بل يقومون بحرق أجزاء من أطرافهم – خاصة القدمين، كي يبدو وكأنّهم مصابون بالمرض.

كما هو الحال في المستوطنة؛ فقد كان ذوو الإصابات الطفيفة بـ(الجذام) الذين لديهم القدرة الجسدية على العمل، يُمنحون أراضٍ زراعية. ويُتوقّع من هؤلاء؛ أن يقوموا بزراعة ما يحتاجونه من غلال تكفي لطعامهم، خلافًا لأُولئك الذين يعانون من إصابات متطورة. لقد نجحنا في تحقيق كميات وفيرة من محاصيل الفول السوداني والبطاطا الحلوة، إضافة إلى السمسم. أيضًا؛ نجحنا في زراعة الأرز على سفوح الجبال المتدرجة. لكن لم ننجح في تغيير النمط الغذائي التقليدي للزاندي، عندما صار الحال إلى هذه الغلة الغريبة –أي الأرز– على مجتمعاتهم!. كان على كل فرد من أقارب مرضى (الجذام)، أن يعمل في المستعمرة يومًا كاملًا من كلّ أسبوع، مقابلَ حِفنة من الملح. ولكي أحافظ على النظام والانضباط في مستعمرة (الجذام)، تمّ تعييني قاضي محكمة أهلية من الدرجة الثالثة. وتم إعطائي نسخة من كتاب (قوانين السودان).

وهكذا أعطيت لي صلاحيات أن أقوم بمحاكمة من يقوم بخرق القانون، أو يرتكب مخالفة تستلزم العقاب! لكن صلاحياتي تلك؛ لا تخوّلني سَجن من يرتكب مخالفة زيادة عن مدة شهر واحد!. كذلك؛ حاولت تعلم لغة (الزاندي) المحلية، كي ألزم جانب الصواب، وأتمكن من إنفاذ العدالة على الوجه الأكمل. إنّ قيامي بدور القاضي؛ كان تجربة مثيرة حقًا!. وكنت أتبوّأ مكاني هناك؛ فيما يفترض أن يكون قاعة للمحكمة! وأمامي عادة حشد غفير من أناس يشبعهم الفضول والاهتمام، بمختلف القضايا التي قمنا بالفصل فيها. كل يوم؛ وعند حوالي الواحدة ظهرًا، كنا نقوم بواجبنا في تلك (المحاكم الأهلية). رغم أنّ معظم تقديراتي كقاض يمكن تمحيصها من حيث أهليتها القانونية، لكن كنت دائمًا مدفوعًا بنزعتيْ العدالة والرحمة. عندما يقرأ رقيب الشرطة حيثيات الاتهام، كنت أتمعن مليًا في وجوه المتهمين، مستقرئًا ردود أفعالهم العاطفية!. إن (الزاندي)؛ شأنهم شأن غيرهم من بقية القبائل الإفريقية، يجدون صعوبة في إخفاء مشاعرهم. وكان المتهمون يدركون هل هم مذنبون أو لا؟! وكذلك الحاضرون في قاعة المحكمة!. كان رد فعل الحاضرين دائمًا ما يمثل تقديرهم – هل المتهم مذنب أو لا؟. عندما كنت أقوم بإطلاق سراح المتهم في قضية ما، كانت تعلو همهمات هنا وهناك، وكان رد فعل الحاضرين والمتهم عادة ما يكون غاضبًا وسريعًا، لاسيّما إذا كان القرار بالسجن، والمتهم بريء من التهمة! عندها؛ كنت أقوم بتعليق الحكم والاستعانة ببعض حكماء القبيلة والشرطة. كان دائمًا ثمة شهود غير متوقّعين، يسهم ظهورهم في إنفاذ العدالة، والعثور على المتهم الحقيقي!.

كان الكثير من الجرائم الكبيرة؛ من ضرب الاعتداء البدني والقتل تحوّل إلى مفتش المركز. ويلزم ذلك – بالطبع – كثير من التحريات. وعندما يتعلق الجرم بحوادث الاغتصاب، كانت التحريات تستغرق زمنًا ليس باليسير، لك أنّ (الزاندي) قوم مغرمون بتفاصيل التفاصيل!. لقد أخذت هذه القضايا الكثير من وقتي. فقرّرت حينها تشكيل مجلس من زعماء القبيلة للاضطلاع بتلك المهام. الطريف في الأمر؛ أنّ هؤلاء صاروا يجتمعون بصورة شبه يومية للفصل في تلك القضايا. وكنت دائمًا ما أقوم بإنفاذ ما يقررونه من أحكام. كانت الأحكام تتفاوت قياسًا إلى مقدار الجريمة وحجمها. كان الرجل الزاني يغرّم كميّة من الحراب! أمّا جرائم التعدي الشخصي على الأفراد والممتلكات، فقد كانت عقوبتها الجلد! وهكذا ..

بعد عدة شهور طويلة من العمل المضني، وعديد الإصابات بحمى الملاريا، سقطت فريسة للإسهال المعوي الأميبي. فقمت بتوجيه أحد المرضين بإعطائي حقن (الايميتين). كان ذلك

مع بشائر أول (كريسماس) لي في مستعمرة (الجذام) مضى كئيبًا رتيبًا، مع شعوري بالوحدة والغربة وإحساسي بالأسى!. لقد بدأ ذلك الأسبوع بداية سيئة؛ إذ أحضر أحد رقباء الشرطة صديقتي المسكينة (ستنا). كانت (ستنا) إحدى مريضاتي بداء مرض النوم. شفيت (ستنا) من المرض؛ إلا أنّ شفاءها لم يكن على نحو تام! إذ أصيبت بعاهة في خلايا الدماغ، مما أفقدها القدرة على التفكير والتصرف السويّين! فصارت كثيرًا ما تلجأ إلى السرقة والاحتيال. كانت أكثر ما تلجأ (ستنا)، إلى سرقة الطيور الداجنة. كانت جريمتها هذه المرة؛ سرقة ديكي الرومي الذي ادخرته ليوم (الكريسماس)!. لقد قبض رقيب الشرطة على (ستنا)؛ وعلى يديها بقايا من ريش الديك الرومي! لكنّنا لم نستطع -أبدًا - العثور على المكان الذي خبأت فيه جثة الديك!. كل الذي فعلته حينها؛ أن حكمت عليها بالسجن مدة شهر في العراء!. لكن حتى إبّان فترة سجنها؛ لم يسلم بقية السجناء من سرقتها بعضًا من حوائجهم!!.

وعدت مرضى (الجذام) بذبح ثور؛ حتى يحتفلوا معي بعيد (الكريسماس)! ولهذا الغرض؛ وجّهت أحد الرجال كي يذبح الثور. كان ذلك؛ وأنا ما زلت طريح الفراش أعاني من الدوسنتاريا. وفجأة ظهر إلى جواري الرقيب (دوكا)؛ والذي أخبرني أنّ الثور لم يزل حيًا، وطلب مني إعطاءه بندقيتي لكي يطلق الرصاص عليه. فأعطاه (أحمد) البندقية وخرطوشين من الرصاص. بعدها سمعنا دوي طلقتين!. ثمّ لم تمض غير هنيهات، إلا وبالرقيب (دوكا) يأتي مرة أخري! ليبتدرني قائلًا: «آسف لإزعاجك سيدي! فأنا أعلم أنك مريض وطريح الفراش. لكن الثور؛ وبعد أن أطلقت عليه الرصاص، لم يسقط ميتًا! بل استشاط غضبًا، وتخلص من وثاقه، وطعن رجلًا بقرنيه!. لقد فرّ كل الأهالي مذعورين، وفرّ الثور نحو الغابة!. هل يمكنك إعطاؤنا بندقيتك مرة أخري؟».

أحسست عندها؛ أنّ الأمر يحتاج تدخلي شخصيًا! فنهضت من الفراش مجرجرًا قدميّ نحو بندقيّتي، فتناولتها، وخرجت متتبعًا أثر الثور الذي نجحت في اصطياده!. عدت؛ ولكن انتهيت - مباشرة- إلى غرفة العمليات، حيث قمت بخياطة جرح غائر في كتف رجل، قبل أن يقوم أحد الممرضين بإعطائي جرعة مؤلمة من عقار (الإميتين). ثمّ عدت إلى فراشي، لأخلد إلى راحة طويلة.

عند يوم رأس السنة؛ شعرت بكثير من الارتياح. إذ انضم إليّ في العمل الطبيب السوري القائمقام (يونس بي)، منتدبًا من الجيش المصري. لقد كان (يونس) طبيبًا ذا قسط وافر من

الخبرة التي اكتسبها من عمله في جنوب السودان، خاصة في مجال مكافحة مرض النوم. كان (يونس) قصير القامة، ممتلئ البنية، سريع الحركة، يفيض نشاطًا وحيوية، ويملك قدرة رائعة على حسن المبادرة!. بعد قضائه معنا بعض الوقت؛ أطلق عليه الأهالي من (الزاندي) لقب (كانقا)، وتعني في لغتهم: (وحيد القرن)!. قمت بتعيين (كانقا) مشرفًا على مشروع مباني المستشفي، وكذلك مستعمرة (الجذام). لقد مكنني وجود (يونس بي) من الاضطلاع بمهامّي التفتيشية في المراكز الطرفية. وهكذا وجدتني في غاية من الارتياح؛ إذ ثمّة شخص متمكّن يؤتمن عليه في غيابي. ولم تعد تتكرر تلك التجارب المريرة، في إعادة بناء جدران التماسيح!. على العموم؛ صار بإمكاني التركيز على كثير من المهام الطبية، التي كنت لا أجد لها من الوقت متسعًا مع الانهماك في بناء المستشفى والمستعمرة. لم يمضِ طويل زمان على حضور (كانقا)، حتى قدم إلينا طبيب سوري آخر أصلع الرأس تمامًا! أطلق عليه الأهالي اسم (بنجاوي)؛ وهذه تعني البيضة بلغة (الزاندي)!. ولقد أسندت إلى ذلك الطبيب، مهمة الإشراف على مرضى (الجذام).

لقد أثمرت جهودي في تدريب بعض شباب (الزاندي) وآتت أكلها! وما لبث أن صار لديّ مجموعة جيّدة من الممرضين والكتبة وأمناء المخازن والنجّارين وفلّاحي البساتين وصنّاع الطوب، زد إليهم سائق شاحنة الفورد التي وصلتنا حديثًا. لقد تهيّأ لي ما يدعو إلى الإحساس بالراحة؛ حيث اكتمل بناء منزلي، الذي كان أوّل منزل من طابقين في جنوب السودان!. كان أساس ذلك البيت من قطع الحجارة، وجدرانه من الطوب، وسقفه من القش المحلي المدعوم بألواح من الخشب والبامبو. لقد كان مدخل البيت واسعًا يقود إلى صالة مفتوحة. وعلى يسار المدخل، قاعة الطعام المنتهية إلى المطبخ. وعلى اليمين من المدخل، كانت غرفة الجلوس التي تقود إلى معمل وغرفة مكتب. أمّا الحمام فقد كان عند منتصف المسافة، على السلم الذي يقود إلى الطابق الثاني، والذي ينقسم إلى غرفتين للنوم: إحداهما على الجانب الأيمن، والأخرى على الجانب الأيسر. وثمّة (فراندا) أعلى غرفة الجلوس، كنت أجلس فيها عند الصباح لتناول الفطور، وعند المساء لاحتساء النبيذ. وفوق الحمّام؛ كان هناك برج مربع يرتفع منه علم عند وجودي في المنزل. كانت المدفأة التي في غرفة الجلوس مدعاة لافتخاري! إذ نُحتت جوانبها من صخور (الجرانيت) المأخوذة من منبع نهر (الرانجو)، وأبدع الصنّاع المهرة في تصميمها أيّما تصميم. أمّا النوافذ، فقد صنعت براويزها من المعدن، وغطّيت بالزجاج الذي يستعصي على النمل الأبيض النفاذ منه. لقد كانت تكلفة بناء ذلك المنزل أقل من ميزانية الخمسمئة جنيه

المرصودة له أصلًا! ذلك أنّ تكلفة العمالة وبعض المواد غير مضمّنة في الفاتورة النهائية! إذ كانتا مجّانًا!

اكتمل بناء المستشفى الذي شيد من الطوب الأحمر. كان المستشفى يتكون من قسم للعيادة الخارجية، وعنابر للمرضي تسع ثمانين سريرًا، وغرفة للعمليّات الجراحية. ولقد تجاوزت تكلفته المبلغ المرصود بستمئة جنيه! حيث المبلغ المرصود لم يكن ليتجاوز الخمسمئة جنيه!. كانت هنالك أيضًا؛ مبانٍ للمدرسة، وسكن للموظفين، وسكن لاثنين من الأطباء، وبقالتان، وسجن، ومخزن للغلال، وآخر للمعدات الطبية، وثالث للمعدات الزراعية. كل هذه المباني؛ شيدها عمالنا المحليّون والعمالة المؤقتة من ساكني المستعمرة. لا يفوتني ذكر إنشاء مهبط ومدرج لطائرات سلاح الجو الملكي البريطاني في فناء المستعمرة، لدواع إستراتيجية. لقد وافقنا حينها؛ على تشييد ذلك المدرج وفقًا لمواصفات سلاح الجو الملكي، بتكلفة رمزية لم تتجاوز الثمانين جنيهًا!. تم إخطاري – وقتئذ– أنه حال تمكّني من قيادة سيارتي في ذلك المدرج بسرعة خمسين ميلًا في الساعة؛ فهذا يعني مطابقة المواصفات المطلوبة لعمل المدرج. لقد بُني البرج اللازم على هيئة جبل النمل – بوصفه معلمًا لهبوط الطائرات. كان البرج يبدو في ظلمة الليل مثل نبات الفطر **Mushroom**!. وعندما حلّ ذلك اليوم الذي سوف تهبط فيه أول طائرة؛ سري خبر بين الأهالي، أنّ ثمّة طائرًا عملاقًا غامضًا يحمل في جوفه اثنين من الرجال، سوف يظهر من خلال تلك الأدغال الإفريقية!. في ذلك اليوم؛ تجمهر أفراد قبيلة (الزاندي) حول المدرج. وطوال ذلك الصباح؛ كنت تسمع ضوضاء القوم وهم يهمهمون تارة، ثمّ يعلو صياحهم وترتفع أصواتهم تارة أخرى. عند منتصف النهار؛ سري طنين وأزيز غريب في الأفق، وحدّقت مئات الأعين صوب مصدر الصوت! مئات الأعناق اشرأبت، ومئات الأعين ارتفعت تنظر إلى السماء! وفجأة؛ برز ذلك الطائر العجيب المدهش! يا للعجب!! لم يكن طائرًا واحدًا، بل طائريْن اثنيْن!!. وكانت أجنحتهما مشرعة في السماء. كان ثمّة هدير هائل ينبعث من كلا الطائرين! هنا هُرع أحد العساكر مبادرًا بإشعال نار تصاعد دخانها ليبيّن اتّجاه الرياح. لحظتئذ؛ قامت الطائرتان بالدوران فبالهبوط تدريجيًا – واحدة تلو الأخري– على المدرج متوقفتيْن عند فِناء المستعمرة. ثمّ خرج من جوف كل واحدة رجلان!!.

عند ظهيرة ذاك اليوم؛ جرى الترتيب لي بصحبة (كانقا)، لعمل جولة استكشافية حول المستعمرة والمستشفي. الطريف أنّ أحد رجال قبيلة (الزاندي) علّق قائلًا: «مثل ذلك الطائر

العجيب يمكنه الهبوط من السماء، لكن لثقله وعظم حجمه، لا يمكنه الطيران مرة أخري!!». وقفت تلك الجمهرة تنظر بصمت إلى الطائرة وهي تسير على المدرج، وهدير محركاتها يشق عنان السماء. وعندما حانت لحظة الانطلاق في الجو؛ حبس القوم أنفاسهم! ثمّ انطلقوا يعدُون خلف الطائرة وهم يصيحون!.. «كانت تلك خدعة لسرقة أطبائنا! ارجعوهم إلينا مرة أخري!!». هكذا صرخ أحد رجال (الزاندي)، والطائرة تحلق فوق المستعمرة!. عند هبوطنا؛ جمعنا زعماء القبيلة وأخبرناهم، أنّ الطائر العظيم سوف يأخذ اثنين منهم في تحليق تجريبي!. ولسرعان ما استجاب أكثر من متطوع، لينال ذلك الشرف. فقررت عندئذ؛ أن أستصحب أحدهما، على أن يستصحب (كانقا) الآخر!. كنت مبقيًا على حذري وتحفظي!

فعندما حلقت الطائرة في الفضاء، قام الزعيم الذي في صحبتي بالانحناء خارج نافذة الطائرة، وهو يصيح ويهتف تجاه جموع القبيلة تحته، مما اضطرني إلى إلزامه بالجلوس على مقعده!. أمّا رفيق (كانقا)؛ فقد لزم مقعده محتفظًا بوقاره وكبريائه، ورافضًا أن يتحرك ألبتة، إلى حين هبوط الطائرة!. كان من المقرّر أن تغادر الطائرتان صباح اليوم التالي. لذا فقد قامت جموع (الزاندي) بالمبيت جوار المدرج، لئلا تفوتها لحظة وداع الطائرتين!.

بعد مرور شهرين على تلك الواقعة؛ هاجمت المستعمرة أسرابًا من الجراد قضت على نصف محصول ذلك العام، رغم استنفارنا كل أحد لدرء خطرها! وهنا علّق أحد سحرة القبيلة بقوله: «إنّي لأعلم من أين أتي هذا الجراد؟ لقد باض ذاناك الطائران العظيمان بيضًا خرجت منه أسراب الجراد.! فهما الأم والأب لهذا الجراد! لا غيرهما!!».

يوم السبت؛ هو أكثر أيّام الأسبوع ازدحامًا بالعمل في المستوطنة، وعادة ما يتوافد فيه مرضى (الجذام) على المستشفى منذ الصباح الباكر. ومن بعد؛ يبدأ التمام الصباحي بتدوين حالات الغياب. من قبل الممرّضين الذين صاروا خبراء في إعطاء الإبر الوريدية! وقبل ذا، يقومون بغلي الإبر وأنابيب الحقن، ومن ثمّ تجهيز إبر (الشولموقرا) الزيتية: العقار الذي كان يستعمل لعلاج مرض (الجذام) في تلك الأيام. بعدها يبدأ مرضى (الجذام) في المرور عليّ وعلى (كانقا)، حيث نقوم بتسجيل ملاحظاتنا في سجل كل مريض، وتحديد جرعات الدواء في المرة القادمة. لدى ختام المقابلة؛ يكون كل مريض قد نال مسحة من اليود في أعلي عضلة العجز، حيث يقوم الممرضون بحقنهم في عمق تلك العضلة!. قبل خروجهم؛ يمر مرضى (الجذام) على كاتب الغلال، الذي يقوم بتسليم كل مريض حصته من الغلال، وحفنة من الملح، وقدرًا

معلومًا من الفول السوداني. يستمر ذلك طوال اليوم بلا انقطاع، حتي يتم تقديم العلاج لآخر مريض من مرضى (الجذام). عندما يتجاوز عدد الذين ينالون جرعات العلاج الألف وخمسمئة مريض، نقوم بإضافة يوم آخر من أيام الأسبوع، التي صارت - هي الأخري مزدحمة بالعمل والمهام- حتى نكمل إعطاء الحقن. إلى ذلك قرّرت إخضاع كل مريض بـ(الجذام) لكشف طبي وفحوصات مخبرية شاملة؛ أقلّها مرة كل ثلاثة أشهر. لكن التزايد المضطرد في عدد المرضي، جعل الإيفاء بذلك كان أمرًا مستحيلا. لذا؛ صرنا نقوم بذلك مرتين في العام.

لقد أوضحت التجارب أنّ أثر عقار زيت (الشولموقرا) ضعيف نسبيًا في علاج مرض (الجذام)، فتمّت الاستعاضة عنه بدواء آخر حديث أكثر فعالية في شفاء المرضي. في تلك الأيام؛ كانت أدوية (الجذام) تحدث أثرًا ما في علاج المرض. لكنّي على قناعة؛ أنّ تحسن حالة المرضي، مردّه إلى تحسن مستوي المعيشة والتغذية الجيدة! على العموم؛ كنا مستمرين في إعطاء العلاج بالحقن، لأنّ تلك الوسيلة كان لها الأثر النفسي لدي المرضي. هنالك عامل آخر - في تقديري- مرتبط باكتشاف علل أخري، خاصة الطفيليات من الديدان، مثل: الدودة الشريطية، ودودة الإنكلستوما، والدودة المستديرة. تلك الديدان -على اختلاف أنواعها- تؤدي إلى إصابة أولئك البؤساء بأمراض سوء التغذية والأنيميا، التي تضعف مناعتهم.

مرضى (الجذام) ذوو الأطراف المبتورة؛ يمثلون شريحة خاصة بين مرضاي. بعض هؤلاء؛ من الذين انطفأت لديهم جذوة المرض، فلا تنتقل العدوى منهم إلى غيرهم!. لذا؛ لا تكون ثمة حاجة ماسة إلى عزلهم في أماكن منفصلة. لكن العامة من الناس يتجنبون مرضى (الجذام) - أيًا كانوا- خشية العدوى!. فهؤلاء المرضى يتعرضون لمعاملة سيئة مصدرها دواعي الخوف حتي لدى أقرب الناس إليهم! ممّا يعرضهم للتجاهل والإهمال. ولهذا؛ كانوا أكثر الفئات التي مددنا لها يد العون الإنساني قبل الطبي!. لاسيّما وأنّ أكثرهم فقدوا أطرافهم من أصابع القدمين واليدين!. كنا عادة ما نقوم بإسكانهم في أكواخ حول مباني المستشفي، ونُعطيهم ذات القدر من التموين الذي يناله المرضى الآخرون. رغم عاهاتم تلك؛ كنت تجدهم دومًا أكثر المرضى تمتعًا بالمرح والسعادة! وليس مُستغربًا أن تعثر على بعضهم في ساحات المحاكم بتهمة الزنا! حتي أولئك غير القادرين منهم على العمل مقابل الأجر الزهيد، تراهم وقد وجدوا ضالتهم في حضور جلسات المحكمة، حيث يزجون وقت فراغهم!

اكتشفنا بعض حالات مرض النوم في منطقة (يامبيو)، فخصصنا مساحة صغيرة في

المستوطنة لأولئك المرضى وأسرهم. وعلى الرغم من أنّ حالات المرض لم تتجاوز المئة، إلا أنّ الجلسات الإضافية لمثل تلك الحالات كانت مطلوبة لإعطاء حقن إضافية. كذلك كانت هناك حاجة لعمل التحاليل في معمل المستوطنة.

بدأ العمل الطبي العام يزداد بكثافة وسرعة مطردة، الأمر الذي استغرق جلّ وقتي! ووجدت أنّه من الصعوبة بمكان، إيلاء مرضى (الجذام) الاهتمام الذي كنت أوليهم إياه في السابق! ولم يعد في وسعي غير تنظيم رعاية لأولئك المرضى بصورة روتينية، أعانني عليها وجود الكادر المؤهل المساعد، الذي عمل على سد تلك الفجوة. في فصل الجفاف؛ عادة ما تكون أسرّة المرضى الثمانين مشغولة جميعها بالمرضي، مما اضطرنا إلى إنشاء بعض الأكواخ العشبية، لتمريض الحالات الأقل حرجًا! وبمجرّد حلول موسم الحصاد؛ تبدأ أعداد المرضى في التناقص. وذلك مرده إلى أنّ معظم السكان يكونون في الحقول، فلا تلجئهم إلى المستشفى إلا الحالات الطارئة.

عند كل صباح؛ تكون هنالك جلسات طويلة في العيادات الخارجية، أطبّب خلالها مختلف الحالات – من إعطاء الحقن لمرضي الزهري، وتضميد الجروح، وعلاج الديدان، وفتح الخرّاج الصديدي، وعلاج التهابات الأذن، وعلاج رمد العيون، واستنفاد الدودة الغينية، وعلاج حالات الالتهاب الرئوي، وخلافه. كثير من أولئك المرضى اضطُروا إلى المسير راجلين عدة أيّام، حتى يصلوا إلى المستشفي! لم يكن أولئك المرضى في حاجة إلى التنويم في العنابر، لكنهم كانوا في حاجة إلى مكان يؤويهم عدة أيام. فاضطُررنا إلى بناء بعض الأكواخ التي كنا نستعملها نزلًا مؤقتًا لهم. كما لم يكن بوسعنا توفير الطعام لكل أولئك المرضى وذويهم، مما ألجأنا إلى الترتيب مع التجار الشماليين، كي يوفروا غلالًا وبضائع أخري مثل دقيق كسافا والفول والسكر والملح والشطة وخلافها.

يوم الإثنين من كل أسبوع، كان مخصصًا لإجراء العمليات الجراحية. أمّا تلك المتعلقة بالحالات الطارئة، فيندر أن يمر يوم دون إجراء العملية والعمليّتين!. وممّا يبعث على الارتياح، أن أرى أفراد قبيلة (الزاندي)، وقد صار لديهم استعداد لتلقي العلاج في المستشفى، خاصة العمليات الجراحية! حيث كان من الصعب اقتناع أولئك القوم منذ الوهلة الأولى، وجعلهم أنفسهم تحت رحمة الطبيب الأبيض الغريب، قبل أن يلجأوا إلى استشارة ساحر القبيلة والمنجمين – وهؤلاء درجات؛ فالمنجم الأكبر (بنجي)، والمنجم الأصغر (أيوا)!!. ولقد تبيّن

لنا؛ أنّه كلما ازداد عدد المرضى الذين أجريت لهم عمليات جراحية وتم شفاؤهم، كلما قل عدد أولئك الذين يلجأون إلى سحرة القبيلة!. لقد كنا حريصين على ألا نعالج الحالات الميؤوس منها، رغم حدوث الوفيات بين فينة وأخري! لكن في الغالب الأعم؛ كانت تلك حالات متعلقة بالحوادث أو الاعتداءات. وبالتالي؛ لم يُنح أحد باللائمة علينا!.

بعد اتساع نطاق عمل المستشفى؛ والذي كان يخدم منطقة سكانها حوالي المئة وعشرين ألفًا، غدا من الضروري عمل دورات تدريبية لكوادر صحية، يمكنها علاج حالات الرعاية الصحية الأوليّة، في مراكز تنتشر في مختلف أماكن تجمع السكان في المنطقة. بدأنا أولًا بإنشاء شبكة مستوصفات ابتدأناها بالقري التي بها زعماء القبيلة. ولقد أنيط بهؤلاء تدبير الدعم المالي لإنشاء المباني، على أن يتكفل المستشفى بتوفير المستلزمات الطبية والمُعِدّات. تم التغلب على معضلة الكادر الصحي اللازم لتلك المستوصفات، عبر الاستعانة بالقسيس الأب (كانون قور) - مرة أخري! الذي أعانني بمتطوّعين من طلبته في السنة النهائية. كانت الاستجابة جدّ سريعة؛ ومعبرة عن مدي الأثر الجيّد للمستشفى والمستوطنة في حياة الأهالي. قمت بضم ثمانية من طلاب السنة الأولي، لينخرطوا في برنامج طموح لتدريب ممرضين للعمل في تلك المستوصفات. كان البرنامج مكثفًا في البداية؛ وسرعان ما آتت جهودنا في التدريب أكلها. في فترة لاحقة؛ كان البرنامج أقل كثافة، لكن كان الرواد الأوائل هم الأفضل من حيث الملكات ومستوي الأداء.

كل يوم أربعاء؛ كانت هنالك ساعة من زمان مخصصة لمراجعة ما تمت دراسته خلال أسبوع. أما بقية اليوم؛ فكنت أسعى لأن يقضيه الطلبة في البستان المخصص لزراعة الخضروات. كل صباح؛ كان الطلاب يحضرون جلسات الكشف على مرضى (الجذام)، وينالون حصصًا عن كيفية تجهيز وإعطاء إبر علاج (الجذام). كانت تلك الحصص لا تتجاوز نصف ساعة من زمان. وكنت حريصًا على ذلك؛ ضمانًا للاستيعاب إلى أقصي حد ممكن. وكان في تقديري؛ أنّ نصف الساعة ذاك، كاف لجعل الطالب في قمة التركيز.

بعد سنتين شاقتين من العمل الدؤوب المضني الذي لا يتخلله سوى القسط القليل من الراحة، مضاف إليه ما كان يعتورني من نوبات الملاريا وعاديات الدوسنتاريا - أدركت أنّ وقت العودة إلى الوطن قد حان، فاتخذت قرار الإجازة!. قبل رحيلي؛ قمت بكشف حساب لما أنجزته. لقد كان الذي أنجزت كثيرًا ومثيرًا حقًا، بل ومدعاة إلى الفخر والاعتزاز!. لقد قمنا -

بنجاح- بعمل مسح طبي كامل لكل سكان المنطقة، البالغ عددهم مئة وعشرين ألفًا – مرّتين! وتسجيل ألف وثمانمئة من مرضى (الجذام)، وألفين وسبعمئة من أقاربهم. كل أولئك؛ جرى إطعامهم وإسكانهم في المستوطنة!. كما تمّ تنظيم العمل الطبي على أكمل وجه في المستشفى، وتقديم العلاج لحوالي الخمسمئة من مرضى (الجذام) بصورة منتظمة طوال العام.

إلى العديد من المباني التى شيّدت بالطوب الأحمر؛ تمّ عمل مسح لمنطقة مساحتها حوالي الثلاثين ميلًا مربعًا، مع تعبيد أربعين ميلًا من الطرق، وإنشاء العديد من الجسور، وحفر مجموعة من الآبار، وزراعة الكثير من أشجار الفواكه، وإصلاح وزراعة الهكتارات الزراعية من الأرض بالغلال، وأخيرًا تشييد مهبط للطائرات. ضف إلى ذلك مليون قطعة من الطوب الأحمر، أنتجتها كمائن الطوب! كما تمّت صناعة العديد من قطع أثاث المنازل، على أيدي فريقنا من النجّارين وقاطعي الأخشاب.

لقد جرى تدريب ستة من شبّان (الزاندي) ليصبحوا ممرّضين، فيما تمّ تدريب أربعين آخرين على القيام بمهام التمريض البسيطة. وشرعت كذلك؛ في تأسيس مدرسة لمساعدي الصيدلة. إلى ذلك؛ فقد أجريت خمس عمليات كبيرة، وقدّمت العلاج لكثير من المرضى في أقسام التنويم والعيادات الخارجية. كما تمّ بناء كنيسة ومدرستين، وزراعة الكثير من الأشجار والزهور، التي أكسبت المستشفى والمستوطنة منظرًا يشرح الصدور ويبعث الحبور.

عند بداية الأمر؛ كانت ظروف العيش لدى الكادر العامل في المستوطنة غير مرضية. لكن وبمرور الزمن، تحسنت الأحوال.

قبل أن أغادر لقضاء الإجازة؛ استلمت أوّل خارطة مطبوعة للمنطقة. كانت فيها الإشارة إلى موقع الـ (لي رانجو) جدّ واضحة!. لقد كان ذلك – حقًا – إيذانًا بعهد جديد في تاريخ تلك المنطقة، التي يقطنها نصف أفراد قبيلة (الزاندي)! كما مثّل ذلك خطوة جبارة في القضاء على مرض (الجذام)، بل والمساهمة في علاج الكثير من الأمراض المستعصية، التي صار من السهل علاجها الآن.

أخيرًا؛ تمّ تأسيس مدرسة محلية لتدريب أبناء (الزاندي) -على وجه الخصوص- من أجل مستقبل صحي معافى لجميع أهليهم.

الجزء الرابع

الفصل الرابع عشر

سنوات الحرب

في شهر يوليو من عام 1939؛ إبّان زيارتي إلى أرض الوطن في إجازتي السنوية، كانت نذر الحرب العالمية الثانية تلوح في الأفق. ذهبت حينها إلى (أبردين)، لتمثيل السودان في مؤتمر الجمعية الطبية البريطانية. كان ذلك بمثابة الحدث المهم في تاريخ مدينة (أبردين)! إذ كانت المرة الثانية لانعقاد ذلك المؤتمر في (أبردين) منذ عام 1914، حين انعقد المؤتمر هناك لأوّل مرة. بعد ذلك بحوالي شهر، صدرت التعليمات لكل موظفي المستعمرات البريطانية والمسؤولين البريطانيين في السودان، والذين كانوا في إجازة في بريطانيا، بالعودة إلى أماكن عملهم في الخارج. لقد تمّ نقلنا بالبارجة الحربية (س. س راميليسو)، مصحوبة بعشر من الفرقاطات الحربية! ونحن في ميناء (جلاسقو)، ورد إلينا نبأ تعيين (ونستون تشرشل) وزيرًا للحربية، الذي قوبل بصيحات التهليل.

كان ذلك الحشد الرائع من إحدى عشرة سفينة تسير جنبًا إلى جنب، منظرًا يثير الشعور بالزهو والفخر في تلك الظروف. قمنا بالدوران في أعالي المحيط الأطلنطي، قبل أن ننحو تجاه مياه البحر المتوسط. عند (بورسعيد)؛ غادر كل موظفي الخدمة العاملة في السودان متخذين طريقهم جنوبًا بالقطار إلى (حلفا) ثمّ (الخرطوم). غادرت بعدها صوب (جوبا)، لمزاولة عملي في جنوب السودان.

بعد مرور ستة أشهر؛ تسارعت الأحداث، وتأزمت الأمور! حين دخلت إيطاليا الحرب إلى جانب (هتلر). قبلها أكمل (موسيليني) احتلال إثيوبيا وإريتريا إبّان السنوات الخمس قبل الحرب. بعدها؛ قام بتقوية استحكاماته هناك على الحدود بين السودان وجارتيه من ناحية الشرق، والتي تمتد لحوالي الألف ميل، في أرض ذات طبيعة قاسية وتضاريس جبلية

وعرة!. كان (موسيليني) يهدف إلى غزو مصر، كي يتحد مع المارشال (روميل): الملقب بثعلب الصحراء، والذي كان قد بدأ غزو مصر من ناحية الصحراء الغربية!. كان السبيل الوحيد لتحقيق هدف (موسيليني)، هو السيطرة على السودان أولًا، ثم الهجوم على مصر من بوّابتها الجنوبية عبر النيل. وقتها؛ لم تكن هنالك قوات حربية في السودان، سوى فيلق بريطاني وحيد مرتكز في الخرطوم، مضافًا إليه قوة دفاع السودان المكونة من جنود سودانيين بقيادة ضباط بريطانيين. قبل ذلك بحوالي عام؛ كان ذلك الخاطر مصدر قلق بالغ لدى البريطانيين في السودان، مما دفعهم للقيام بتسريح بقايا الجنود المصريين، وشرعوا في تقوية قوة دفاع السودان وزيادة عدد أفرادها.

إبّان حقبة السلام؛ كان يتم تزويد تلك القوة باحتياجاتها الطبية، من قبل الخدمة الطبية السودانية. لكن اختلف الحال – تمامًا – مع اختلاف الظروف الناشئة عن الحرب الكونية. الأمر الذي حدا بتكوين قوات طبية عسكرية، لسد احتياج هذه القوة المتزايدة العدد. تمثلت تلك الخطة؛ في إنشاء ستة مستشفيات عسكرية ميدانية، مزودة بإمكانات جراحية متطوّرة حسب مقياس ذلك الزمان، على أن تتمّ تقوية كل واحد من تلك المستشفيات بمستشفى عسكري مثيل، بقيادة طبيب بريطاني منتدب من الخدمة الطبية السودانية، وينوبه طبيب سوداني من خريجي كلية (كتشنر) الطبية. كانت الخطة قد نفذت بالفعل؛ حين بدأ الإيطاليون عملياتهم الحربية على الجبهة الشرقية في السودان. حينها لم يكن الوقت كافيًا لانتداب كادر بريطاني على جناح السرعة، لتقوية قيادة قوة دفاع السودان في تلك المنطقة. لذا فقد تمّت الاستعانة بموظفي الخدمة السياسية البريطانية من مفتشي المراكز. وعُيّن هؤلاء في وظيفة بكباشي: مقدّم (كابتن) في قوة دفاع السودان. كان لإلمام أولئك النفر من المفتشين البريطانيين باللغة العربية، ومعرفتهم بالطبيعة الجغرافية لتلك المنطقة وأهاليها، دور فعال وأثر قوي في ترجيح كفة قوّات الحلفاء! فغدت ربّة اليد الطولى، وصاحبة القِدح المعلّى، في ذلك الصراع الدموي على جبهة السودان الشرقية!. أما الإيطاليون؛ فقد أصابهم الذعر، وقرّروا اتخاذ موقف دفاعي، لم يجرؤوا بعده على القيام بأي محاولة غزو جديدة!.

حينما نما إلى علمي نبأ تلك الأحداث المثيرة في الشمال، بدا لي أنّ عملي في جنوب السودان قد أكمل! وأنّني في حاجة إلى التغيير، وأنّ ما يجري بمثابة فرصة للمشاركة الفعلية في الحرب!. خاطبت مدير الخدمة الطبية السودانية، أنّ ثمّة خدمة طبية متكاملة الآن في جميع أرجاء

المديرية الاستوائية، وأنّ تلك الخدمة يمكن لأربعة من الأطباء البريطانيين تسييرها الآن بدلًا عن خمسة. ولذا؛ يمكن الاستغناء عن خامس الأطبّاء، كي يُسهم في الخدمة العسكرية! وما دمت الأعزب الوحيد بين رفاقي، فأنا الأجدر بالانخراط في الخدمة.. أستجيب لطلبي ذلك بسرعة مذهلة!. وعلمت فيما بعد؛ أنّ اسمي قد تمّ ترشيحه من قبل، لشغل وظيفة كبير المفتشين الطبيين في (بورتسودان): الميناء الوحيد في البلاد. وفي شهر مايو؛ عُيّنت في وظيفة (قائمقام)! وهي الرتبة التي تعادل رتبة العميد في الجيش البريطاني. ذلك أنّ (قوة دفاع السودان) قد احتفظت بالمسمّيات التركية للرتب العسكرية، أسوةً بالجيش المصري.

كانت قناة (السويس) معطلة -وقتها- مما أكسب ميناء (بورتسودان) أهمية حيوية لدى الحلفاء أثناء فترة الحرب، باعتباره المنفذ الوحيد لدخول الواردات إلى البلاد. كان في (بورتسودان) مستشفى مدني يستقبل كل الحالات الطبية والجراحية من الجيش البريطاني، وسلاح البحرية الملكي، ووحدة الأغاريق للغواصات، والجيش الفرنسي الحر، وقوة دفاع السودان، والوحدات الهندية التي وصلت حديثًا إلى المنطقة. بالطبع؛ كان المستشفى يقدم خدماته لأهالي (بورتسودان) والأطقم البحرية للسفن التابعة للدول المحايدة. كانت هنالك مشاكل عدة متعلقة بالصرف الصحي وصحة البيئة؛ زاد من تفاقمها ازدياد عدد السكان، مما تتطلب الكثير من المعالجات. لمّا استفحلت تلك المشاكل؛ أعارتني الإدارة العسكرية طاقمًا مختصًا بصحة البيئة، لمساعدتي في حلها.

من الناحية الاجتماعية؛ كان بـ(بورتسودان) ناديًا ممتازًا، يحتوى على حوض للسباحة، وما يمكن اعتباره - مجازًا - ملعبًا للغولف، يجلّله القليل من النجيلة والحشائش والعشيبات ذات الأشواك القاسية، التي كثيرًا ما تنغرس فيها كرات القولف!!

كان منزلي مطلًا على الميناء إطلالة بديعة، أشبه بلوحة رائعة تتغير بين الفينة والأخري!. كنت ترى سفن الركاب والفرقاطات الحربية تعبر أمامك، تتخلّلها زوارق الأهالي المحلية واليخوت. وعلي مسافة هناك عند مدخل الميناء؛ كانت تقبع كثير من السفن الراسية التي تنتظر دورها لدخول الميناء. كانت الحياة في الميناء تعج بالمشغوليات وزخم الأحداث! ترى الناس إليها من كل صوب ومن كل حدب ينسلون! وقد اختلفت ألسنتهم وألوانهم! وتعدّدت مللهم وأعراقهم! وتباينت أزياؤهم وهيئاتهم! فكنت تسمع لغات غريبة تمازج الإنجليزية وتتخلل العربية!.

ذات يوم؛ انتهت إلى الميناء وحدة من مجنّدات جيش جنوب إفريقيا. كنّ أولئك المجنّدات غاية في الأناقة! وكان منظرهن البديع؛ جدّ متمايزًا مع مظهر أبناء الهدندوة: ذوي الشعور الكثّة المنفوشة!. أحدث ذلك الزخم لديّ كثيرًا من العزاء والراحة، لاسيّما مع تنوّع مهامّي الطبية، وعقابيل ما قاسيته من عنت طوال تلك السنوات الرتيبة، التي قضيتها في جنوب السودان.

لحسن الحظ؛ لم يُوفق الإيطاليون في القيام بطلعات جوية ناجحة، على الأهداف الحيوية في ميناء (بورتسودان). كانوا يقومون - كل أسبوع- بمحاولات يائسة، حيث يُضطرّون إلى التحليق على ارتفاع شاهق، ليطلقوا قذائفهم بصورة عشوائية!. لم تصب غارات الإيطاليّين تلك، سوى ثلاثة خرفان ودجاجتين!! فيما كانت قوة الدفاع الجوي تتكون من سرب من طائرات سلاح الجو الملكي البريطاني، مطعّمةً ببعض الطائرات من الطراز العسكري القديم. كانت تلك الطائرات؛ دائمًا ما تقوم بمطاردة الطائرات الإيطالية الحديثة والسريعة، لكن بلا طائل! ومع ذلك الإحباط؛ فقد نفذ أولئك الطيارون الأيفاع، عمليات هجومية على بعض الأهداف في مناطق العدو، وحققوا نتائج أفضل.

كان ظهور أربع من المدمّرات الإيطالية -ذات يوم- وهي في طريقها إلى الميناء؛ حدثًا خطيرًا! لكن ولحسن الحظ، فقد وصل الخبر إلى حاملة الطائرات (إيجل): تلك المرابطة عند قناة السويس؛ التي قامت على التو بإرسال سرب من طائرات (الفولمار)!. وعند ظهيرة ذلك اليوم؛ تمّ إغراق اثنتيْن من المدمّرات، بينما لاذت الأخريان بالفرار صوب ساحل الجزيرة العربية، على الناحية الأخري من البحر الأحمر! فيما كانت المعركة الفاصلة تجري على ساحة (كرن) في إريتريا. كانت القوات البريطانية الهندية السودانية المشتركة تحت إمرة الجنرال (بلات)، في التحام دام مع القوات الإيطالية المدعومة ببعض الوحدات الألمانية. لقد كانت الخسائر باهظة؛ بيد أنّ الجنرال (بلات) حقّق نصرًا مؤزرًا - آخر الأمر- على قوات المحور، ممّا أدى إلى تلاشي الخطر في هذه الجبهة من جبهات الحرب.

لقد تم نقل المصابين من موقعة (كرن) إلى مستشفى (بورتسودان). وممّن خلدوا في ذاكرتي؛ أحد أفراد وحدة (كاميرون) من مرتفعات أسكتلندا الشمالية. كان ذلك الجندي ذو الشعر الأحمر، مصابًا بكسر مركّب في رِجله، وعندما قمت بتفريغ شنطة متاعه، سقط طقمان من الأسنان الاصطناعية، فابتدرته سائلًا:

«طقمان؟.. لماذا؟!»

فأجابني بلا تردد:

«حسبت أنني سآكل وجبتين في العشاء!!».

بعد معركة (كرن) الفاصلة؛ لاذ الإيطاليون بالفرار، واستسلمت (أديس أبابا) للفرقة الجنوب إفريقية التابعة للجنرال (كننغهام). وتمّ نقل الإمبراطور (هيلاسلاسي) معززًا مكرّمًا من الخرطوم، واستعاد عرشه السليب!.

في شهر مايو؛ وإبّان تقدّم القوات البريطانية على طول مرتفعات البحر الأحمر وساحل إرتريا جنوب (بورتسودان)، تلقيت رسالة مستعجلة من قائد إحدى الوحدات برتبة عميد، تفيد أنّ ثمّة اشتباهًا في أنّ بعض الأهالي قاموا بتسميم مياه الآبار! كانت الرسالة مضمّنةً طلبًا مفاده التحقق من ذلك بالكشف على ماء الآبار. اتصلت -علي الفور- بقائد المنطقة العسكرية، طالبًا تزويدي بالمعدات اللازمة للكشف على السموم. كما قمت بترتيب طائرة تنقلني على التو إلى تلك المنطقة! وسريعًا ما استلمت صندوقًا كُتب عليه (كشف السموم). وفي غضون نصف ساعة؛ كنت على متن الطائرة محلقًا في الفضاء!. وبعد تسعين دقيقة؛ هبطت الطائرة في الصحراء، على مقرُبة من أطلال قلعة قديمة جوار معسكر للقوّات البريطانية. وجدت عميدًا مرتبكًا لم يلبث أن بادرني بالقول: «إنّ ثمّة إشاعة قوية، هي أنّ أهالي المنطقة قاموا بتسميم آبار الشرب قرب المعسكر! ولذا؛ فقد أصدرت الأوامر بمنع الشرب منها، وجعلت حارسًا عند كل بئر!».

لقد كان نهارًا قارس البرد، وجوًا مشبعًا بالأتربة! ولم يكن من مكان أقوم بالكشف فيه عن مختلف أنواع السموم من (زرنيخ) و(إستركنين) وغيرها، من الموادّ السامة المحتملة في مياه تلك الآبار!.

علي كل؛ لم أصدّق رواية العميد، وتلك الإشاعة التي يبدو أن لا صحة لها! لأنه وعلى حسب علمي؛ استحالة تسميم أولئك الأعراب مياه شربهم!. فطلبت أوّل ما طلبت، إحضار نصف درزن من الأغنام، قدّمت لها جرادل ملأى بماء الآبار، فشربته. وانتظرت ساعة من زمان، فلم يظهر على أي منها عرض من أعراض التسمّم!. بعدها؛ قمت بإحضار مجموعة من الأعراب المحليّين، وأخطرتهم أنّ الجنود يساورهم شك، أنّ ثمّة من قام منكم بدس السم في مياه الآبار! ثمّ خاطبتهم؛ أيّكم مستعد للشرب من مياه تلك الآبار؟!!. هنا

ضحك الأعراب مستبعدين قيام أحد منهم بتسميم الماء – مصدر حياة الإنسان والحيوان! ثمّ ما لبثوا أن قاموا – جميعًا – وعن طواعية، بالشرب من ماء الآبار!!. بعدها بساعة؛ انصرف الأعراب وهم يضحكون، وبحوزة كل واحد منهم علبة من لفائف التبغ، جزاء حسن صنيعهم!. قمت عقب ذلك، بكتابة شهادة لقائد الوحدة، مفادها أنّ كل مصادر المياه خالية من أي موانع، تحول دون شرب الجنود منها.

بعدها؛ أخطرني طبيب الوحدة، أن أحد الجنود مصاب بكسر مركّب في إحدي ساقيه، وأنّ هنالك ما يدل على بداية غرغرينا في موضع الجرح!. كان ذلك الطبيب قليل الخبرة في إصابات المعارك! كذلك اشتكي من عدم وجود ما يجبر به الكسر. وفوق هذا وذاك؛ كان الرجل يفتقد إلى حس المبادرة!. للأسف؛ دمّر القصف أسقف المباني، فلم يُبق على أخشاب يمكن استخدامها لجبر الكسر!.

علي كل؛ ارتأيت أنّ الحالة تستدعي تدخلًا جراحيًا وتنويمًا في المستشفى. فوجّهت كابتن الطائرة بنقل الجندي الجريح إلى (بورتسودان) بدلًا عني، على أن يعود إليّ في اليوم التالي، لنقلي إلى (بورتسودان)!.

عند تمام الساعة السابعة صباحًا؛ سمعت أزيزًا لطائرة تقترب، فأسرعت نحو سهل منبسط في الصحراء. وهنالك جهة الشمال؛ أبصرت طائرة وحيدة تقترب رويدًا رويدًا.. وبينما أنا مستمر في مشاهدتها وكأنها هي على وشك الهبوط.. استدارت فجأة؛ واختفت عن الأنظار!! رافق ذلك، أن سمعت صوت هدير جديد بدّد الصمت! وإذا بطائرات عدّة تبرز من خلفي! تبيّنت من ألوانها الحمراء، أنّها طائرات تابعة لسلاح الجو الإيطالي. أدركت حينها؛ أنّ ما فعله قائد طائرة سلاح الجو البريطاني، كان هروبًا تكتيكيًا!. فانبطحت على وجهي – متخوفًا أن يكون ظهري هدفًا سهلًا لتلك الطائرات!. فجأة؛ انهمر سيل كان أشبه بقطع النقانق حولي! وانفجر بعضها بمجرد ملامسته الأرض!!. ومن ثمّ؛ أخذت تلك الطائرات في الدوران، لمطاردة طائرة سلاح الجو البريطاني!. تمنّيت – لحظتها– أنّ ما قام به أولئك الطليان من محاولة لاصطيادي، قد منح الطيار زمنًا كافيًا للهروب!!. ولقد صدق ظنّي؛ إذ هبط ذلك الطيار إلى جواري في أمان، بعد ساعة من زمان!. اتضح لي فيما بعد؛ أنّ تلك النقانق الحمراء، ما هي إلا الذخيرة المضادة للأفراد، لكنّها – ولحسن الحظ– لم تؤد إلى حدوث أدنى ضرر!!.

مع انتهاء الحرب في جبهة إريتريا والسودان؛ تم رفع حالة الطوارئ. لكنّ الميناء صار أكثر ازدحامًا من ذي قبل. إذ كانت كميات كبيرة من الأسلحة والعتاد والطائرات، لا تزال تُنقل عبر إفريقيا من الساحل الغربي للقارة. كانت تلك هي الوسيلة السريعة الوحيدة، لجلب التعزيزات لقوات (مونتجمري) في الصحراء الغربية.

لم تعد ثمّة حاجة إلى تحديد كميات الطعام، رغم زيادة سكان ميناء (بورتسودان) إلى خمسة أضعاف! لكنّ تحديد كمية الماء التي تصرف للأهالي، كان فعلًا لا بدّ منه. أمّا اللبن؛ فلم يكن منه غير الجاف المعلب! وحتى ذلك، يندر وجوده في كثير من الأحايين. في (بورتسودان)؛ لا وجود يذكر للأعشاب والشجيرات. ولا يمكنك الحصول على لبن الأبقار، في دائرة قطرها حوالي الثمانين ميلًا!!. وعلى الرغم من استيراد كميات كبيرة من اللبن المعلب، إلا أنّ ظروف الحرب قد محقت كل تلك الكميات!.

لقد كان هنالك أربعة عشر طفلًا أوروبيًا وخمسة آخرين كانوا على الطريق. لقد أحدث ذلك لديّ مناخًا خصبًا لتوليد الأفكار. تذكرت نجاحي في إنشاء مزرعة للألبان في (جوبا). على تلك الخلفية؛ قررت الشروع في إنشاء واحدةً أخري في (بورتسودان). إلا أنّه وللأسف؛ لم ترق الفكرة للمدير الإداري. فيما لم يتحمس الكثيرون للفكرة! لقد علق الطبيب البيطري قائلًا:

«أبقار؟؟!! أو مجنون أنت؟ كيف يمكنك الحصول على علف لأبقارك في هذه الأرض القاحلة الجرداء؟ أنا لا أعلم عن وجود أي بقرة، حتى على مسافة مئات الأميال من هنا!!

«ثمّ الماء.. يا بنيّ.. الماء!!»

أين لك بالماء؟.. يجب أن تعلم عزيزي أنّ تسعين في المئة من الحليب، ماء!!».

كان ملاذي الأخير؛ المفتش الزراعي الذي يقبع في مكتبه الريفي خارج مدينة (بورتسودان). كان رجلًا أسكتلنديًا ذا رأي وحكمة. إذ أبدى كثيرًا من الترحيب بالفكرة مع التوجيه السديد!.

«يمكنني أن أشتري لك ما بين عشر إلى خمس عشرة بقرة! كما يمكنني تزويدك بالكثير من القصب عن طريق القطار!». القصب هو المصطلح المحلي لأعواد الذرة الجافة بعد حصادها. وهي العلف المناسب للأبقار وغيرها من سائر البهائم. لكن بقيت المعضلة الكبري! وهي الحصول على الماء؟

اتصلت بقائد الوحدة الهندسية؛ الذي اشتُهر بخلفيّته الجيولوجية.. فأجابني قائلًا: «لا أري ما هو أخّاذ في فكرتك تلك!!»

«سأقوم بمسح اثنين من تلك الأودية الواسعة الجافة الواقعة شمال المدينة، فإن لم أجد ثمّة ماءً، فسوف أعود منجّمًا صينيًا!!».

«عليك بالعثور على (لاكي ليثان) رئيسي. فهو يدعي أنّه منجّم لمنابع المياه! وعلى الرغم من قيامه ببعض الحركات التمثيلية، لكنّي أعتقد أنّه منجّم حقيقي للماء!!».

أخيرًا؛ جاء اليوم الذي قمت فيه بصحبة (لاكي) ومعنا مفتش الأشغال المشهور باسم (المعاشي العجوز). يمّمنا صوب أحد تلك الأودية شمال (بورتسودان) في نهار قائظ شديد السموم!. كان (لاكي) يحمل عصا التنجيم! وكان يضعه بين الفينة والأخري على الأرض.. وبعد مسيرنا حوالي الميل، انحنت عصاه وابتدرني صائحًا:

«هنا يا دكتور!!».. «هنا ماء! هنا ماء كثير.. أسرع!».. قال ذلك؛ وهو يُفرد خارطته أمامه!.

لكن (المعاشي العجوز)، لم يكن مقتنعًا!!.

«لا تك في عجلة من أمرك – سيدي!»

صاح (لاكي) – وقد أفرد خارطته– مردفًا القول:

«إنّكم تقفون الآن، فوق خط أنابيب المياه النازل من الجبال!!«

مضينا بعد ذلك نجهد في البحث! ومضت لحظات كأنها دهر.. وفجأة توقف (لاكي)! ثمّ تقدم إلى الأمام! ثمّ ارتد بعدها خطوات إلى الوراء! وكرّر ذلك عدة مرات؛ ثمّ قال:

«هنا يوجد ماء.. قم بالحفر فوق هذه النقطة! وستجد الماء – ضربة لازب!!»

قام بعدها (لاكي) بوضع عصاه فوق يدي، وجعلني أحاول!.. لكن العصا لم تتحرّك أبدًا تحت يدي كما فعلت معه!!.

«أري أنّه قد لزمني، أن أثبت لك صحة نبوءتي!!»

ثم أردف قائلًا: «إن أنت معتز بتعليمك، فأنا معتز بكبريائي! سوف أحضر رجالي غدًا وأجعلهم يحفرون حتي يجدوا الماء. سأجعلهم يُخرجون ما اجترعوا من البيرة عرقًا يتندّى على جبين كل أحد منهم!!».

بعد يومين؛ كنت على وشك الانتهاء من عملية جراحية في يوم قائظ، زاد من وطأة حرّه

خلوّ غرفة العمليّات من مكيف للهواء! وبينما أنا بصدد نزع قفازاتي الجراحية، والممرّض يساعدني في خلع حذاء غرفة العمليّات الممتلئ بالعرق! إذا بـ(لاكي) ذي الوجه الأحمر القرمزي، يدلف من الباب مهمهمًا:

«هنالك ماء يا دكتور.. ماء كثير.. وجدناه على عمق ثلاثة وعشرين قدمًا.. بيد أنّه ماء غير عذب.. ولكنّه يصلح لأبقارك!. عندها؛ أمرت العمال أن يعملوا على تقوية الجدران بألواح من الحديد.

الآن؛ بدا لي أنّ خطتي لإنشاء مزرعة الألبان ستمضي للأمام! لاسيّما وقد مُنحت مساحة أربعة هكتارات في المنطقة حول البئر! قمت بتسويرها وزراعتها برسيمًا وفولًا صحراويًا، وكلاهما يعتبران علفًا ممتازًا للأبقار!!. أيّد المفتش الإداري المشروع، بل أمر بتخصيص اثنين من المساجين، للقيام بالأعمال اليدوية في المزرعة!.

بعد سبعة أشهر، ظهر منتج جديد في السوق العام، عبارة عن زجاجات من اللبن الطازج النظيف الذي يمكن شراؤه، رغم اقتصار بيعه عند بداية الأمر فقط على حاملي البطاقات! إلى أن تمّت زيادة الكمية المُنتجة، فصار متاحًا للجميع.

بعد مرور عام ونصف من العمل الشاق والمرهق في طقس (بورتسودان)، الذي يتميز بصيف طويل قائظ؛ أحسست بالتعب والإجهاد. فقرّرت في أبريل من 1941، الذهاب في إجازة عمل إلى منطقة ذات طقس معتدل! فاخترت إثيوبيا .. حيث تمّ تكليفي بإعادة تأهيل مستشفى إيطالي صغير في مدينة (ليكميتي) على بعد مئة ميل غربي العاصمة (أديس أبابا). ما حدث هناك؛ غيّر مجري حياتي! كما سأذكر في الفصل التالي.

عند عودتي إلى (بورتسودان)؛ تم توجيهي بالذهاب إلى (الخرطوم)، كي أقوم بتدريب بعض السودانيين، لإدارة مستشفى القاعدة العسكرية، الذي سيتم تجهيزه ضمن الوحدة الطبية التابعة لقوة دفاع السودان، المتجهة إلى مصر.

في آخر اجتماع لي في نادي (بورتسودان)؛ قامت أمهات الأطفال والرضّع بإظهار امتنانهن وتقديم شكرهن، على ما قمت به من جهد في توفير اللبن الطازج لأول مرة في (بورتسودان)! فقمن بإهدائي كوبًا من فضة، على هيئة زجاجة حليب!. كان الكوب مليئًا باللبن الطازج، الذي طلبن منّي احتساءه! ففعلت بعد تردد! ذلك أنّني لا أحب شرب الحليب.. لكن سرعان ما ابتسمت، لأن الحليب كان ممزوجًا بنبيذ (البراندي)!!.

في سبتمبر من عام 1942، تحرّك طوف مكون من قوة إسعاف تابعة لقوة دفاع السودان، بقيادة الأمير لاي: (العقيد) (كوركهيل) من الخدمة الطبية السودانية، ومعه طاقم مستشفى القاعدة الميداني الثاني بقيادتي إلى مصر. كانت أولى محطاتنا هي (مينا) في الصحراء أمام (أبوالهول) وأهرامات (الجيزة). لقد كان التوقيت سيئًا؛ إذ سرت الشائعات -وقتها- أنّ الجيش الألماني بقيادة (روميل) يتقدم بسرعة تجاه (القاهرة)! كان هناك جو مشبع بالخوف!. مع تنامي الروح العدائية ضد البريطانيّين بين المصريين. بعد يوم من وصولنا؛ صدرت الأوامر بتوجيهنا إلى منطقة قنال (السويس). وأُخطرت بالإقامة في المستشفى الذي شُيّد بالخيام وسط القوات الهندية المرابطة في منطقة (كابريت)، قرب (السويس).

في الثالث والعشرين من أكتوبر؛ أتى خبر انتصار الحلفاء في (العلمين) .. وسرعان ما تغير الإحساس العام! بعدها؛ جاءتنا التعليمات بإقامة رئاسة قوة دفاع السودان، ومستشفى القاعدة التابع لها وسط المستشفى الهندي الميداني العام - ذي الألف سرير، في منطقة (القلعة) بـ(القاهرة). تلك (القلعة)؛ هي مبنى عتيق بناه (صلاح الدين الأيوبي) في القرن الثاني عشر! وعلى مقربة منه، يقع المسجد الرائع الذي بناه (محمد علي باشا) في القرن الثامن عشر![1]

المبنيان يحتلّان أفضل المواقع في (القاهرة)! إذ يطلان من علٍ، على مشهد المدينة مع امتداد البصر!

الطريف؛ أنّ (ميترون) المستشفى الهندي -وكانت مشهورة بالانضباط الشديد وحبها للنظام- عرضت عليّ القيام بتدريب طاقمي من مساعدي التمريض! لكن ولسعادتي؛ فقد كانوا أكفاء لها. مكثنا في (القلعة) طوال فترة الكريسماس من عام 1942. كان الطقس من البرودة بمكان؛ مما حمل الإدارة على صرف البناطلين القطنية الطويلة المشهورة باسم: (لونق جون) لكل الجنود. وكان جنودي من الأفارقة؛ أكثر أولئك الجنود سعادة بتلك البناطلين! بعد يومين من ذلك؛ تم استدعائي إلى غرفة الحرّاس عند بوابة (القلعة)! لسبب أنّ اثنين من جنودي من أبناء (الدينكا)، وُجدا وهما يتجولان في شوارع (القاهرة)، بلباس (غير لائق)! إذ لا يرتديان سوي الـ(لونق جون). ورغم أنّ ذلك اللباس عادةً ما يصل إلى القدمين؛ لكن لدى الجنديّين، لم يكن ليبلغ إلى منتصف الساقين! لقد كان منظرًا مضحكًا حقًا! ولم أملك أن انفجرت ضاحكًا! ممّا أثار استغراب الحارس، لكنّه سرعان ما أدرك طرافة الموقف! لقد

(1) المترجم: الصحيح؛ أن المسجد بني في القرن التاسع عشر على عهد محمد علي باشا.

تم شطب البلاغ ضد الجنديين، ليمضيا في حال سبيلهما، وهما يُهمهمان: «الله كريم!!».

كانت مهمة حراسة بوابة (القلعة) منوطة بالجنود البريطانيين. كان كل القادمين إلى (القلعة) يجري تفتيشهم، بينما يُحبس كل مخمور أو مثير للشغب في غرفة الحراس، ويتم إبلاغ رئيسه!. ذات يوم كانت مناوبة الحراسة من نصيب وحدة (الأرجايل والساذرلاند **Argyll & Sutherland**) التي هي: وحدة رجال مرتفعات (أسكتلندا) الشمالية. كان الجندي المناوب – واسمه (جوك الصغير)– من (جلاسقو). وفجأة؛ رن جرس التلفون في غرفتي!

«هل أنت هنا يا دكتور؟»

«هل يمكنك الحضور إلى غرفة الحرّاس عند البوابة – فورًا ؟ هنالك مشكلة سببها اثنان من رجالك!!»

عند وصولي البوابة، بدا لي ما يدعو إلى الاستغراب! إذ ثمّة اثنان من الجنود السودانيين من أبناء جبال النوبة التابعين لقوات (الهجّانة **Camel Corps**)، ينزف رأس أحدهما بغزارة من جرح غائر في فروة الرأس! وخلفهما كان يقف جندي أسكتلندي صغير الحجم يافع السن، يُرى مشمئزًا ومستغربًا غاية الاستغراب! وهو ينظر غير مصدق إلى رأس بندقيته المكسور!!.

قبل أن أستمع إلى أي تفاصيل؛ أخذت الجندي المصاب على الفور إلى غرفة الغيار، وقمت بخياطة ذلك الجرح الغائر في فروة رأسه. بعدها استمعت إلى الرواية كاملة. وصل الجنديّان النوبيّان إلى (القلعة) مخمورين، وطفقا يغنيان ويصيحان بأعلى صوتيهما. قام الحارس الأسكتلندي (ويليام دنكان) بإيقاف الجنديّين اللّذين لم يلبثا أن دفعاه عن طريقهما! لكن (ويليام) لم يستسلم للجنديّين الأسودين المشاغبيْن –كما وصفهما– وحاول دفعهما برفق –كما ذكر– مستخدمًا (سونكي) بندقيته. في تلك اللحظة؛ أمسك أحد النوبيّين ببندقية الحارس، الذي رجع إلى الخلف حتى يتمكّن من لف البندقية ممسكًا بمؤخرتها، ثمّ انتزعها وهوي بها على رأس الجندي! حسب (ويليام دنكان)، أنّه قد فلق جمجمة الجندي السوداني – بل ربّما يكون قد قتله!. لكن؛ ويا لدهشته! فقد ظلّ الجندي واقفًا على قدميه، ورأس البندقية في يده، وهو يضحك بصوت عال، والدماء تنسال بغزارة من رأسه! .. بينما بندقية الحارس الأسكتلندي ملقاة على الأرض، وقد كسرت نصفين!!.

بعد التحقيق؛ تمت معاقبة الجنديين السودانيين، بتهمتي السكر وإثارة الشغب. أمّا الحارس الأسكتلندي؛ فقد وُجّهت إليه تهمة إتلاف قطعة من ممتلكات الجيش.

في هذه الأثناء؛ تحولت ساحة المعارك إلى المنطقة الغربية. فعند بداية عام 1943، صدرت التعليمات بتحركي مع وحدتي نحو طرابلس الغرب في ليبيا عن طريق البحر. كانت تلك رحلة لا تنسي، في رفقة الجنود السودانيين الذين لم يكن لدى معظمهم سابق تجربة أو معرفة بالسفر عن طريق البحر. كان جلهم في قمة الإثارة والترقب لتلك المغامرة الجديدة، وهم يمتطون ظهر السفينة التي أقلتنا – جميعًا – عبر البحر المتوسط. عند مغادرتنا ميناء (الإسكندرية)، دخلنا لجة بحر معتكر الأمواج! ورويدًا رويدًا بدأت تتخافت متلاشيةً أصوات الإثارة، وحل محلها صمت مطبق مقلق، ملؤه التوجّس والترقّب! لم تلبث أن اشتدّت الريح، حتي كادت لتستحيل إلى عاصفة هوجاء! فثار البحر، وبدا موج كالجبال! غمر دُفّاعه السفينة، وأدرك الجنود القابعين على سطحها البلل! وعلا الهرج والمرج بين القوم! فتمتم بعضهم بالصلاة، وجأر بعضهم بالدعاء سائلين (الله) أن ينقذهم من تلك المحنة! فيما جعل آخرون يصيحون! أولئك كانت أفواههم تمتلئ بالماء المالح، كلما فغروها صائحين! ذلك أنّ هؤلاء؛ لم يكن جلّ أو ربّما كلهم، قد ذاق يومًا ماء البحر! لذا؛ فقد ازداد الصراخ: «ملح.. تُف تُف.. ملح كتير» – والملح وقتئذ بضاعة مزجاة في السودان!. بدا بعض أولئك الجنود يستسيغون ذلك الطعم! وبلا وعي جعل بعضهم يبتلعون ما يقذف به الموج – غير مدركين عاقبة ما يفعلون! ولّما انتبه الضبّاط لصنيعهم، حذروهم، لكن بعد فوات الأوان!. واحدًا تلو الآخر؛ وقع الجنود فريسة ابتلاعهم ماء البحر، وطفقوا يتقيّأون بصورة جنونية! ووشيكًا ما صار سطح السفينة ممتلئًا بمجموعة من الرجال تعيسي الحظ، الذين نال منهم الإعياء ما نال. قام قائد السفينة بتوجيه أولئك الجند إلى داخل السفينة، غير أنّ دوار البحر قد فعلته، فيمن نجا منهم من ماء البحر على سطحها!.

عندما هدأت العاصفة، وأفردت السفينة أشرعتها لأشعة الشمس، بدا أولئك الجند في حالة مزرية! مما دفع قبطان السفينة إلى إصدار الأوامر بفتح خراطيش المياه عليهم. قوبل ذلك بكل رضا! ولم يمض حين إلا وقد اكتُظ السطح بالجنود، وهم يجففون ملابسهم تحت وهج الشمس.

عند وصولنا إلى (طرابلس) والسفينة ترسو على الميناء، إذا بأحد ضباط الاتصال يسرع

مندفعًا داخل السفينة وهو يصرخ قائلًا:

«أنزل رجالك على وجه السرعة! فإنّ القاذفات الألمانية سوف تصل إلى هنا خلال نصف ساعة!».

لقد كان من المستحيل إخلاء كل أولئك الجنود الذين أثقلهم الإعياء، وهم يجرجرون أقدامهم غير آبهين لغضب ذلك الضابط!. ماذا يضيرهم لو سقط فوق رؤوسهم القليل من القنابل الألمانية؟ بعد تلك المشقة القاسية التي عانوها في المجيء إلى طرابلس.

في (طرابلس)؛ كان مستشفاي ضمن مستشفى القاعدة البريطانية رقم (2)، والذي كان تحت قيادة الكولونيل (روليت). بعض قضاء عدة أشهر هناك، صرت أحس الرتابة من طبيعة العمل وقلّته. لذا؛ فقد قدمت طلبًا بالنقل، وآخر لإجازة زواج!. تمّت الاستجابة لكلا الطلبين! وجرى تكليفي بالإشراف على المستشفى المشترك للقوّات السودانية والبريطانية في (ماي هابار) - بالقرب من (أسمرا) في إريتريا؛ حيث يجب أن أشرع في العمل هناك، بعد انتهاء إجازة الزواج.

لم أتطرق من قبل لموضوع زواجي! ذلك مردّه إلى الملابسات التي رافقت قصة غرامي - ومن ثمّ زواجي أيّام الحرب. هذه القصة؛ أفردت لها الفصل القادم من هذا الكتاب.

الفصل الخامس عشر

حب وغرام

لقد كنت دومًا أفكر في الزواج. ففي كل مرة كنت أذهب فيها إلى الوطن في إجازاتي، كنت أجيل النظر يمينًا ويسارًا، بحثًا عن فتاة أحلامي، تلك التي يمكنها أن تشاركني مغامراتي وترحالي وحياتي غير المستقرة! وأن يكون لديها - في ذات الوقت- الاستعداد لأن تصبح أمًا فتنجب لي عددًا من الأطفال. وأنا في غمرة أحلامي؛ لم يكن لدي أدنى شك في الإرادة الإلهية، التي سوف تقوم بتدبير كل شيء، وما عليّ إلا الرضا بما تخطه الأقدار!. لم يحالفني النجاح في العثور على الشخص المناسب خلال زياراتي للوطن، والتي كنت أقضي معظمها متجولًا على عربتي في بريطانيا! أزور الأصدقاء والأهل، وأمارس هواية صيد السمك. كذلك ذهبت بعيدًا أجوب بلادًا مثل: إسبانيا وكندا والولايات المتحدة وفرنسا. لم يكن لدي رغبة في الذهاب إلى حفلات الرقص أو مباريات التنس. كنت دائمًا ما أعود إلى السودان محبطًا بخفي حنين! حاولت جاهدًا إقناع نفسي، أن ليس من الإنصاف إشراك امرأة بريئة في حياتي البدوية، وما يكتنفها من ظروف صعبة، وطبيعة قاسية، ومناخ متقلّب، وطقس غير صحي!.

في عام 1935؛ تمت ترقيتي إلى رتبة المفتش الطبي للمديرية الاستوائية. وقد جيء بأحد الزملاء ويُدعى (توم موريس)، ليحُلّ محلي في (لي رانجو). وقد صادف أن رافقته شقيقته وتُدعى (دورا) التي كانت تلقّب باسم (جنجر) - أي: (زنجبيل)! لقضاء فترة قصيرة قبل عودتها إلى مقر الأسرة في أستراليا. كانت (دورا) فتاة حلوة جذابة ذات شعر كستنائي! وسرعان ما وقعت في حبائلها. لكن لم ألمس أي تجاوب منها، ولم أسع لنصب شباكي حولها! فقد كنت ذاك الفتى الخجول الجبان!. ذهبت بعدها إلى محطة عملي الجديدة في (جوبا)، على بعد ثلاثمئة ميل من (لي رانجو). وسرعان ما صرت منهمكًا في مسئولياتي الجديدة. ولم تلبث

(جنجر) أن تبخّرت من ذاكرتي.

في أبريل من عام 1941؛ حين تمّ تكليفي بالذهاب إلى (ليكميتي) في إثيوبيا خلال الحرب العالمية الثانية، كي أغدو مسئولًا عن المستشفى الإيطالي هناك، تجدّدت -مرةً أخرى- أحلامي بنيل (جنجر)! سافرت حينها من (أديس أبابا) بصحبة ستة من أفراد القوات المحلية، الذين لم يكونوا على الدرجة المطلوبة من النظافة الشخصية، لكن كانوا يلبسون ملابس زاهية! عبرنا الكثير من الجسور فوق الأنهار، والأراضي الوعرة، وسط هطول غزير للأمطار. عند طرف مدينة (ليكميتي) ثمّة منزل مهجور، كان ذات يوم مقرًا لإحدى المنظمات التبشيرية السويدية. كان بالدار بعض الأثاث الذي كان يبدو في حالة جيدة. لذا؛ فقد قرّرنا إقامة معسكرنا هناك في تلك الليلة، التي كانت ليلة شديدة البرودة! طفقت أبحث في أرجاء المنزل عن شيء أستخدمه وقودًا لإشعال النار. لاحظت في طرف المنزل، كومة من الجرائد والمجلات القديمة، بعضها باللغة الإنجليزية. ولفت انتباهي؛ وجود صورة لفتاة صغيرة ذات شعر كستنائي على ظهر حصان! ولم أتمالك نفسي أن صرخت: «وجدتها.. وجدتها!!». لكن لم يكن ثمّة من يسمعني! لقد كانت تلك الصورة لـ (جنجر موريس). فأدركت -على الفور- أنّ تلك الفتاة؛ هي فتاة أحلامي!. لكن بعدها؛ جعلت أناجي نفسي معاتبًا إياها - أنّني مجرد غبي مأفون! لتضييعي تلك الفرصة قبل ستة أعوام!.

تناولت على الفور طاولة خشبية، أوقدت نارًا، وجلست أرضًا، وكتبت أهم خطاب في حياتي. قصدت أن يكون ذلك الخطاب استكشافيًا! ترى هل تزوجت؟ هل لديها أطفال؟ هل ما زالت تذكرني؟ وهل لديها ما لا يمنع من تجديد تلك العلاقة القصيرة العابرة؟ وهل، وهل، وهل؟!. ذكرت لها كم أثارت لديّ صورتها من عواطف جياشة! وكم تملّكني إحساس - ساعتها- أنّ عثوري عليها، ليس مجرد صدفة!!. لقد استغرق مني ذلك الخطاب الأيام والليالي ذوات العدد! كي أصوغه بأسلوب سلس وعبارات مناسبة، متجنبًا ما قد يحرجها أو يزعجها! غير ناس أو غافل عمّا يشي بنبل شعوري نحوها، وعمق أحاسيسي تجاهها.

بعد ذلك بشهرين؛ تلقيت ردًا على خطابي بعثت به من منزلها قرب (اديلايد **Adelaide**) بأستراليا. كنت حينها مع وحدتي العسكرية في صحراء مصر الغربية، مسئولًا عن المستشفى السوداني الميداني الكائن في (القلعة) بـ(القاهرة). لقد كان خطابًا طويلًا جعلني مفعمًا بالأمل.

لم تكن بعد قد تزوجت! وقالت لي: إنّها -بالطبع- تذكرني؛ مؤكّدةً لي ترحيبها بالمزيد من التواصل!. لقد غشيني طوفان من المشاعر حمّلته رسائلي وخطاباتي التترى، وحضرتني ربة الشعر، فكتبت أُولى قصائدي الغرامية.

مع سادس الخطابات؛ فاتحتها الأمر! وبعد طويل انتظار استغرق أربعة أسابيع مضت وكأنّها أربعة الدهور؛ جاءني الرد بالإيجاب!! ثمّ انهمرت أسئلتها: أين؟ ومتى؟ وكيف؟ سنتمم زواجنا؟ ناجزتها الردّ على سؤاليْ: (الأين، والمتى) - أن في السودان! وفي أقرب زمان!! أيّامها كان شقيقها (توم موريس) قد تزوج .. وكان يقيم مع زوجته (بغ) وطفلهما الرضيع في منزل العائلة جوار (اديليد) بأستراليا. اقترحت عليها وعلى من في معيّتها، البحث عن وسيلة مواصلات من أستراليا. وبعد بحث مضن أبحروا من (اديليد) إلى (كيب تاون). ليبدأوا بعدها رحلة الثلاثة آلاف ميل نحو السودان!. رافق علمي بوصولهم إلى (كيب تاون)، تحرّكي ومعي المستشفى الميداني من منطقة (القنال) إلى (القلعة) بالقاهرة، عن طريق البحر من (الإسكندرية) إلى (طرابلس) الغرب. كان الألمان في حال انسحاب. أما الإيطاليون؛ فقد تم دحرهم!. وإذ لم تكن قوة دفاع السودان وقتها في حال التحام مع العدو، صار بإمكاني التقدّم بطلب إجازة زواج وطلب نقل كذلك! ولم ألبث أن مُنحت إجازة زواج إلى كينيا لمدة شهر. بعدها؛ كان عليّ التوجه إلى إريتريا، لأتولى الإشراف على المستشفى الميداني التابع للقوات البريطانية وقوة دفاع السودان، الواقع في مدينة (ماي هباد)، عند منتصف المسافة بين (أسمرا) العاصمة، وميناء (مصوّع) على البحر الأحمر.

كان ممسموحًا - حينها- التحاق زوجات المسؤولين البريطانيين بأزواجهنّ في السودان. لكن لم يكن مسموحًا لغير المتزوجات دخول السودان! لذا قرّرت أن يتم زواجي في كينيا. فبعثت رسالة إلى (جنجر)، كي تتجه نحو منتجع (ليمورو) الواقع على بعد عشرين ميلًا من (نيروبي)، على أن تذهب -مباشرة- إلى فندق (براكنهيرست) الكائن هنالك، ذلك الذي سبق وأن أقمت فيه خلال إحدى إجازاتي! فكّرت؛ فقدّرت، أنّ من واجبي قطع مسافة 3500 ميل كي أصل إلى (المعبد). لكنها - قطعًا - لا تُقارن بمسافة الـ9500 ميل التي قطعتها (جنجر) للوصول إلى ذات المكان!.

كان رفيقي في المرحلة الأولى من السفر، الكابتن (آرثر فوربس)، ذلك الذي أضحى فيما بعد، مصمم ومكتشف أسورة وعقود النحاس، التي صارت تستخدم علاجًا لروماتزم

المفاصل!. قمت ورفيقي باقتناء سيارة من طراز (فورد). وبعد الصيانة اللازمة؛ مضينا نقطع الفيافي من (طرابلس)، مرورًا بتلك البقاع المشهورة، التي شهدت معارك الصحراء! عبر الطريق إلى (طبرق)، ثمّ (العلمين)، ومنها إلى (الإسكندرية)، وصولًا إلى (القاهرة). هنالك تخلصنا من عربة (الفورد)، واستقللنا القطار والباخرة من (القاهرة) إلى (أسوان) ثمّ (الخرطوم). كان ذلك في مايو من عام 1943. بعد أن بلّغت الرئاسة في (الخرطوم)، استقللت (الباخرة) في طريقي إلى (جوبا) في جنوب السودان. هنالك أُخبرت أنّه يتوجّب عليّ السفر برًا عبر يوغندا إلى العاصمة الكينية (نيروبي)، وعند نهاية إجازة الزواج، يتعين عليّ الرحيل إلى إريتريا.

لظروف الحرب؛ كانت وسائل المواصلات من الصعوبة بمكان. لكن -أخيرًا - تمكّنت من السفر على متن شاحنة تجارية انطلاقًا من (جوبا)، عبر الحدود اليوغندية إلى (كمبالا) العاصمة! بعدها؛ قضيت ثلاثة أيّام أبحث عن وسيلة سفر إلى كينيا، ولكن بلا جدوى! فقرّرت عندها شراء دراجة أقطع بها مسافة الـ 350 ميل المتبقية إلى (نيروبي). لكن حتى هذه؛ لم أوفّق في الحصول عليها. جلست في بار بأحد الفنادق الصغيرة في (كمبالا)، ونفسي ملأى باليأس والإحباط واليأس! وأنا على هذه الحال؛ تناهى إلى سمعي حديث بين رجلين يتبعان للقوات الجوية البريطانية.. إذ قال أحدهما يخاطب الآخر: «أراني جدّ محظوظ - صديقي! ذلك أنّي في طريقي -من غدٍ- إلى (نيروبي)، كي أقوم بتسليم طائرة ذات مقعدين، قام أحد الـ **old buffin** في السودان، بتسليفنا إيّاها لفترة قصيرة!!«

قمت بالانحناء ناحية رفيقي، وابتدرته قائلًا: «أوهي الطائرة ذات المقعدين، التي تخص الكولونيل (كيف) قائد القوات الاستوائية في جنوب السودان؟«

ردّ الطيار متعجّبًا: «يا للهول!! كيف عرفت ذلك؟«

بعدها؛ قدّمت له نفسي - ذاكرًا قيامي بالكثير من الرحلات المثيرة على متن تلك الطائرة، حين كان الكولونيل (كيف) يقوم بنقلي في مهامّي الطبية الطارئة. وأراني الآن أكثر حاجة إلى نقل طارئ صوب هدفي في كينيا! وشرحت له ما أنا بصدده من مشروع زواجي من تلك الفتاة، التي هي في انتظاري على أحرّ من الجمر، في كينيا.

ذات صباح مشرق رائع، ذي سماء زرقاء صافية، طرنا فوق الهضاب والجبال الكينية! ثمّ أخذنا في الدوران حول منخفض (نجورو)، حيث الأرتال من الحيوانات البرية منتشرة

في سهوله الخضراء! فكنت ترى هناك وحيد القرن سارحًا مع أبقار قبيلة (الماساي)!! بعد خمس ساعات؛ حطّينا الرّحال في (نيروبي). قبل سفري بأيّام؛ كنت قد بعثت برسالة إلى فندق (براكنهيرست) الذي يبعد حوالي العشرين ميلًا من (نيروبي).

قمت باستئجار تاكسي؛ وبدأت ما قد عساه يكون آخر مرحلة من سفري الطويل! طوال الطريق؛ كانت تجتويني الهواجس، وتحتويني الظنون، وتتقاذفني الأفكار! ووجدتُني في لج بحر متلاطم من الشكوك والمخاوف والآمال!. كيف يا ترى؟ يتسنّى لي أن أعيد ما انقطع، طيلة ثمانية أعوام؟

فتحت باب الكوخ الصغير، حيث تقطن (جنجر) منذ حضورها. نظرنا كل منّا إلى الآخر مليًا لبرهة، دون أن ينبس أحدنا ببنت شفة!. وفجأة؛ ارتمينا في أحضان بعضنا البعض، ومضينا في عناق طويل! سرى من دفئه في أوصالنا تيار كهربائي، ينبض بالأمل، ويفيض بالفرح، ويبعث على الارتياح! واحتوانا إحساس غامر نابع من حلاوة اللقيا، ومتعة توحّد عقلينا وروحينا وجسدينا! بعد أن حقّق الله غاية ما تمنّيناه، بعد طول انتظار!!.

تم عقد زواجنا بعد ذلك اليوم بستة أيام، في كنيسة صغيرة عند ضاحية (ليمورو) في 17 يونيو من عام 1943. لقد قام (هيو روبرتس): مدير فندق (براكنهيرست) -وهو صديق قديم- بعمل كل الترتيبات الخاصة بحفل الزواج. وكان ضمن لفيف الأربعين مدعوًا، خمسة عشر من موظفي حكومة السودان، الذين جاؤوا إلى كينيا لقضاء إجازاتهم السنوية - حيث لم يتمكن أي من هؤلاء؛ من قضاء إجازته في بريطانيا طيلة الأربع سنوات السابقة!.

لقد أمضينا شهر عسل قصيرًا، قضيناه في اجتياب المرتفعات الكينية. بعده عدنا إلى (نيروبي)، ثمّ شرعنا في البحث عن وسيلة تنقلنا إلى حيث مقر عملي في إريتريا.

واجهتني مشكلة اعتراض سفر زوجي المدنية على متن وسيلة سفر تابعة للجيش البريطاني. لكن؛ وبوصفي مدير الخدمة الطبية العسكرية في إريتريا وقتها، فقد قمت بتسجيلها في وظيفة طاه بالمستشفى! ولم أصادف أيّ مشكلة في الموافقة على ذلك التعيين، من قبل زملائي العسكريين.

غادرنا (نيروبي) على متن طائرة شحن عسكرية ليس بها مقاعد للركاب. وتم تجهيز صندوق مغطىً ببعض الوسائد، ليكون بمثابة مقعد لزوجتي!. وبعد رحلة شاقة استغرقت أربع ساعات، حطّت بنا الرحال في (بورتسودان)، حيث قوبلنا بحفاوة وترحاب من

أصدقائي من البريطانيين والسودانيين – على حد سواء. بعدها؛ اجتزنا الحدود الإريترية عند (كسلا)، على بعد 300 ميل جنوبي (بورتسودان) على متن شاحنة، ومن ثمّ انسرب بنا بنا قطار على قضيبين ضيّقين صعودًا إلى الهضاب الإريترية، ومرورًا قرب موقع معركة (كرن)، فوصولًا إلى العاصمة (أسمرا)، ومنها استقلّلنا القطار إلى مدينة (ماي هابار) على ساحل البحر الأحمر. وهناك أقمنا في كوخ تابع لسكن الضباط، تمّ تجهيزه ليكون أوّل عش زوجية لنا!. لقد قطعت (جنجر) مسافة 11 ألف ميل، لتصل إلى ذلك العش!.

بعد عام واحد من ذلك التاريخ؛ تم إعفائي من وظيفتي العسكرية، وتمّ تعييني في وظيفة كبير أطبّاء الباطنية في حكومة السودان. لقد مُنحنا منزلًا كبيرًا في الخرطوم – وهنالك في شهر يوليو من عام 1944، تمت ولادة ابني (كولن) بين زئير الأسود القادم من حديقة الحيوانات المجاورة!.

الفصل السادس عشر

تطور الخدمة الطبية السودانية

لقد شهد النصف الأول من القرن العشرين تطورًا مذهلًا في طب المناطق الحارة، مما أدى إلى التغلب على أمراض فتاكة في تلك الأنحاء من العالم، مثل الطاعون، واالكوليرا، والتايفس.

لقد صار الآن بإمكان الأوروبيين والسكان المحليين، أن يعيشوا سالمين مطمئنين في تلك الأنحاء، التي كانت تمثل لديهم في سابق من أوان، شراكًا للموت الحتم الزؤام!. لقد كان من الضروري، إيجاد خدمة طبية متكاملة لتحقيق ذلك الهدف. لم يكن في تصوّري ثمّة قطر غير السودان، حقيقًا بتلك الخدمة المُلحّة.

عند مطلع القرن العشرين؛ حين تولت إدارة الحكم الثنائي أمور البلاد، ألفت سكان هذه البلاد وقد عانوا الأمرّين من الحكم التركي المصري أولًا؛ ذاك الذي اتسم بالفساد والاستبداد، ثمّ تلاه حكم الثورة المهدية، الذي شهدت سنونه العجاف أوبئة وحروبًا وإملاقًا وفقرا.

كانت مهمة النظام الجديد غاية في الصعوبة! حيث الطبيعة الجغرافية المعقدة، وحيث التباين العرقي والإثني بين مختلف العناصر عبر أنحاء البلاد – خاصة بين الشمال والجنوب.

على الرغم من التطوّر المطرد في طب المناطق الحارة، إلا أنّ حكومة الحكم الثنائي كانت مقيدة بشح الإمكانات المادية، ممّا عثّر إعادة الاستقرار والأمن إلى البلاد!. لقد كان الحكم في البداية عسكريًا محضًا. لذا؛ فقد كان الرعيل الأول من الأطباء، ينتمي إلى الخدمة الطبية العسكرية للجيش المصري! وهؤلاء كانوا من أطباء الجيش البريطاني الملكي، وآخرون أطباء سوريون كانوا يمنحون رتبًا عسكرية.

في عام 1904؛ تأسست أول مصلحة طبية مدنية في البلاد. وبعد مرور خمسة أعوام على إنشائها، غدا طاقمها مكوّنًا من ستة من الأطباء البريطانيين وثلاثين من الأطباء السوريين. لقد كان هؤلاء؛ يتحدثون اللغة العربية -بالطبع- ويجيدون التحدث بالإنجليزية!. وكانوا في غاية التفاني والانضباط في أداء عملهم. وكثير منهم مكث في البلاد لسنوات طويلة، حتى تم إحلالهم بأطباء سودانيين من خريجي مدرسة كتشنر الطبية. لقد قدّم اثنان من الرعيل الأول من الأطباء البريطانيين الستة، خدمة طبية مميّزة. أولهما؛ كان دكتور (إي.س. كريسبن)، الذي مكث في السودان من عام 1901 إلى عام 1922! والثاني؛ هو دكتور (جون برايان كريستوفرسن)، الذي مكث من عام 1902 إلى عام 1924!. والأخير هذا؛ كان أول مدير للمصلحة الطبية السودانية عام 1904، وهو كذلك مكتشف أول علاج لمرض البلهارسيا، ولا يزال مستعملًا إلى يوم الناس هذا!

دكتور كريسبن أصبح مديرًا للمصلحة الطبية عام 1915؛ وله ولخليفته دكتور (أوليفر ايتكن): (1922 – 1933)، يرجع الفضل في نجاح الخدمة الطبية السودانية.

كان لإدارة الحكم الثنائي في السودان في العقدين الأوّلين بعد حملة كتشنر، ميزانية وصفت بأنها على شاكلة (ربط الحزام). ولم يكن هناك كثير من المال للصرف على الخدمات العامة، مثل الصحة والتعليم والخدمات الاجتماعية. لقد أدّى ذلك إلى تقييد التوسع في السنوات الأولى. وعلى سبيل المثال؛ لم تكن هناك موارد لتعيين أكثر من عشرة أطباء بريطانيين حتى عام 1919. رغم ذلك؛ كانت بداية خدمات التعليم والصحة**felicitous start** بداية موفقة.

الجدير بالذكر؛ أنّ نداء (كتشنر) للشعب البريطاني كي يسهم في تعليم السودانيين، لقي تجاوبًا منقطع النظير. وأدّى ذلك إلى إنشاء كلية غردون التذكارية، التي افتتحت في الخرطوم عام 1902. لقد مثل ذلك دفعة قوية للخدمة الطبية؛ حيث مثل خرّيجو كلية غردون، الكادر المثالي لطلاب مدرسة كتشنر الطبية عام 1924. من ناحية أخرى؛ وفي عام 1903، تم افتتاح معمل (ويلكم) لأبحاث طب المناطق الحارة في الخرطوم. المعمل كان هدية من السير (هنري سولومون ويلكم)، ذلكم الذي صدمته مناظر المرضى والفقراء، حين زار السودان عام 1900! فقرّر أن يعمل عملًا عساه يخفف من عناء أولئك البؤساء. تجسد ذلك العمل؛ في معمل حديث للأبحاث الطبية، مجهز بطاقم كامل من الأطباء والفنيّين، إضافة

إلى الدعم المادي اللازم لتشغيله. كان السير (أندرو بلفور) أوّل مدير لذلك المركز. وجه دكتور (بلفور) جلّ طاقاته لتحسين صحة البيئة. وبعد قيامه باستجلاب بعض فنيّي الصحة من (أسكتلندا)، نجح في السيطرة على انتشار وتوالد البعوض، وتمكن - كذلك- من القيام بتزويد السكان بمياه شرب نظيفة. لقد ظنّ البعض ممن جانبهم الصواب؛ أنّ إنشاء معمل حديث للأبحاث الطبية في بلاد فقيرة وبدائية مثل السودان، خطوة سابقة لأوانها. بيد أنّ المعمل أدّى خدمة مهمة غاية الأهمية، لأطباء المصلحة الطبية السودانية الوليدة. كما جذب المعمل الكثير من خبراء طب المناطق الحارة وعلم الحشرات إلى السودان، حيث جابوا البلاد طولًا وعرضًا في ظروف غاية في الصعوبة، وساهموا في إجراء بحوث كان لها دور كبير في التعرف على مختلف الأمراض والأوبئة، في أصقاع السودان المختلفة.

من ناحية أخرى؛ قدّم أطباء المصلحة الطبية خدمة ممتازة في علاج الملاريا، والتطعيم ضد مرض الجُدري، ومحاربة توالد وانتشار البعوض، وتوفير عقار الـ(سالفارسان) لعلاج مرض الزهري.

كانت قلة الموارد وضعف الإمكانات مع اندلاع الحرب العالمية الأولى، سببًا مباشرًا في تأخر تطور الخدمات الطبية. لكن؛ وعلى الرغم من ذلك، فقد تم بناء ثلاثة مستشفيات حديثة، في كل من (الخرطوم) و(عطبرة) و(بورسودان)، على رأس كل واحد منها مفتش طبي بريطاني!

زد إلى ذلك، العديد من المستشفيات الصغيرة ذات الشعبية العالية بين السودانيّين في مختلف أنحاء السودان، رغم ضعف إمكاناتها!.

يرجع الفضل إلى الرعيل الأول من الأطباء، في تحديد أولويّات الخدمة الطبية بصورة ممتازة، مما ساهم في مستقبل تطورها فيما بعد! وتمثل ذلك أولًا؛ في تقديم خدمة علاجية في كل أنحاء البلاد. تلى ذلك تخطيط وتنفيذ برامج الصحة العامة وخدمات الطب الوقائي، ثمّ تقديم خدمة متخصّصة من قبل الأخصّائيين في مختلف فروع الطب. كما أدرك مسؤولو الخدمة الطبية - أولئك، أنّه لا يمكن تغطية بلد شاسع كالسودان إلا بكادر طبي وسيط. لذا؛ قاموا باختيار أفضل العناصر من الكوادر الصحية الدنيا، ومن ثمّ إدراجهم في تدريب عملي لفترة عامين، على أبجديات الطب العلاجي والوقائي معًا، ثمّ إرسالهم إلى مراكز صحية مبسطة، تم إنشاؤها في مختلف قرى وأرياف البلاد. كان ذاك الكادر من المساعدين

الطبيّين، خير مثال لتجربة رائدة لا نظير لها.

لقد كان في كل مديرية في السودان مستشفى رئيسي، والعديد من المراكز الصحية ونقاط الغيار، الموزعة على مسافات جغرافية معقولة. لقد كان المفتش الطبي لكل مديرية، مسؤولًا مسئولية مباشرة، عن ضمان توافر الكادر والعتاد اللازم لتلك المراكز الطرفية، إضافة إلى قيامه بجولات تفتيشية منتظمة. لقد مثلت تلك المستوصفات أو ما كان يعرف بالشفخانات* مراكز صحية في كل منطقة. وفي فترة لاحقة؛ عيّن في كل واحدة من تلك الشفخانات، قابلة ومعاون صحي ضمن طاقمها الوظيفي. لقد تم ذلك؛ بعد عام 1919، حين توافرت الميزانيات اللازمة لذلك.

بين عامي 1919 و1924؛ انضم للخدمات الطبية السودانية، أربعة عشر طبيبًا بريطانيًا جديدًا؛ كنت أحدهم! حيث انضممت إلى الخدمة في فبراير من عام 1924. لقد كان ذلك العام عامًا دراميًا في تاريخ السودان بصفة عامة، وفي تاريخ الطب في السودان بصفة خاصة!.

مصر.. التي كانت قد نالت استقلالها من بريطانيا عام 1922، كانت تهفو إلى السيطرة على السودان. لذا؛ فقد ارتفعت الروح المناهضة لبريطانيا هناك. الأمر الذي أدى إلى اغتيال السير (لي استاك) حاكم عام السودان وسردار الجيش المصري، في أحد شوارع القاهرة.

على تلك الخلفية؛ تم طرد كل القوات المصرية من السودان! وعلى الرغم من عدم إلغاء الحكم الثنائي حينها، إلا أنّه لم يعد لمصر أي دور في حكم السودان، بعد تلك الواقعة!.

في ذات العام؛ تم افتتاح مدرسة كتشنر الطبية. وبدأ معها تدريب السودانيين لأول مرة في مجال الطب. من ناحية أخرى؛ وفي العشرة أعوام التي تلت، كان التوسع في الخدمات الطبية وتعيين الأطباء البريطانيين قد بلغ غايته. إذ انضمّ في تلك الفترة تسعة وأربعون مفتشًا طبيًا بريطانيًا إلى الخدمة! وبهذا؛ صار من الممكن تطوير الخدمة الطبية إلى أفضل مستوياتها.

كان ضمن هؤلاء ثلاثة من الأخصّائيّين: أخصّائي عيون، وأخصّائي نساء وتوليد، وثالث: كان أخصّائيًا في علم الـ (باكتريولوجي).

في عام 1928؛ تخرّجت أول دفعة من الطلاب السودانيين من مدرسة كتشنر الطبية، وكان عددهم سبعة أطباء، التحقوا جميعهم بالخدمة الطبية السودانية! هذا؛ ولّما كان التصوّر أنّ عدد الأطباء السودانيّين سيزداد في مقبل الأعوام، قرّر مدير الخدمة الطبية السودانية دكتور (أوليفر إيتكي)، أن تمتد الخدمة الطبية السودانية إلى جنوب السودان امتداد مثيلتها

في شماله!. في ذلك الأوان؛ لم يزل أطباء الجيش مسؤولين عن الخدمات الصحية، في اثنتين من المديريات الجنوبية الثلاث [1]. لقد قام هؤلاء بقليل من الإمكانات المتاحة، بأداء خدمة صحية ممتازة، لاسيما في السيطرة على مرض النوم في تلك المناطق المعزولة، التي يكثر فيها البعوض الناقل لمرض الملاريا. لقد كنت سعيد الحظ؛ عندما تم اختياري لتحويل الخدمات الصحية إلى الإدارة المدنية – لأول مرة في تلك الأصقاع! وعند مغادرتي جنوب السودان عام 1939، منضمًا إلى قوة دفاع السودان عند اندلاع الحرب العالمية الثانية، كنت قد نجحت في تكوين خدمة صحية ممتازة، أسوةً برصيفتها تلك التي في شمال البلاد.

في عام 1922 [2] افتتحت مدرسة القابلات في (أم درمان). لقد كان ذلك مغامرة كبيرة وقتها. لأنّ أي محاولة لإدخال تغيير في طرق حياة السودانيين التقليدية؛ خاصة ما يتعلق بمسائل الولادة، كان يقابل بالكثير من الشك والريبة، بل وبالرفض!. حتى عام 1921؛ كان تعليم المرأة في السودان – بالكاد– قد بدأ. لذا؛ فقد قوبلت فكرة إنشاء مدرسة للقابلات بالاستهزاء والسخرية! بيد أنّ حملة مناهضة ختان الإناث بين رهط المتعلمين السودانيّين في (أم درمان)، كانت بمثابة ضربة البداية! لاسيّما وأنّ الأمر مرتبط بالممارسات الشنيعة في عمليّات الولادة التقليدية آنذاك!. يجدر بالذكر؛ أنّ مهنة التوليد والقِبالة، كان ينظر إليها بشيء من احترام وتقدير بين الأهالي في شمال السودان. كانت القِبالة متوارثة لدى أسر بعينها. وتمتهنها –في الغالب– النساء الطاعنات في السن أو المطلقات. ومن الغريب العجيب؛ أنّ تقدّم سنّ القابلة، وضعف بصرها، أو حتى عماها، لا يحول دون ممارستها المهنة! ذلك أنّ عملية التوليد كانت تتم باللّمس، ولا يُعوّل على النظر كثيرًا في إتمامها.

كانت (أم درمان) عند مطلع عشرينيّات القرن العشرين، مدينة متسخة ومليئة بالقاذورات! كانت الشوارع غير معبدة ومليئة بالحفر. ولم تكن ثمّة إضاءة في الشوارع. وكانت وسيلة المواصلات الوحيدة، هي الحمير أو السير على الأقدام!. مع تلك الحال؛ قدمت من مصر الآنسة (مابل ولف)، وهي قابلة متدربة جرى إقناعها ببدء عملية تدريب القابلات في (أم درمان)، وإنشاء مدرسة – خصيصًا – لهذا الغرض. لم تكن الميزانية

(1) المترجم: المديريتان هما (بحر الغزال) و(الاستوائية). الأخيره كانت تعرف عند بداية الحكم الثنائي بمديرية (منقلا). معظم مديرية (أعالي النيل) كانت تحت إشراف الخدمة الطبية السودانية. وجزء منها -ليس باليسير- كان يُغطي من قبل أطباء يتبعون للجمعيات المسيحية التبشيرية الأمريكية والكندية.

(1) المترجم: الصحيح هو أنّ افتتاح مدرسة القابلات في (أم درمان) كان في يناير من 1921 و ليس 1922.

المخصّصة لهذا العمل تكفي لتشييد مبان جديدة. لذا؛ فقد تم إسكان الآنسة (وولف) في منزل ذي غرفتين من الجالوص، وغرفة للاستحمام – لكن ليس بها حمام!.

في أحد أركان المنزل؛ كان هناك مطبخ صغير ومكان خُصّص للخادمة – يقود إلى مبنييْن آخرين، يتكوّن كل واحد منهما من غرفتيْن من الجالوص، كذلك.

استُغلّ أحد المبنيين عنبرًا لإسكان الطالبات، فيما حوى الآخر مكتبًا، وغرفة للمحاضرات، وغرفة للكشف على الحوامل، ومخزنًا تمّ تحويله –لاحقًا – إلى غرفة للولادة.

كانت النوافذ بلا زجاج! ولا يوجد سوى القليل من الأثاث في كل المبنى. كان مصدر الإضاءة الليلية فوانيس البارافين أو الشموع. أمّا الماء؛ فكان يجلبه –كل يوم– بعض مساجين السجن المحلي، من بئر غير بعيد. عندما ألفت الآنسة (وولف) نفسها وحيدة في ذلك المكان، وليس في معيّتها طاقم يساعدها في هذه المهمة الشاقة، ولا مترقّبة أو متوقّعة قدوم من يقف إلى جانبها، خفق قلبها وتنزّى بين جنبيها. بيد أنّ الآنسة (وولف)؛ كانت تملك سلاحي الشجاعة والتصميم، رصيدين مهمّين لإتمام تلك المهمة الشاقة، هما: تمكنها من الحديث باللغة العربية بطلاقة، وما لديها من روح الدعابة!.

كان إقناع البنات السودانيات بالانخراط في المدرسة لتدريبهن – في بداية الأمر– مهمة شبه مستحيلة! رافقها كثير من الإحباط. لقد قامت – ذات مرة– إحدى النسوة الطاعنات في السن: على شاكلة (سارة قامب)، بتقبيل الآنسة (وولف) في خدها قائلة: «لقد مارست مهنة التوليد، قبل أن تولد أمك!». رغم ذلك؛ بدأت الدراسة في مدرسة القابلات باثنتين من الطالبات، كانت إحداهما قابلة تقليدية قد تجاوزت السبعين من عمرها! والأخرى صغيرة ومتزوجة وقليلة الخبرة .. وكلاهما أميّتان.

في الفترة الدراسية الثانية؛ انضمت إليهما فتاتان أخريان. لقد تميّزت إحدى تينك الفتاتين – رغم كل التوقعات– وتخرّجت بامتياز! لتنضم إلى طاقم التدريس في المدرسة، ومضت تخطو من نجاح إلى نجاح! فكانت هي أوّل قابلة سودانية،* تنال الميدالية الإمبريالية من الملك (جورج السادس) عام 1945.

بعد أن أكملت المدرسة عامها الأول؛ تم قبول ست طالبات – وُجدت إحداهن فيما بعد، عارية تمامًا! وهي تقوم بتوليد أول حالة لها إبّان التدريب. وكان تفسيرها لهذا التصرّف، أنّها خشيت اتّساخ ردائها الأبيض: (لباس الجراحين في العمليّة)، وهي تقوم بتوليد تلك

السيدة!!

ازدهرت مدرسة القابلات؛ ولمّا يمضِ على افتتاحها سوي ثلاثة أعوام، حتى تمّ تدريب كل القابلات التقليديات في (أم درمان)! ومنحن تراخيص لمزاولة المهنة. عندها قررت الآنسة (وولف)؛ أنّه قد حان أوان تنفيذ المهمة الثانية، وهي تدريب قابلات الأقاليم.

لقد كانت فلسفة الآنسة (وولف) المنهجية في تدريب أولئك النسوة الأميّات، متمثلةً في طريقة مبسطة وعمليّة تعتمد على التلقين والتكرار!. كان (صندوق القابلة) المحتوي على الأدوية والموادّ المطهرة، يمثّل حجر الزاوية في تلك الطريقة التعليمية الفريدة. حيث كان يتم تعليم أولئك النسوة كل ما له صلة بعملية الولادة، عن طريق العين وحواس اللمس والذوق والشم! مع وجوب حفظ جرعات الأدوية عن ظهر قلب. وكان شعار تلك التجربة العظيمة، الالتزام بالنظافة والنظام!.

خلال عشرة أعوام؛ غدت مدرسة القابلات ذات شأن كبير، وغدت الحاجة ملحة إلى مبان جديدة تسع أنشطتها ومهامّها. في غضون عام 1936؛ قدم مدير هيئة تدريب القابلات المركزية في بريطانيا، لزيارة المدرسة – ممتحنًا خارجيًا. ولقد ذهل من روعة تلك التجربة العظيمة، عندما رأى بنفسه كيف يمكن تحويل نساء أميّات لا يعرفن القراءة والكتابة – في فترة وجيزة– إلى قابلات قديرات! وكتب في سجل الزوّار: «باعتباري معلمًا... أحس أنّني في غاية التواضع، أمام هذه المدرسة العظيمة!».

في عام 1946؛ كتب ممتحن آخر خارجي من لندن –أيضًا – انطباعاته في سجل الزوّار: «إنّ رسالة هذه المدرسة، وما نجحت في تحقيقه، والتأثير الذي خلفته، في اعتقادي؛ من أعظم الإنجازات التي تحقّقت في مجال الطب!». لقد كان لأولئكنّ القابلات السودانيات، فرصة الولوج إلى كل منزل في السودان! ومضين – بوصفهنّ صاحبات رسالة– يبشرن وينشرن مبادئ النظافة والعادات الصحية الجيدة، وكذلك يُبصّرن فتيات السودان بكل مخاطر العادات الضارة، وعلى رأسها الختان الفرعوني.

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وبعد أن تبين للحكومة مدى التأثير الذي أحدثته المدرسة في المجتمع السوداني؛ قرّرت –عندها– أن تخطو خطوة جريئة أخرى. فأوعزت إلى كبار الأطباء من البريطانيين والسودانيين، أن يُعدّوا كتيّبًا يبصّر السودانيين بمخاطر الختان الفرعوني وآثاره الضارة على صحة المرأة. وفي عام 1946؛ أصدرت الحكومة قانونًا يمنع

الختان الفرعوني، وحشدت له الدعم اللازم من أقطاب المجتمع. للأسف؛ لم تنجح كل تلك المحاولات في الوصول إلى الهدف المنشود.

بعد وصول الآنسة (مابل وولف) بسنوات، انضمت إليها شقيقتها (جيرترود وولف)، وهي مثلها؛ كانت تجيد العربية بطلاقة، وذات شخصية قوية. نجحت الأختان في تلك المهمة العظيمة؛ وساهمتا في توسيع الدراسة في مدرسة القابلات، ثمّ أنشأتا عيادات متابعة الحوامل، وقمن – كذلك– بجولات تفتيشية للقابلات في مختلف مديريات السودان.

لقد نجحت تلكما الفتاتان في نيل محبة وإعجاب السودانيين، على نحو لم يتسنّ لأحد غيرهما من قبل ومن بعد!.

بعد الاستقلال؛ قام السودانيون أنفسهم، بتوسيع خدمات رعاية الأمومة والطفولة وكل مجالات الصحة العامة. وفي عام 1964؛ أصبحت هنالك تسع مدارس لتدريب القابلات في مختلف أرجاء السودان. حيث ارتفع عدد القابلات المدربات إلى 1446 قابلة. وعند الاحتفال بالعيد الخمسين لتأسيس مدرسة القابلات في (أم درمان)، تم تقليد مؤسسة تلك المدرسة الآنسة (مابل وولف)، نوط الجدارة لجمهورية السودان.

لقد أسهم التطور المطرد للخدمات الطبية في مختلف أرجاء السودان – منذ أيام طب البداوة، مرورًا بمرحلة إنشاء المستشفيات والمراكز الصحية ورعاية الأمومة والطفولة، في تغيير حياة السودانين. كما أسهم التطوّر الفعّال والاكتشافات المذهلة في طب المناطق الحارة، في ذلك التبصير المذهل بما عليه حياة وصحة الإنسان! لاسيما في تشخيص وعلاج كثير من الأمراض والأوبئة التي كانت تهدد البلاد. فوباء الحمى الشوكية يعتبر – منذ القدم– داءً فتاكًا، حين يبرز إلى الوجود –بين حين وآخر– في مختلف أرجاء السودان، خاصة في المناطق الريفية. لقد ظهر وباء الحمى الشوكية لأوّل مرة في (أم درمان) عام 1898، والتي انتشر فيها المرض بسرعة مذهلة! إذ تراوحت نسبة الوفيات ما بين الـ٪70 إلى الـ٪80، وقضى أغلب أولئك القوم البؤساء نحبهم! فسرى الذعر بين من بقي من سكان المدينة والهلع! حتى صار المرض معروفًا بين الأهالي بـ (أبو فرار) أي: (صاحب الفأس)!

في شمال السودان؛ حيث المناخ الحار الجاف.. كان وباء الحمى الشوكية عادة ما يظهر في موسم الجفاف، ويختفي عند بداية هطول الأمطار في موسم الخريف. في جنوب السودان؛ حيث يسود الطقس الممطر والرطوبة العالية.. كان المرض يظهر بصورة عشوائية، ويمكث

طويلًا!. والمعروف عن الحمى الشوكية؛ أنّها عالية العدوى. لم يكن ثمّة علاج فعّال للمرض، يؤخذ فيه بقرينة الظرف الزماني والعامل المناخي! لذا؛ فقد كانت الإجراءات الوقائية هي الأهم، في السيطرة على الأوبئة حين حدوثها. وكانت طبيعة تلك الإجراءات غير محبذة عند الأهالي. حيث منع التجمعات - خاصة المناسبات الاجتماعية، هو أوّل الإجراءات! يتبع ذلك، إغلاق المحالات والبقالات وأماكن بيع الخمور. وثمّة وسيلة أخيرة؛ هي حرق الأكواخ وإلزام ساكنيها بالنوم في العراء!. كان الأطباء يلجأون إلى عمليات بزل الظهر، لتقليل كمية السائل الشوكي، وخفض الضغط على دماغ المصابين. هذا؛ ولم يكن العلاج بالمضادات الحيوية قد اكتشف بعد! لذا؛ فقد كانت مهمتنا -نحن الأطباء- في غاية الصعوبة! وحيث نجاحنا في علاج المرضى، كان جدّ متواضع! فعُدنا؛ وكأنّا نبث الموت بين البرايا!!.

ذات مرة؛ لجأت لحيلة صادفت قبولًا من الأهالي. كان ذلك عند دخولنا إلى قرية ظهر فيها الوباء، حيث وجّهت أهالي القرية بالاصطفاف خارج الأكواخ، وجعلتُهم يشمون قارورة بها محلول (الفورمالين) المركّز!. لقد فعل أثر نوبات السعال ونزول الدموع فعله، فأجبرهم على المكوث خارج الأكواخ، وهيأ لنا فرصة إقناعهم باجتناب الزحام، وضرورة الامتناع عن الاكتظاظ داخل الأكواخ مع المرضى!.

لقد أصابني فشل (طب الغرب) في علاج كثير من الأمراض آنذاك، بالإحباط وخيبة الأمل! فالتمست كثيرًا من العذر، للأهالي الذين لجأوا إلى السحرة والمشعوذين!.

لم تكن وسائل الطب الوقائي ذات فعالية تذكر. وكانت تؤدي إلى تذمر الأهالي وإلى معاناتهم في سبل كسب عيشهم. الأمر الذي أدى إلى إحجام الأهالي عن التبليغ عن حالات الإصابة! وكنّا نستدل على حلول الوباء في تلك الأنحاء، من حدوث الوفيات العديدة في وقت وجيز!. ولحسن الحظ؛ فقد ظهر الخلاص مع ظهور عقار (السلفا)، الذي سرعان ما نجح في القضاء على تلك البكتريا العنقودية، المسببة لكثير من الأمراض - خاصة وباء الحمى الشوكية!.

كانت ثمّة تجربة شخصية مثيرة حدثت لي عام 1937؛ حين ظهر وباء الحمى الشوكية إبّان فترة عملي في جنوب السودان. لقد دلف إلى (شبه المستشفى) الذي شيدناه من القش ذات أصيل والشمس مؤذنة بالمغيب، أحد أفراد قبيلة (الدينكا). كان شابًا فارع الطول،

يتجاوز ارتفاعه ست أقدام وست بوصات! دلف إلى المستشفى وهو يحمل ابنته ذات الستة أعوام، بعد مسيرة يومين على الأقدام!. لقد كانت تلك المسكينة في حالة إغماء. وكان عمودها الفقري متقوسًا بانحناء نحو الداخل، فلم يلامس طاولة الكشف غير رأسها وأطراف قدميها!. لقد كانت الطفلة قاب قوسين أو أدنى من الموت! الأمر الذي جعلنا نستنكف إعطائها عقار (البرونتوسيل **Prontocil**)! لكن ما جعلنا نقرر محاولة إنقاذها، هو شجاعة وتصميم وإيمان والدها، الذي قام بكل ما في وسعه لإيصالها إلينا.

قمنا بعملية (بزل ظهر) لتلك الطفلة المسكينة! وكانت النتيجة، خروج سائل صديدي أخضر! كناية عن أنّ حالتها في غاية الخطورة!. بعدها؛ قمنا بإعطائها جرعة كاملة من عقار (السلفا). ثم تركناها في رعاية والدها. لكن كنا متيقّنين أنّ حالتها ميئوس منها. ولم نك نتوقع أبدًا؛ أن تبقى تلك الطفلة على قيد الحياة!. حين أصبح صبح اليوم التالي؛ لم نصدق ما رأيناه بأم أعيننا! لحظة وجدناها على حجر أبيها، وهي ترتشف الحليب من إناء بين يديه!. لقد شفيت الطفلة تمامًا، وكان ذلك أعجوبة الأعاجيب!.

بعد توافر المزيد من الدواء؛ صار بإمكاننا رؤية كثير من مرضانا وقد نجحوا في مغادرة المستشفى، بعد أن تمّ شفاؤهم على أكمل وجه!.

لقد أتاح لنا ذلك العقار ترياقًا عظيمًا ضدّ (أبو فرار)، وانتشر خبر توافره انتشار النار في الهشيم! وانتقل بين الأحراش انتقال الخبر عبر خط التلغراف! وساهم ذلك؛ في علاج الحالات المبكرة، مما أدّى إلى انخفاض نسبة الوفيات إلى أقل من ٪10! بل إلى أقل من ٪3، في حال الإصابات التي تحدث على مقربة من المستشفى. وحسب استقراء علماء الوبائيات، فإنّ علاج الحالات قد يؤدي إلى انخفاض الوفيات، ولكن ليس إلى اختفاء الوباء كلية. وذلك ما كان يحدث بالفعل!. إلا أنّ نجاح علاج الحالات؛ والذي لم يكن في السابق أمرًا محسومًا، أدّى إلى خلق شعور جديد بين أطباء الخدمة الطبية السودانية، وساهم في إضافة سمعة حسنة للخدمة – ليس على الصعيد المحلي فحسْب.. بل على الصعيد العالمي أيضًا! ممّا عزّز الإحساس بالثقة لدى أولئك الأطباء، ومكّنهم من مجابهة صعاب وأوبئة أخرى!.

في عام 1926؛ كان هناك وباء من نوع آخر – وهو حمى (التايفوس)، الذي بدأ في غرب إفريقيا ثمّ انتشر بصورة سريعة ومطردة شرقًا، حتى وصل إلى منطقة (دارفور) في غرب البلاد. وقبل أن تصل أنباء هذا الوباء إلى رئاسة الخدمة الطبية في الخرطوم، كان زهاء

العشرة آلاف مصاب قد لقوا حتفهم!. في تلك الأيّام؛ لم تكن ثمّة وسائل لتبليغ أنباء مثل هذه الأوبئة. و(دارفور) التي يبلغ حجمها ثلاثة أضعاف حجم إنجلترا، كانت قد ضمّت للتو إلى إدارة الحكم الثنائي عام 1916. كانت الإدارة هناك لا تزال في مهدها، والخدمات لم تزل في أطوارها الأولى.

في عموم مديرية (دارفور)؛ لم يكن هناك سوى طبيب من الجيش البريطاني، وثلاثة من الأطباء السوريين. لقد قام ذلك الطبيب البريطاني - وهو في مرتبة مفتش صحة المديرية، بتقصي حالات الوباء الجديد. إذ قام حينها بتشخيص المرض على أنّه حمّى (التايفوس)، لكنّه لم يستطع تحديد نوع الوسيط الناقل، هل هو القراد أو القمل؟. على كل حال؛ كان العلاج حينها هو عقار: (سلفارسان -606- **Salvarsan**). لقد قام ذلك الطبيب؛ بإرسال برقية إلى السلطات في الخرطوم، طالبًا إرسال كمية كبيرة من ذلكم العقار وما يلزم من الحقن. وكذلك ابتعاث أخصّائي علم أمراض، كي يقوم بالبحث المطلوب بغية تحديد نوع الوسيط الناقل للمرض.

على أثر ذلك؛ تمّ إرسال (دكتور رايدنق (**Dr Riding** من معمل (ويلكم) للأبحاث بـ (الخرطوم)، ومعه خمسون فأرًا من فئران التجارب الطبية - قضى تسعة وأربعون منها نحبها في الطريق! اختناقًا بدخان ماكينة السيارة التي أقلّتهم في رحلة الألف ميل من الخرطوم!. والطريف؛ أنّ طباخ دكتور (رايدنق) -السوداني- قد أصيب بحمى (التايفوس). عندها؛ قام رايدنق بحقن الفار الوحيد الباقي على قيد الحياة، بعيّنة من دم الطباخ! وتشاء الأقدار؛ أن يهرب الفأر الأخير اللعين إلى أحد الجحور في منزل مفتش المركز الإداري، واختفى عن الأنظار!. قام حينها دكتور (رايدنق) بوضع قملة في أنبوبة اختبار، ونجح في حفظها حية. وذلك عن طريق ملامسة الأنبوب لدرجة حرارة جسمه!! وأخيرًا تمكن من تشخيصه المرض، أنّ الوسيط الناقل هو القمل.

لقد تيقّظ حينها دكتور (أوليفر إيتكي)، أنّ وباء (التايفوس) إذا استمر في الانتشار شرقًا من (دارفور)، فإنّه سرعان ما سيصل إلى منطقة (الجزيرة)، حيث مشروع زراعة القطن: الذي هو عصب اقتصاد البلاد. لذا؛ فقد سارع دكتور (إيتكي) بإرسال أعداد كبيرة من الأطباء، يرافقهم تسعة وأربعون من الممرضين السودانيين، الذين تم تدريبهم لإعطاء الحقن الوريدية. ثمّ جرى تحويل كثير من اللواري السفرية، إلى عربات إسعاف مليئة

بالمعدّات الطبية، وأرسلت – جميعها– في رحلة الألف ميل غربًا إلى (دارفور).

في هذه الأثناء؛ بذل مفتّش طبّي (دارفور) وطاقمه الطبّي، قصارى جهدهم في محاولة السيطرة على الوباء، مستغلًا ما لديه من الإمكانات المتاحة. لم يكن لديه الكثير؛ ولذا فقد استمرت أعداد المصابين في الازدياد. فاضطُر –أخيرًا – إلى سياسة إخلاء الأكواخ المحتوية على المصابين، ومن ثمّ حرقها! وجعل المصابين ينامون في العراء. تمّ بعدها إنشاء محطّات، على طول الطريق الذي يربط (دارفور) بالسودان الأوسط. كانت تلك المحطّات هي نقاط إزالة القمل من أجسام المسافرين؛ ومن ثمّ يتمّ غلي ملابسهم لقتل القمل! قبل أن يتمّ حجزهم لفترة عشرة أيّام! فإن لم تظهر عليهم أعراض المرض، يُسمح لهم بمواصلة السفر، بعد إعطائهم تصاريح خاصة بذلك. رغم تذمر الأهالي من الإجراءات المشددة آنفة الذكر، وعمليات حرق الأكواخ، لكن سرعان ما تبيّن لهم، أنّ العلاج الشافي يتم وبسرعة، بعد حقنة واحدة بالوريد! مما جعلهم يقفون في طوابير طويلة لتلقي العلاج، كلما ظهرت عليهم أعراض المرض.

بعد وصول الأطبّاء والممرضين إلى منطقة (دارفور)؛ جرى التحكم بسرعة في انتشار الوباء! حيث قدّر عدد الذين تمّ علاجهم؛ بحوالي السبعة عشر ألف شخص! بيد أنّ ربع سكان (دارفور)؛ قد لقوا حتفهم من جرّاء ذلك الداء الوبيل!. يجدر بالذكر؛ أنّ تطوّر الخدمات الصحية في (دارفور) خلال فترة الستة أشهر –التي هي عمر الوباء– لم يحدث طيلة الستة أعوام قبلها! وربّ ضارة نافعة!!.

إنّ الحمّى الصفراء تعتبر من الوبائيّات المخيفة!. إذ المرض الذي كان يُعتقد انتقاله عن طريق البعوض منذ عام 1881، لم يتمّ التحقق من جرثومته والتأكد من الوسيط الناقل له، إلا عام 1901 على يد دكتور (ريد) وفريق بحثه في أمريكا الوسطى، عندما شخصّوا الجرثومة الناقلة للمرض، فكانت فيروسًا تحمله ناموسة (الأيديس إيجبتي **Aedes egypti** المنزلية! ذلك حين قام دكتور (سوير **Dr Sawyer**) من معهد (روكفلر) في (نيويورك)، باستحداث تحليل مبسّط لعمل الكشف الوبائي على نطاق واسع. وإن كان ذلك قد بدأ في شكل أبحاث عديدة في السودان، منذ عام 1931. على الرغم من عدم التبليغ عن أي حالة للحمى الصفراء في البلاد، إلا أنّه لوحظ أنّ حزامًا واسعًا في جنوب وأواسط البلاد، مهدد بحدوث الوباء في أي لحظة!.

بعد دراسة لنتائج فحص المناعة في العيّنات المرسلة من السودان، بدأ دكتور (سوير) في حشد اللقاح بكميات كبيرة. لكنه تنبأ بحدوث وباء الحمى الصفراء في السودان، عاجلًا أم آجلًا!.

كان دكتور (سوير)؛ ذا نظر ثاقب إلى حد كبير! إذ حدث ما توقعه تمامًا! لقد ظهر وباء الحمى الصفراء في منطقة جبال النوبة عام 1940. كان الوقت حرجًا للغاية! لاسيّما مع الظروف الاستثنائية للحرب العالمية الثانية. كانت قوّات كثيرة تنقل -حينها- من غرب إفريقيا، إلى جبهة القتال مع الإيطاليين في شرق السودان. كانت تلك القوات تتمركز تحديدًا في ميناء (بورتسودان). لذا فقد كان من الضروري احتواء الوباء. لأنّ الفشل في إنجاز ذلك؛ سيؤدّي إلى تهديد تلك الحشود العسكرية القادمة إلى السودان.

تم إرسال فريق طبي على جناح السرعة إلى جبال النوبة. لقد كان التحكم في انتشار الوباء من الصعوبة بمكان. إذ تركزت معظم الحالات في القرى الواقعة في أعالي الجبال. وكان السكان جدّ بدائيين، ولم تكن هناك زعامات قبلية مؤثرة، وكذلك كان ينقسمون إلى مجموعات إثنية كثيرة، ذات لغات متباينة.

وكانت سبل المواصلات في غاية الصعوبة! حيث لا توجد طرق معبدة خلال الجبال. كانت الوسيلة الوحيدة للتنقل في تلك المناطق الوعرة، هي البغال والحمير. وهذه -أيضًا - لم تكن متوافرة.

كان السفر في أحايين كثيرة يتم مشيًا على الأقدام. فكان لا بدّ من حمالين كي يحملوا أمتعة السفر على ظهورهم. لقد كانت مهمة جدّ عسيرة! ومصدر الخوف الأكبر، أنّ أفراد الطاقم الطبي، لم يكونوا قد تم تطعيمهم ضدّ الحمى الصفراء!. ولحسن الحظ؛ لم يكن الفيروس المسبب للوباء ذا فعالية كبيرة! ورغم ذلك، فقد أصيب اثنان من أفراد الطاقم بالحمى الصفراء.

وبعد أن تمّ إرسال برقية مستعجلة إلى (نيويورك)، جرى شحن كمية كبيرة من لقاح دكتور (سوير) للحمى الصفراء عن طريق الجو. بعدها تم إرسال كمية إضافية من معمل (روكفلر) الجديد في يوغندا.

بدأ الشروع في حملة تطعيم الأهالي بسرعة. في البدء؛ تم تطعيم أفراد القوات المسلحة، وكل المشاركين في الحملة العسكرية. وكذلك تمّ إنفاذ كل إجراءات العزْل للمصابين،

وإقامة نقاط التفتيش عند جميع نقاط عبور الطائرات والقطارات، منعًا لانتشار المرض. لقد تم إخطار كل شخص بضرورة السعي في معرفة أماكن توالد البعوض والقضاء عليه. لأن البعوض الناقل للمرض، معروف بوجوده في المساكن. كذلك يرجع الفضل لتوافر اللقاح، ولجهود دكتور (سوير) الأوليّة، وللعمل العظيم الذي قامت به حكومة السودان! مما ساعد على التحكم في الوباء، الذي أصاب حوالي السبعة عشر ألفًا – قضى عُشرهم نحبه نتيجة المرض!.

مرض (اليوز **Yaws**) أو ما يعرف بـ (فرامبوزيا) – وهو مرض شديد العدوى، يظهر في شكل تقرحات كبيرة في أماكن متعددة من الجسم. وفي مراحل متقدمة؛ يؤدي إلى التهابات في المفاصل، وتشوّهات الأطراف، وتقرحات مزمنة في راحة القدم! هذا المرض ينتشر في جنوب السودان، ونادر الوجود في شمال السودان.

وتنتقل عدوى هذا المرض عن طريق الملامسة، وبواسطة الذباب. في عام 1922؛ تم القيام بحملة للقضاء على المرض بين القبائل النيلية – وعلى رأسها الدينكا، وهي التي تمثل المجموعات السكانية الأكثر تعرضًا لهذا المرض. لقد أسهمت (ليدي بيكر)؛ وهو اسم سفينة المستشفى العائم، التي صارت المقرّ الرئيسي لتلك الحملة، وصاحبة القدح المعلّى في مكافحة ذلك المرض! المنتشر بين أفراد قبيلة الدينكا، الذين يقيمون على ضفاف النيل في فصل الجفاف، لضمان المرعى لأبقارهم.

في ذلك الحين؛ استُخدم نوعان من العقار، أحدهما: العقار الأكثر شهرة وقتها (ستمائة وستة: 606). كانت الحقنة الواحدة من ذلك العقار – والتي تؤخذ عن طريق الوريد– ذات أثر فعال، وكافية للقضاء على المرض! فلا ينقضي يومان على تعاطيها أو ثلاثة، إلا وتكون التقرّحات قد اختفت تمامًا. بعد ذلك؛ ظهر دواء آخر من مادة (البزموث) كانت له نفس الفعالية في القضاء على المرض! وفوق ذاك كانت له خاصيتان عظيمتان: إذ كان يُحقن في العضل، وأرخص عشرين مرة من (ستمائة وستة)!. ولذلك أهميته الاقتصادية المعتبرة لدى الجهات المموّلة. إذ كان يلزم إعطاء 30 ألف حقنة من عقار (ستمائة وستة) في المتوسط! وحوالي 77 ألف حقنة من (البزموث) خلال عام واحد فقط.

لقد كان الإداريّون من مفتشي المراكز، يساعدون الأطباء على أداء تلك المهمّة الشاقة. لقد كنت أحدهم ذات مرة، حين قمت برفقة الأطباء بحملة علاج لحقن الأهالي. بدأنا ذات

صباح باكر. وتمكنّا خلال ذلك اليوم من حقن 919 فردًا! لم يكن لدينا وقت لتناول الطعام. ولم نتناول سوى كوب من الشاي عند الرابعة عصرًا. وعند الغروب؛ قمنا بإضاءة مصباحين من مصابيح الغاز. ولم ننهِ العمل إلا في حدود التاسعة ليلًا! كانت جحافل البعوض تئز من حولنا، موشكةً أن توقف سير عملنا.

ما زالت تطوّف بخيالي ذكرى يوم لا أنساه! ذلك اليوم الذي رست فيه (ليدي بيكر) – مستشفى السفينة– على شاطئ النيل، حيث تماوج بحر متلاطم من أفراد قبيلة الدينكا. كانت أجساد الأطفال مغطاة بـ(اليوز **Yaws**)، والذي يمكنك رؤيته من على ظهر السفينة. لقد كان معظم الحشد يئنون من الألم، أو ملقين على الأرض بلا حراك! بادية عليهم آثار المسغبة والضعف والوهن! حتى ليمكنك ملاحظة أنّه لم يتبق الكثير من البالغين الأصحاء، كي يقوموا بحلب الأبقار أو ممارسة الزراعة. فلم نملك؛ إلا أن قمنا بحقن كل فرد من هؤلاء، في ذلك اليوم المشهود.

بعد مرور عام على ذلك اليوم، ولدى مرورنا بعين المكان، سمعنا كثيرًا من هتافات الفرح! حيث الشاطئ – يومها– يعج بحشود كبيرة من الأهالي الأصحاء، الذين رقصوا عند مشاهدتنا فرحين!. لقد كان أثر تلك الزيارات عظيمًا. إذ بعدها لم نصادف أي صعوبة في تطعيم أولئك الأهالي، حين ظهر وباء الجدري في تلك الأنحاء.

حقًا كان مشروع القضاء على مرض (اليوز **Yaws**) عظيمًا! والفضل يرجع في ذلك، إلى الجهود العظيمة التي قام بها دكتور (إيتكي) – حينها. لقد تم علاج القبائل النيلية، وتحول أولئك الناس من مرضى إلى أصحاء ممتنين للحكومة!. لقد نجحت الإبرة والحقنة، في أن يكونا رسولي سلام ومحبة!.

مع نهاية القرن التاسع عشر؛ ظهرت أوبئة فتاكة مثل مرض النوم، الذي انتشر في مناطق الكونغو البلجيكي وشمال أوغندا: تلك المتاخمة لحدود السودان الجنوبية – حيث أشارت التقديرات، إلى أنّ حوالي مليوني شخص قد قضوا من جرّاء ذلك الوباء!.

إثر ذلك؛ أرسلت الجمعية الملكية في (لندن) بعثة إلى أوغندا عام 1902، لاكتشاف سبب الوباء وكيفية انتقاله. ولسرعان ما تمت معرفة سبب الوباء وكيفية انتقاله!. إذ اكتُشف أنّ الطفيل الناقل للمرض هو طفيل (التربانوسوم)، أمّا الوسيط الناقل فهو ذبابة (التسي تسي). حينها قُرعت أجراس الخطر في (الخرطوم)؛ حين علم أنّ ذبابة (التسي تسي) موجودة

عند حدود السودان الجنوبية!. لذا؛ صار من المرجّح المحتّم، دخول المرض إلى السودان في أي وقت! فتمّ حالًا؛ تكوين بعثة عرفت ببعثة (مرض النوم)، من مجموعة من الخبراء. وبناء على خطة عمل معينة؛ جرى تكوين فريق طبي لتنفيذ تلك الخطة - ميدانيًا. وبموجب ذلك؛ أرسل الفريق إلى جنوب السودان، لعمل الاستقصاء اللازم عن المرض والذبابة.

لقد كانت مهمة الفريق الأولى؛ هي مسح مناطق وجود انتشار ذبابة (التسي تسي). وبعد المسح؛ اكتشف الفريق الطبي وجود الذبابة على طول الحدود الجنوبية - بعمق ستين ميلًا داخل الأراضي السودانية. لكنهم لم يجدوا أي حالة للمرض!. تم حينها إرساء خطة لتجهيز فريق يكون على أهبة الاستعداد لما يطرأ من وباء. حيث لم يحدث ذلك إلا عام 1910، في مربع (اللادو)، الذي تمت إعادته في ذلك العام إلى حكومة السودان، من إدارة الكونغو البلجيكي. حينها؛ تمّ إرسال فريق من أطبّاء الجيش، أجروا الكشف على جميع السكان، مع القيام بعمليات تنظيف واسعة للأشجار والحشائش في مناطق توالد ذبابة (التسي تسي). كما تم عزل المصابين في معسكرات خالية من الذباب، وإيقاف الحركة التجارية وعبور المسافرين - من وإلى الكونغو البلجيكي.

لقد استلزم جهد وقف انتشار مرض النوم إلى داخل السودان، حوالي السبعة أعوام من العمل الشاق! لكنّه كان عملًا ناجحًا بكل المقاييس.

في تلك الأثناء؛ ظهر الوباء في منطقة أخرى على الحدود الجنوبية الغربية، وسط قبيلة (الزاندي). ولقد دخل المرض؛ عن طريق بعض الجنود الذين تمت إعارتهم إلى الكونغو البلجيكي، لإخماد بعض الانتفاضات هناك.

بدت الحاجة إلى اتخاذ تدابير مختلفة عن الخطة القاضية بإبعاد السكان عن الذباب. إذ انبنى العمل على تكوين مربعات خالية تمامًا من الذباب، وعلى تقليل كمية الذباب الناقل للمرض. فتمّت نظافة الأشجار وإزالة الحشائش على ضفاف الأنهار وموارد المياه، حيث تنتشر الذبابة. وكذلك القيام باصطياد الذباب عن طريق فرق من الصبيان، وصل عدد إحداها - ذات مرة- إلى المائتي صبي!. لقد نجحت تلك الوسائل؛ من حيث التحكّم في عدد الذباب الناقل للمرض، بل والتخلص منه إلى حد كبير!

لقد استمرت جهود أطبّاء البعثة من أفراد الجيش فترة خمسة وعشرين عامًا! حتى تم إنشاء مراكز صحية، مجهزة بأفراد مدربين للتبليغ الفوري عن الحالات، ممّا سهل مهمة فرق

العلاج.

لم يخل بعض أفراد قبيلة (الزاندي) من حالات المرض، إثر احتكاكهم المتكرّر بأفراد الجيش وقتها! لكن لا يخامرني شك، أنّ الجهود التي بذلت لإزالة ذلك المرض، كانت ذات فائدة عظيمة لأولئك الناس. تلك كانت - حقًا وصدقًا - مهمّة شاقة تحمّلها السودان وحده! ذلك أنّ الدول المحيطة به، لم تبذل - حينها- أدنى جهد في محاربة مرض النوم، والتحكم في انتشاره عبر حدودهم إلى داخل السودان!!.

مثيل ذلك؛ انتشار وباء (الحمى الراجعة) القادم من غرب إفريقيا، عبر المناطق الخاضعة للسيطرة الفرنسية إلى (دارفور) - قبل النجاح في وقف تقدمها. لقد عبر (مرض النوم) من الكونغو ويوغندا، فـ(الكلازار) بعدها! ثمّ (الحمى الصفراء) من إثيوبيا! وأخيرًا (الزهري، والبلهارسيا، والدودة القابضة) من مصر!!. إنّ (الكوليرا) التي يكثر انتشارها في مصر، تمّ إيقاف زحفها إلى السودان، عن طريق مراكز العزل: (الكرنتينة) في وادي حلفا، وكذلك في ميناء (سواكن) إبّان موسم الحج.

في عام 1933؛ خلف دكتور -السير فيما بعد- (إريك بريدي) زميله دكتور (أوليفر إيتكي)، في إدارة الخدمة الطبية السودانية. قام دكتور (بريدي) بإفساح المجال للأطباء السودانيين من خريجي مدرسة (كتشنر) للترقي؛ وبدأ بالمميزين منهم[3]. عند منتصف الثلاثينيّات؛ بدأ العديد من الأطباء السودانيين، تلقي دراسات عليا في المملكة المتحدة. وعند عودتهم؛ كانت تتم ترقيتهم إلى وظائف عليا!. ولقد استمر ذلك في السنوات اللاحقة حتى عام 1954، حين تقلد دكتور (أحمد على زكي)، وظيفة مدير الخدمة الطبية السودانية، ليصبح أوّل طبيب سوداني يتبوأ ذلك المنصب!. كان ذلك قبل عامين من إعلان استقلال السودان.

كان دكتور (بريدي)؛ هو من قام بإنشاء مركز العزل - أي: (الكرنتينة) وتحديثه في (سواكن)، لخدمة الحجّاج إلى (مكة). وقام بعدها - أيضًا - بإرسال أول بعثة طبية لخدمة الحجاج في الحجاز! وصار ذلك عملًا سنويًا.

---

(3) المترجم: أول طبيب تمت ترقيته إلى وظيفة دون وظيفة المفتش الطبي مباشرة، كان هو الدكتور (علي بدري) عام 1937، (الذي صار فيما بعد؛ أوّل وزير للصحة عام 1948). ثم تلاه الدكتور (حسين أحمد حسين): أول مساعد أخصائي عيون، ثم الدكتور (منصور علي حسيب).

كانت تلك البعثة؛ مكوّنة من أطباء وممرّضين يقومون بخدمة الحجيج. ثم تمت إضافة قابلة إلى الفريق الطبي. كانت البعثة تقوم بالرعاية الصحية للحجيج السودانيين ابتداءً. وتطور ذلك؛ ليشمل الحجّاج من الجنسيات الأخرى!. لقد قوبل ذلك العمل بالكثير من الامتنان من قبل الدول الأخرى.

عند تقاعدي عن عملي في السودان عام 1948؛ كان السودانيون على استعداد لإدارة شؤونهم بأنفسهم، والاستمرار في بناء خدمة طبية متميزة. لقد كان ذلك الانتقال سلسًا! إذ عاد البريطانيون إلى بلادهم زرافات ووحدانًا، بعد أن قاموا بتسليم أفضل وأرقى خدمة صحية في إفريقيا الاستوائية -وهم واثقون- إلى أطبّاء سودانيين أكفاء جيّدي التدريب، وحريصين على تطوير وتحسين تلك الخدمة!.

في الفاتح من يناير عام 1956؛ تم إنزال علمي بريطانيا ومصر، ورفع علم جمهورية السودان، إيذانًا بالاستقلال.

الفصل السابع عشر

في الخرطوم - كبيرًا لأطبّاء الباطنية

تمّ تسريحي من الجيش عام 1944، كي أعود إلى عملي طبيبًا مدنيًا. وجرى تعييني كبير أطبّاء الباطنية، ومديرًا لمستشفيي (الخرطوم) و(أم درمان) المدنيّين. كما تمّ تكليفي بوظيفة محاضر في طب المناطق الحارة، في مدرسة (كتشنر) الطبية بـ(الخرطوم).

لقد صحب عودتي تلك؛ تغيير كلي في نمط حياتي!. إذ غدا لدي الآن؛ روتين عمل منتظم، وحياة أسرية منتظمة كذلك. وصار لديّ منزل ذو حديقة واسعة، وسيارة رسمية بسائقها، وطباخ، وسفرجي، وحارس أمين تمثّل في شخص (سعيد) - ذلكم الرجل الوفي، وعامل للحديقة. وبالطبع؛ زوجة تشرف على انضباطي، وتمثل ركيزة البيت الرئيسية!. لقد كانت حياة مليئة بالمشغوليات، لكنها كانت في وسط حضاري مستقر.

لقد تم إرساء المستوى العام لمدرسة (كتشنر) الطبية، لتكون مثيلًا لمدارس الطب البريطانية. لذا؛ فقد كان هناك تقييم منتظم للمدرسة من قبل الكلية الملكية للطب الباطني، والكلية الملكية للجراحين في لندن.

بعد ابتعادي عن المجال الأكاديمي لسنوات طويلة، كان لا بد من قضاء ساعات طويلة كي أحصّل ما فاتني في الحقل الأكاديمي، وكي أكون أهلًا للعب دور أستاذ كلية الطب. لقد كنت محظوظًا؛ حيث نلت بعثة دراسية إلى جامعة (جوهانسبرج) في جنوب إفريقيا، قضيتها في مستشفى (قروت أسكور) في (كيب تاون) - ساعدتني كثيرًا.

لم يتجاوز القبول لمدرسة (كتشنر) الطبية في الخرطوم، العشرة طلاب!. كان ذلك العدد مثاليًا؛ حينما تقوم بالتدريس السريري، وكذلك عند التقييم المباشر لكل طالب على حدة! كما كان ذلك مفيدًا لسير العمل، ومهام مدرّس الطب الأخرى - من علاج للمرضى، وقيام

على إدارة في المستشفيات. ومن واجباتنا أيضًا؛ تدريب الكادر الطبي من ممرضين وغيرهم.

ثمّة؛ طبيب بريطاني متفرغ لوظيفة عميد المدرسة - ما كان يعرف بالنائب- بيد أنّ من مهامّه تدريس مادتي التشريح وعلم وظائف الأعضاء.

كانت هيئة التدريس مكوّنة من مجموعة من أطباء الخدمة السودانية المختارين لتلك المهمة، حيث لم يكن هناك محاضرون متفرّغون للتدريس! إذ كان هؤلاء يقومون بالتدريس، إلى جانب مهامّهم الأخرى!

كانت هنالك إكرامية سنوية لأولئك الأساتذة؛ هي عبارة عن مبلغ خمسين جنيها فقط. لكن كان تدريس طلبة مدرسة (كتشنر) وتأهيلهم، خير إكرامية ننالها!.

اقتنيت زورقًا في تلك الأيام! حيث نادي الزوارق في (الخرطوم) ينظّم مسابقة أسبوعية كل يوم جمعة، على النيل الأزرق. لم يكن لدي سابق خبرة في رياضة الزوارق البحرية. رغم ذلك؛ قرّرت أن يكون لدي زورقي الخاص، والذي تم بناؤه في وحدة البواخر التابعة لمصلحة السكك الحديدية بـ (الخرطوم بحري).

أطلقت على الزورق، اسم: (طائر الجليدSnow Goose)! وسرعان ما صار (طائر الجليد)، أحد تلك الزوارق التي تشارك في سباق يوم الجمعة. ومع تواضع ملكاتي في رياضة سباق الزوارق؛ كنت أحس الزهو - حينها- والفخر!

مع نهاية ذلك الموسم؛ قامت (الليدي هدلستون) زوجة الحاكم العام، بتوزيع الجوائز في نادي القوارب. ولسعادتي؛ حظيت بجائزة كانت مجسّمًا نحاسيًا لـ(طائر الجليد)! أهدتني إيّاه (ليدي هدلستون) ومعها التعليق التالي: «إنّه لمن دواعي فخري؛ أن أقوم بتقديم جائزة لكبير أطبّاء الباطنية، احتفاءً بأول موسم له في سباق الزوارق. وأحب أن أشير إلى أنّه اصطدم بكل الحواجز في النهر، ولكنّه لم ييأس أبدًا!!»

التقاعد عن عملي في السودان

هنالك عاملان؛ ساهما بصورة فعالة في الحفاظ على صحة موظفي حكومة السودان من البريطانيين. أولهما منحهم الإجازة السنوية لفترة ثلاثة أشهر من كل عام. وثانيهما منحهم فرصة التقاعد عند سن الثامنة والأربعين!. كانت سن المعاش ابتداء هي الخامسة والأربعين. لكنّها عدلت إلى الثامنة والأربعين، بعد أن صارت الحياة في السودان أكثر يسرًا. وكذلك بعد السماح للأزواج باصطحاب زوجاتهم. لقد وعدت زوجتي، أنّني سوف أتقاعد -مباشرة- عند بلوغي سن المعاش المقررة! رغم أنّه كان لدي الخيار في الاستمرار لسنتين إضافيتين في السودان. وكان طفلاي (كولن) و(بريجدت) اللذان ولدا في مستشفى الخرطوم، قد بلغا في وقتها الرابعة والثانية والنصف - تواليًا.

لم تكن الحياة في بريطانيا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية جاذبة. لذلك فقد قرّرنا تجربة الذهاب إلى كينيا. لقد ذهبت إلى كينيا مرّات عديدات إبّان إجازاتي السنوية. وكنت دائمًا ما أمكث في فندق (براكنهيرست)، الذي يبعد عن (نيروبي) العاصمة حوالي الثمانية عشر ميلًا. في ذلك الفندق؛ تمت مراسم زواجنا قبل خمسة أعوام مضت!. في إحدي المرّات؛ قابلت (مستر ماكدونيل) وزوجته، اللذين يعتبران من أقدم المستوطنين البريطانيين في كينيا. أقمنا مؤقتًا لفترة في منزلهما، لحين تدبير سكن خاص بنا. غادرت زوجتي في صحبة (كولن) و(بريجدت) والمربيّة إلى كينيا أوّلًا، فيما تخلّفت عنهم مدّة شهر ونيف، كي أشرف على شحن المتاع. استغلّلت سانحة سفري من (الخرطوم) إلى (نيروبي)، في المرور على مناطق جنوب السودان التي سبق وأن عملت فيها! ولهذا الغرض؛ اقتنيت عربة (فورد بيك آب) على طراز شاحنات الجيش - ذات إطارات مطاطية! أبلت بلاء حسنًا في تلك الرحلة الطويلة، إلى

مقرّي الجديد في شرق إفريقيا.

في اليوم الذي غادرت فيه (الخرطوم)؛ كان الرصيف في محطة السكك الحديدية يعج بالممرضين من مستشفى (الخرطوم)، بالإضافة إلى السكرتير الإداري، والعديد من الأصدقاء، والمرضى السابقين من السودانيين والأجانب. إنّ أولئك السودانيين؛ هم أناس في غاية الروعة! وكم كنت محظوظًا أن أعمل بينهم، لفترة تجاوزت الأربعة وعشرين عامًا.

أراني جدّ فخور بمشاركتي في تأهيل السودانيين ليصبحوا أناسًا مميزين!! هذا؛ وما زلت أقابل بين الحين والحين بعض الأطباء السودانيين الذين قمت بتدريبهم، في مختلف أرجاء المعمورة وهم قد تبوؤوا أعلى المناصب! وكنت أحس عندها أنّ مجهوداتي قد صادفت أهلها.

وأنا إذ أدوّن هذه السطور؛ لم يندّ عن ذاكرتي ما صار إليه حال السودان اليوم، بعد مرور أربعين عامًا على مغادرتي له؛ كنت أحيانًا أسأل نفسي وبين جنبي لاعجة من حزن عميق! هل ذهبت كل مجهوداتنا لبناء ذلك البلد أدراج الرياح؟ هل يا ترى، قد أضعت أربعة وعشرين عامًا قضيتها هناك، فغدت هباء منثورًا؟

الفصل الثامن عشر

كينيا

بعد أن غادرنا السودان؛ حطّ بنا المقام في منزل (ماكدونيل) الريفي، على بعد ثمانية عشر ميلًا من (نيروبي) - على ارتفاع خمسة آلاف قدم فوق سطح البحر!. كان الريف مُكتنفًا بدفء الطقس، ومحاطًا بخضرة مزارع البن والذرة الشامية وسط الغابات!. لقد استقر (ماكدونيل) في تلك الأنحاء منذ أربعين عامًا، فغدا الملك غير المتوج لذلك المكان!. بمساعدة (ماكدونيل)؛ عثرنا على مزرعة تبلغ مساحتها حوالي الخمسين هكتارًا، وبها منزل من أربعة غرف ذات سقف من ألواح الخشب. لقد كان المنزل واقعًا على سطح تلة مطلّة على بقية مباني المزرعة ومساكن الخدم، بينما يجري جدول صغير في بطن الوادي.

كان أن تمّ بناء سد فوق ذلك النهر الصغير. فيما جرى إيصال الماء من البحيرة خلف السد، إلى مستودع لحفظ الماء جوار المنزل.

لقد نشأ بيني وبين أعمال الزراعة غرام وعشق من نوع خاص! وصرت أجد متعة -أيّما متعة- في الذهاب إلى السوق المحلية، لشراء الأبقار والدواجن والبط. قمنا كذلك بالحصول على ثلاثة من الكلاب من روديسيا، سمَّينا أحدها (شارلي). كما قمنا بشراء حمار كان له نهيق موسيقي! لدرجة أن أطلقنا عليه لقب (كاروسو).

قررت في ذلك الحين الشروع في إنجاز ثالث مزرعة ألبان لي عبر حياتي المهنية! لذا؛ فقد قمت بشراء ثلاث من أبقار الفريزيان، وأطلقت عليها أسماء (ماري) و(مارتا) و(ماجي)!

لم ألبث أن رسا عليّ عقد توريد ستة جوالين من الحليب -يوميًا - لمصنع مجاور. لقد قام الطبيب البيطري الذي يسكن إلى جواري، بعمل التلقيح اللازم لأبقاري. بعدها قمت بتخصيص سبعة هكتارات كانت ملأى بنوع من أشجار الطلح، درّ عليّ ربحًا لا بأس به! حيث كنت أقوم بقطع تلك الأشجار وبيعها لتاجر هندي، كان -هو الآخر- يقوم بقطع أغصانها،

وبيع أخشابها لزوم التدفئة.

على بعد حوالي الميل من مزرعتنا؛ كانت تقع مدرسة (ليمرو) للبنات. وهي إحدى أفضل مدراس البنات في كينيا. وكانت ناظرة المدرسة هي الآنسة (فيشر): ابنة أخ كبير أساقفة (كانتربري). لقد كانت امرأة رائعة! حيث طلبت مني – ذات يوم– أن أكون طبيبًا للمدرسة. لم أكتف بمهمّتي طبيبًا للمدرسة، بل تجاوزتها إلى تقديم دروس للطالبات عن الصليب الأحمر، وبعض الحصص عن السودان. ولقد قوبل جميع ذلك باستحسان كبير!.

ما أكملت الشهر؛ حتى التحقت بوظيفة مساعد المدير الطبي لمستشفى (نيروبي)! وكان من مهامي في تلك الوظيفة، عمل عيادة لإعطاء اللقاحات اللازمة، ضد (التايفويد) و(الحمى الصفراء) و(الجدري).

لقد كان إعطاء ثلاثمئة حقنة يوميًا، شيئًا باعثًا على السأم. لذا؛ قمت بترتيب عيادة متخصصة لعلاج المرضى من موظفي مجلس بلدي (نيروبي).

لقد ساهم ذلك العمل، في تخفيف مشقة الذهاب لدى أولئك الموظفين إلى المستشفى العام، طلبًا للاستشارة الطبية. إلا أنّ عملي هذا، قد قوبل بامتنان أكثر من مرضاي! في حين لم أحظَ من المجلس البلدي بتقدير يُذكر! لأنّه – فيما يبدو– سعيد بتوفير تكلفة علاج موظفيه في المستشفى!.

كنا على مسافة غير بعيدة من فندق (بلاكنهيرست) المحتوي على ميدان للغولف. كان ذلك الفندق منتجعًا محببًا لدى موظفي حكومة السودان آنذاك، يقصدونه لقضاء إجازاتهم في ربوع كينيا. ولم تمنعهم ظروف الحرب العالمية الثانية من تلك السوانح! خاصة أنّ معظم الموظفين البريطانيين، كان يتعذر عليهم السفر إلى بريطانيا لقضاء إجازاتهم هنالك. ولقرب الفندق من مزرعتنا، كنا نقضي معظم أوقات فراغنا فيه.

بعد قضاء عام؛ تمّ انتخابي رئيسًا لنادي الغولف – لا لكوني أفضل اللاعبين! بل لملكاتي في الحفاظ على النظام والانضباط داخل النادي. ولم يكن لدي أي اتجاه كي أنغمس في الزيارات الطبية، فحصرت عملي في المنطقة على أضيق نطاق! لكن كانت الطوارئ الناشئة عن حوادث الطرق، أو المزارع، أو الحالات المرضية الملحّة في المدرسة، تستحوذ على اهتمامي، وتجد مني الأولوية عمّا عداها من أنشطة.

قبل حضوري بسنوات؛ أتي أحد الأطباء البولنديين، وقام بفتح عيادة في البلدة. فكنت أشجّع الناس على مراجعته عند الحاجة.

من ناحية أخرى؛ كان في (نيروبي) مسرح صغير، يُعرض عليه عدد لا بأس به من المسرحيات الجيدة! هذا، إضافة إلى مشاهدة الأفلام في دار السينما، وحضور الحفلات الاجتماعية في فندق (براكنهيرست)! حيث كانت تلك - جميعها- كافية لملء أوقات فراغنا. كنا كذلك حريصين على الذهاب - أحيانًا - إلى منتجع (ممبسا) السياحي على المحيط الهندي، فنقضي به أويقات طيّبات على الشواطئ الرملية، مستمتعين بالسباحة في مياه المحيط الدافئة!. كانت تلك فترة ممتعة قضيناها في كينيا، مليئة بالرحلات إلى مختلف أرجائها. رغم كل ذلك، لم تكن لدي رغبة البقاء زمنًا أطول في تلك البلاد!.

كان السكان المحليون في غاية الطيبة ويسهل التعامل معهم، إلا أنّ ذلك لم يكن ليعدل ما ألفته من السودانيين من طيبة وحسن تعامل. لقد تعلم طفلاي اللغة السواحلية! لكنني لم أبرع في ذلك أبدًا.

بعد عامين قضيناها في كينيا؛ أطل شبح مخيف!. لقد نشأت بعض الاضطرابات بين أفراد قبيلة الكيكويا **Kikuya tribe**. كان كل العاملين في مزرعتي من أبناء تلك القبيلة! وغدا عدم إحساسي بالثقة تجاه هؤلاء، شيئًا مزعجًا للغاية!.

لقد نشأت حركة تسمى (الماوماو) وهي موجهة ضد البريطانيين وضد الأوروبيين عمومًا، وبدأت تلك المنظمة في القيام ببعض الأعمال الإرهابية ضد البريطانيين.

لقد تعرض المستوطنون الأوروبيون لبعض أعمال النهب والسرقة، وإشعال الحرائق في المزارع، والاعتداء، وحتى القتل! مما جعل الحياة لدينا كابوسًا مخيفًا. تم بعدها إنشاء قوة من البوليس لردع حركة (الماوماو)، وتم تعييني طبيبًا لتلك القوة.

أحسست آنئذ؛ أن المكان لم يعد ملائمًا لسكن وتعليم أطفالي الصغار. لذا؛ فقد قرّرت البحث عن وظيفة في بريطانيا. سافرت وزوجتي إلى (لندن) لتلك المهمة، بعد أن قمنا بترتيب مناسب لأطفالنا، في مدرسة داخلية بعيدة عن مناطق نشاط حركة (الماوماو).

بعد يوم من وصولنا إلى (لندن)؛ قابلت دكتور (هيوتوبنج) في (ريجنت استريت). كان (هيو) أحد زملائي خلال دراستي في كلية طب (أبردين). وكان وقتها؛ يشغل وظيفة مدير مدرسة طب المناطق الحارة في (لندن). سألته عن إمكانية الحصول على وظيفة في تلك المدرسة. فأجابني بقوله: «ما لم يُتوفى أحد الأطباء؛ لا أرى أي إمكانية للحصول على وظيفة عندنا في السنوات المقبلة! لكنّني كنت أعلم أنّ وزارة الصحة تبحث عن طبيب ذي خبرة في مجال طب

المناطق الحارة، كي يقوم بإنشاء وحدة جديدة بها».

في وزارة الصحة؛ أخبرت أنّ وظيفة بدوام جزئي **part time** في مجال الأورام والعلاج بالأشعة السينية، سوف تصبح وظيفة دائمة. من باب الاحتياج؛ لم أتردد في التقديم لتلك الوظيفة، رغم أنّه لم تكن لي سابق خبرة في ذلك المجال!.

بعد إرسالي الطلب؛ سافرت متجولًا بالسيّارة في المنطقة لدى أعالي الجبال الأسكتلندية. وعند عودتي؛ علمت أنّه قد فاتني حضور المعاينة في الوزارة!. بعدها بيوم؛ وردتني رسالة مقتضبة تدعوني للحضور إلى وزارة الصحة على عجل! ومقابلة السير (إرنست روك كارلينق). الشاهد في الأمر؛ أنّ اثنين ممّن تمّت دعوتهم للمعاينة، كانا من منسوبي الخدمة الطبية الهندية سابقًا، لم تكن لديهما أهليّة لتلك الوظيفة!. ويبدو أنّ ثمّة من ذكر للسير (كارلينق) يوم المعاينة؛ أنّ المدعو دكتور (كروكشانك) لم يحضر للمعاينة! ولقد تواتر أنّ (كولونيل دايموند): عضو لجنة المعاينة ورئيسي سابقًا في القاهرة – قد علق قائلًا: «إذا كان ذلك الطبيب؛ هو كروكشانك من سابقي موظفي حكومة السودان.. إذًا لا بد من العثور عليه!». لقد كانت تلك من المصادفات السعيدة حقًا!.

خلال المعاينة؛ ابتدرني السير (إرنست) استشاري الوزارة للأورام: «ماذا تعرف عن علم الأورام؟ أيها الرجل اليافع».

لم أتردد إطلاقًا في الرد على الفور.. «عمليًا، لا شيء ألبتة!»

كنت –وقتها– ابن إحدى وخمسين سنة!!. لكنّي أدركت – ساعتها– أنّني أمام رجل، لا يمكن ليخدعه أحد أبدًا! ناجزني السير (إرنست) الرّد «هذه بداية طيبة!». لقد نجحت في المعاينة، وتمّ اختياري لشغل المنصب، وطُلب منّي الشروع في العمل أسرع ما يكون!.

عدنا إلى كينيا؛ فاقتلعنا أوتاد خيمتنا، وبعنا متاعنا والأثاث! ثمّ ما لبثت أن اسقلت عن كل وظيفة، وتخليت عن كل ارتباط!. وفي آخر يوم من أيّامنا في تلك البلاد؛ أقامت (مس فيشر) حفل وداع رائع، جمع كل طالبات المدرسة.

من (نيروبي).. سافرنا بالطائرة إلى (جوبا) في جنوب السودان، حيث التقينا أصدقاءنا وزملاء المهنة القدامى.. ومنها إلى (الخرطوم) ثمّ (القاهرة)، التي ودعنا عندها آخر عهد لنا بإفريقيا، بعد قضاء ثمانية وعشرين عامًا بين أحضانها.

وصلنا إلى إنجلترا في شهر نوفمبر، ذات مساء بارد ملبّد بالضباب.

الجزء الخامس

الفصل التاسع عشر

بعد أربعة أيام – فقط– من قدومي من كينيا؛ بدأت عملي مديرًا طبيًا – تحت التجربة– في وزارة الصحة. وكانت الخدمة الطبية القومية، ما زالت في مرحلة التوسع. فقرّرت –حينها– إنشاء وحدة لعلاج السرطان، مع التركيز على العلاج بالأشعة. كانت تلك هي المهمة التي اضطلعت بها، مدة الأربع عشرة سنة التالية من حياتي.

لقد بدأ استخدام الأشعة والطاقة المشعة – تاريخيًا – بثلاثة اكتشافات مهمة، تحقّقت جميعها في القرن التاسع عشر. لقد تمّ اكتشاف الأشعة السينية أولًا؛ بواسطة الألماني (رونتجن) عام 1895، ثمّ اكتشاف نشاط المواد المشعة عام 1896 بواسطة (بيكيريل)، وأخيرًا – وفي غضون عام 1898، قام الزوجان (كوري) باكتشاف خام (الراديوم). بعدها، انتشر استعمال الأشعة السينية وأضحت وسيلة تشخيصية للأمراض. ثمّ لم يلبث العلماء أن اكتشفوا النشاط الفعّال لتلك الأشعة، وقابليتها الشديدة لإحداث تغييرات في أنسجة جسم الإنسان.

لم يمرّ زمن طويل؛ على اكتشاف الأشعة حتّى استُخدمت في علاج سرطان الجلد! وتمّ تداول أوّل علاج بالأشعة لأوّل حالة سرطانية في الجلد عام 1899. لكن، وفي مرحلة متأخرة، تمّ التنبّه إلى أنّ الأشعة يمكنها إحداث ضرر بالغ بالأنسجة البشرية الطبيعية!. لقد تبيّن أنّ الأشعة يُمكنها علاج السرطان، وقد تكون سببًا لحدوثه في آن!.

في عام 1923، وصل عدد أخصائيّي الأشعة، الذين قضوا نحبهم جرّاء السرطان أو الحروق من التعرّض لتلك الأشعة، إلى حوالي المئة!!. وفي عام 1901، أوضح (بيكيريل) نفسه، كم خطيرة هي مادة (الراديوم)، حين تعرّض لحروق في منطقة البطن الأمامية، جرّاء حمله كمية ضئيلة من تلك المادة، كانت في جيب معطفه!.

لقد كان لتلك المواد المشعة مخاطر أخرى. إذ يمكن التعرّض لها عن طريق المياه أو الهواء الملوث. وعند حدوث ذلك؛ تستمر تلك المواد في الانبعاث من جسد المتعرّض لها –غالبًا – طيلة

حياته!!. لقد كانت هنالك بعض الحالات المأساوية. أذكر منها أولئك النسوة اللائي يعملن في صناعة الساعات - حيث كنّ يلعقن منظّمات عقارب الساعات المدهونة بمادة (الراديوم) بألسنتهنّ، بين حين وحين!. لقد حدث لكثير من أولئك النسوة تآكل في عظام الفك! بل قضى بعضهنّ نحبه جرّاء سرطان العظام!.

وممّا يؤسف له، أنّ الاكتشافات ذات الفائدة العظيمة، دائمًا ما تكون مصحوبة ببعض الآثار السالبة، التي تظهر ولو بعد حين!.

لقد تمّ إنشاء المجلس القومي لـ(الراديوم)، بعد إصدار القانون الملكي عام 1929، وتمّ اختيار نخبة من الخبراء - انتُدبوا للعمل به. كان من مهام ذلك المجلس؛ إنشاء وحدات العلاج بالأشعة في مختلف أرجاء بريطانيا، وتعيين الخبراء فيها. لقد كان ذلك عملًا عظيمًا! حيث المستوى الرفيع لتلك المراكز البريطانية، يجلّ عن المقارنة بأمثاله لدى الدول الأخرى!.

لقد حدثت بعض التطوّرات المذهلة في هذا المجال، خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها، باعتبارها المحرك الرئيسي لتلك التطوّرات. لقد تمّ اكتشاف أنّ كثيرًا من العناصر الطبيعية ومثيلاتها الجزئية، يمكن تنشيطها إلى مواد مشعة، ويمكنها أن تظل على تلك الحال لزمان طويل!.

كان هناك عنصران؛ تمّ استخدامهما بكثافة في مجال الأشعة العميقة. أولهما هو (الكوبالت 60)، الذي تستمرّ فعاليته فترة تزيد عن الخمسة أعوام!. ولقد استُعمل هذا العنصر بكثرة في بريطانيا. الثاني كان مادة (الكالسيوم 137)، وهو عنصر جانبي ناتج عن انشطار الذرة. ويظل فعّالًا لفترة تزيد عن الثلاثين عامًا!.

عند تأسيس الخدمة الصحية القومية عام 1948؛ استُبدل مجلس (الراديوم) بالمجلس الاستشاري، تحت رئاسة السير (آرنست روك كارلينق). لقد زوّدني السير (آرنست) بكل ما يجب معرفته عن علاج السرطان بالأشعة في بريطانيا. لقد قمنا بعدها - سويًا - بالطواف على حوالي الستة وسبعين مركزًا للعلاج بالأشعة، في إنجلترا وويلز.

بعدها تمت دعوتنا كذلك لزيارة مراكز مماثلة في أسكتلندا ودبلن. لقد تم تجهيزي ابتداءً بكورس تجهيزي في الفيزياء النووية في مدرسة البحرية الملكية في بورتسموث وصرت أقضي الساعات الطوال في الأمسيات أدرس وأبحث وأختزن تلك المصطلحات الجديدة، ولم يمض زمن طويل قبل أن أصير مولعًا بهذا العلم الجديد عليّ كليًا.

أحسست أنّ المجال يناسبني تمامًا. عندما تقاعد سير (آرنست): ذلك الرجل الوديع الهادئ!

تمّ تعيين السير (ستافورد كيد) خلفًا له. وعقب جولة تفتيشية مع المدير الجديد؛ تبيّن لنا مدى التطوّر الذي حققناه في مختلف مراكز بريطانيا. ومع النجاح الذي حققناه في إنشاء وتجهيز هذه المراكز آنفة الذكر، تحولت بجهدي الخاص إلى مجالات أخرى، تمّ توثيقها في كل السجلات المتعلّقة بمهمّتي في تلك الإدارة. ويمكن تلخيص وإفراد تلك المجالات التي قمت بتبويبها ذات يوم، على النحو التالي:

1. برنامج توعية وتثقيف للجمهور عن أمراض السرطان.
2. تسجيل كل حالات السرطان في بريطانيا.
3. عمل إحصاء للحالات التي تم علاجها من السرطان في بريطانيا.
4. مشروع للوقاية من السرطان.
5. التبغ وسرطان الرئة.
6. عمل مسح استبياني للسرطان في بريطانيا.
7. إنشاء مراكز العناية بالحالات الميئوس منها.
8. الأسئلة المدرجة في جلسات مجلس العموم.
9. استفسارات ورسائل الجمهور.
10. بحوث مرض السرطان.
11. منظمات العناية بالسرطان – الطوعية.
12. العلاقة مع المنظمات العالمية للسرطان.

لقد كان ثمّة موضوعان حازا اهتمامي، هما: برامج الوقاية من السرطان، والعلاقة بين التدخين وسرطان الرئة. لقد أثبت كل من (دول) و(هيل) في بحثهما المنشور عام 1956، عن العلاقة المحتملة بين التدخين وسرطان الرئة. وقد أدى نشر ذلك التقرير، إلى انخفاض مبيعات التبغ بنسبة ٪20!. ومن الطريف؛ أن قاد ذلك إلى عدم ارتياح الحكومة البريطانية! إذ كان ريع الضرائب على التبغ، يغطي نصف ميزانية الخدمات الصحية!!. حدث ذات يوم نقاش محتدم في مجلس العموم. فكُلّفت –حينها– بتجهيز تقرير عن الموضوع، يعرضه وزير الصحة خلال تلك الجلسة!. إلا أنّه لم يتّخذ وقتها قرارًا نهائيًا بشأن الموضوع!. تواترت بعد ذلك عدة تقارير وبحوث عن الصلة بين التدخين وسرطان الرئة – خاصة لدى الذكور، وازدياد معدلات الوفيات نتيجة لذلك. لكن مضت سبعة أعوام؛ قبل أن تصدر الكلية الملكية تقريرًا يشير إلى العلاقة المؤكدة بين

التدخين وسرطان الرئة!.

لقد تم استحداث كثير من الوسائل والأجهزة لمساعدة المدخنين على الإقلاع عن تلك العادة. وكانت عيادات التدخين أكثرها فشلًا. أخيرًا؛ اتضح أنّ خير وسيلة لمنع التدخين، هي القيام بحملات توعية طويلة المدى، مُصمَّمة لإقناع المدخنين بضرورة الإقلاع عن تلك العادة الضارة!. لقد قامت وزارة الصحة -حينها- بتنظيم فريق عمل. وأذكر أن نظمت الأبيات الشعرية التالية:

ليس ثمة عقار .. ذا قوة سحرية
بل عزيمة لدى الفتى قوية
المهدئات لا تنفع سوى إطالة المعاناة
خذ الشجاعة من بابها
وأقسم بالجرس والكتاب والشمعة
أنك لن تشعل مرة أخرى لفافة!

من كل تلك الحيثيات آنفة الذكر، قررت التركيز على حملات الوقاية من سرطان الرئة. لم يكن السرطان وقتئذ؛ يحظى بكثير من النقاش. وكان مرتبطًا في أذهان العامة ارتباطًا وثيقًا بالموت! وكان المصابون به ميؤوس من شفائهم! لاسيّما وأنّ معظمهم من الطاعنين في السن. لكن في السنوات الأخيرة؛ حدث الكثير من التطور في فهمنا لطبيعة مرض السرطان. فعلى سبيل المثال؛ أنّ الخلايا السرطانية عادة لا تنشأ من الخلايات الطبيعية، وإنما يسبق ذلك الكثير من التغيرات في تركيبة الخلية، قبل أن تتحول إلى خلية سرطانية. لذا؛ في حال تمّ اكتشاف تلك الخلايا -وهي في طور التغيير قبل التحول إلى خلايا سرطانية- فإنّه يمكن إعطاء العلاج الذي ربّما يؤدي إلى منع تطور تلك الخلايا غير الطبيعية!. كذلك؛ نعلم الآن أنّ السرطان ليس مرضًا واحدًا - لكنّه يتفاوت من منطقة إلى أخرى عبر العالم، من حيث النوع ومواضع الإصابة. والآن؛ صارت لدينا معرفة وافية عن العوامل الشخصية والوراثية، وكذلك العوامل النفسية التي تحيط بمريض السرطان.

إن ظروف العيش الحديثة؛ جعلت القابلية لبعض أنواع السرطان أقل من ذي قبل. حيث يمكننا القول: إنه عاد بإمكاننا التنبؤ بزيادة نسبية في بعض أنواع السرطان، تبعًا للزيادة المطردة في أعداد المسنين في بريطانيا! كما يمكننا التنبؤ بحدوث انخفاض في عدد الوفيات الناتجة عن مرض

السرطان.

هنالك وسيلتان لمنع حدوث السرطان، الأولى: المنع المباشر - عن طريق إقصاء المرض أو تحييده، حال التعرّف على العامل المنشط لحدوث السرطان. وعندما يكون السبب أو العامل غير معروف - وهو الحال في معظم أنواع السرطان- يغدو المسعى في اتّجاه اكتشاف المرض مبكرًا. حيث المرض في مرحلة لا يزال فيها قابلًا للعلاج، واحتمالات الشفاء منه واردة.

إنّ تطور العلوم، والتثقيف الصحي، وتوافر العلاج الناجع لكثير من أنواع السرطان، عوامل أدّت إلى حدوث طفرة كبيرة في مجال مكافحته، وتدعو للتفاؤل بمستقبل أفضل!.

على الصعيد الشخصي؛ وجدتني بعدما باغتتني سن التقاعد، محظوظًا!!. ففي آخر أسبوع لي في وزارة الصحة، تلقيت عرضًا لوظيفة مستشار طبي، في منظمة (تينوفيس) لعلوم السرطان، بمدينة (كارديف) في (ويلز). لم أتردد في قبول الوظيفة، واستجبت لطالبيها على الفور!.

لقد ساعدتني تلك الوظيفة على مواصلة عملي في مجال السرطان، والاحتفاظ بعضويتي في المجلس البريطاني للسرطان!. كان يقام - كل أربعة أعوام- مؤتمر عالمي للسرطان. وفي عام 1962؛ كنت محظوظًا، إذ ابتُعثت ممثلًا لبريطانيا في المؤتمر الذي عقد في موسكو. لقد كانت تلك تجربة مثيرة حقًا. ابتداءً - حيث كنت مُبتعثًا من الوزارة- تمّ استدعائي إلى وزارة الخارجية، وأعطيت تنويرًا عن مخاطر السفر إلى روسيا، وعن خطورة النساء الروسيات كذلك. ومن حسن الصدف؛ أن أحد زملائي السابقين خلال عملي في السودان، وهو: دكتور (تاونسند كول)، كان يشغل وظيفة طبيب في السفارة البريطانية في (موسكو)! فأفدت من الرجل كثيرًا، عن الروس وعاداتهم وقوانينهم. أذكر حين زرته في مبنى السفارة، لاحظت وجود الحراس في كل مكان من المبنى! وعند المدخل الأمامي والخلفي. وفي كل مرة يخرج فيها صديقي دكتور (كول) من السفارة، كانت تبعث المعلومة - فورًا- إلى رئاسة الحرس!. لم يكن مسموحًا لدكتور (كول) بالسفر خارج السفارة، مسافة تتجاوز دائرةً قطرُها خمسون ميلًا! شأنه وشأن بقية موظفي السفارة!. لقد كان ذلك غريبًا حقًا!!.

حين تناولت طعام الغداء ذات يوم مع صديقي في السفارة؛ بادرتني والدة أحد الموظفين قائلة بصوت عال: إنّ المكان جميعه تحت المراقبة. لقد كان ذلك ما نتوقعه حقًا. على الصعيد الآخر كانت الضيافة الروسية جيدة للغاية! إذ الكافيار والشمبانيا يوزّعان بكرم وسخاء، حين حضور ممثلي مجلس السوفيت الأعلى للمؤتمر. هذا؛ إلى جانب حفلات الترفيه، التي اشتملت

على عرضيْن راقييْن من فرقة (البولشوي).

من (موسكو) سافرت إلى مدينة (لينينجراد): (سانت بيترسبرج). كنت في غاية السعادة؛ حين استمتعت برؤية فن العمارة الراقية في مباني المدينة! وكذلك السكان الذين كانت تبدو عليهم سيماء الصحة والرفاهية!. غادرت بعدها إلى (لندن) عن طريق (هلسنكي) ثمّ (استوكهولم) وأخيرًا (كوبنهاجن) - حيث قمت بالاطّلاع هناك على بعض برامج سجلات السرطان.

كانت آخر مشاركة لي في المؤتمر العالمي للسرطان عام 1966 في اليابان. حيث قمت بتقديم ورقة عن استحداث سجلات لمرض السرطان. لقد انتهزت الفرصة أن أضيف إلى تلك المهمة أيّامًا عدة - وحسبانها إجازة! فاصطحبت معي زوجتي وابنيّ. لقد سافرنا بالدوران إلى اليابان، وعدنا إلى موطننا عن طريق (بانكوك) ثمّ (كلكتا)، وأخيرًا (طهران) مرورًا بـ(دلهي).

ربما لم تحرز تلك المؤتمرات الكثير من التقدم حينها. لكنّها كانت فرصة للخبراء من مختلف أنحاء العالم، للنقاش والتفاكر حول أحدث الوسائل، وللتواصل والتعارف فيما بينهم.

على كل؛ كنت ممتنًا -شخصيًا - لتلك الفرص، التي أتاحت لي زيادة معلوماتي وخبرتي عن السرطان، ورؤية أماكن جديدة في العالم، وخلق كثير من الصلات والصداقات!.

الخاتمة

Epilogue

أخيرًا .. محط الترحال

Real home at last

أتاحت لي وظيفتي في (لندن)؛ العيش على مسافة معقولة من أحبابي – أهلي وأصدقائي. لقد استقر صهري دكتور (موريس) كبير الجراحين سابقًا في السودان في (آيد هيل) قرب (سفن أوكس). ولذا؛ قررنا أن نستقر في تلك الناحية من مقاطعة (كنت). أخيرًا؛ وبعد جهد العناء، اشترينا قطعة أرض في منطقة (ريفرهيد) على الناحية الجنوبية من (سفن أوكس)، مسافة ميل من محطة القطار. لقد كانت قطعة الأرض تلك جزءًا من حديقة قديمة، تتبع لـ(سفن أوكس مانور هاوس)، حيث عاش المسكين (توماس كرانمير) كبير الأساقفة في القرن السادس عشر.

عند مدخل المنزل؛ كانت هنالك شجرة إسبانية عملاقة من الـ **chestnut** – رأيت في أحلامي – ذات يوم- الأسقف كرانمير واقفًا تحتها، وهو يتلو بعض التراتيل من كتابه عن الصلوات!. فكانت تلك مناسبة، أن أطلقنا اسم (كرانمير) على منزلنا ذاك!.

لقد ورثنا شجرة توت بري في الحديقة، ولم نستطع تحديد عمرها الزمني. لكن الشجرة ظلت تُخرج ثمر التوت، لعشرة أعوام تالية!.

قمت –أيضًا – باستنبات نجيلة كبيرة في الحديقة أمام بهو المنزل، قصد تهيئة ملعب لإقامة مباريات (الكريكيت)! ولمْ يمض طويل زمان، حتى أضحت مباريات (الكريكيت) في منزلنا قبلة الجميع. وإذ إنّ محطة القطار كانت على مقربة من البيت، صرت أستقل القطار – يوميًا – للذهاب إلى عملي في (لندن). كان من الصعوبة بمكان، أن تجد مقعدًا خاليًا في رحلة الإياب إلى

البيت كل يوم. لذا فقد كنت أحس الراحة، حين أغادر القطار قاطعًا مسافة الميل مشيًا إلى الدار، حيث يكون في انتظاري كل يوم كلبي المفضل من فصيلة (جاك رسل)؛ الذي أطلقت عليه اسم (رنجو).

لقد عشنا في سعادة وهناء، في (كرانمير) زهاء الأربعة عشر عامًا. بعدها توفيت زوجتي بمرض السرطان!. كان وقتها ابني (كولن) وابنتي (بريجيت) يعملان في (لندن)! فلزمني الرحيل إلى شقة في وسط (لندن)، حتي أكون على مقربة منهما. لقد ورث كلاهما حب الترحال والتجوال!. خلال عام؛ حصلت (بريجيت) على وظيفة في (روما)، وتزوّج (كولن) وهاجر بعدها، إلى أستراليا.

(انتهى)

الفهرس

-مقدمة الكتاب 3

- مقدمة المترجم 5

- تقديم 9

- الجزء الأول 17

- الفصل الأول 19

- حياة الأسرة الباكرة 22

- الفصل الثاني 25

- الفصل الثالث (ترخيص مزاولة المهنة) 29

- الفصل الرابع (سفر الخروج) 37

- الرحلة إلى السودان 39

- الفصل الخامس (الوظيفة الأولى في السودان) 43

- الفصل السادس 47

- أول إجازة في ربوع الوطن 53

- الجزء الثالث 57

- الفصل السابع (المستشفى المتنقل) 59

- الفصل الثامن (طب البداوة) 65

- الفصل التاسع (جنوب السودان) 73

- الفصل العاشر (إنشاء مستوطنة (الجذام)) 81
- الفصل الحادي عشر (الحياة البرية) 91
- الفصل الثاني عشر (الرحلة الموسمية للحيوانات البرية) 103
- الفصل الثالث عشر (إكمال بناء مستوطنة (الجذام)) 111

- الجزء الرابع 121
- الفصل الرابع عشر (سنوات الحرب) 123
- الفصل الخامس عشر (حب وغرام) 137
- الفصل السادس عشر (تطور الخدمة الطبية السودانية) 143
- الفصل السابع عشر (في الخرطوم - كبيرًا لأطبّاء الباطنية) 161
- التقاعد عن عملي في السودان 163
- الفصل الثامن عشر (كينيا) 165

- الجزء الخامس 169
- الفصل التاسع عشر 171
- الخاتمة 177